

الحياة
الفكرية والسياسية
لأحمد البديع

تأليف
رَسُول جَمْعِيَّان

مَنْشُورَات
دار الحق
بيروت / لبنان

الحياة
الفكرية والنسبية
لأهل البيت



الحياة
الفكرية والسياسية
لأمة أهل البيت

المجلد الأول

تأليف
رَسُول جَعْفَرِيَان

منشورات
دار الحق
بهرت

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب محطة دياب - بناية المهنية اللبنانية .

ص . ب ١٧٩ / ٢٥ غيبري تلفون : ٨٢٥٣١٦ فاكس ٠١٢١٢٤٧٨١٨٢٧

مقدمة الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين .
برغم ضخامة المؤلف عن حياة الأئمة عليهم السلام الذي تارة أخذ شكل
المجاميع الروائية أو الأخبار التاريخية، لم تأخذ حقها من الدراسة كحياة
عظماء جسّدوا الاسلام واعطوا المثل الأروع عنه، وذلك نتيجة ابعاد
الاسلام الاصيل عن الساحة، وتصدي النموذج الأبعد عن الاسلام للأمر .

وبعد بزوغ فجر الاسلام من جديد وعودته إلى دوره، كان لزماً إعادة
النظر في جميع مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية
والعسكرية، ودراستها لاستكشاف رأي الاسلام ومنهجه، وبلورة مفهوم
صحيح وصالح عنه . وهو شأن المفكرين وذوي الاختصاص .

ومن أهم الجوانب التي يجب التركيز عليها حياة المثل الأروع
والمجسد الحقيقي للاسلام الأئمة عليهم السلام والكتاب الذي بين يديك
-عزيزي القارئ- جهد مشكور قام به أحد علمائنا الأفاضل، يتناول
الجانب الفكري والسياسي للأئمة عليهم السلام، ودراسة حياتهم، وقد جمع في
مجلدين، تناول الجزء الأول حياة ستة من الأئمة، وتناول الجزء الثاني بقية
الأئمة (سلام الله عليهم) .

ودار الحق للطباعة والنشر والتوزيع إذ تضع هذا الجهد بين يدي
القارئ الكريم، تأمل من جميع المفكرين وذوي الاختصاص، أن يكون هذا
الكتاب بادرة للتوسع في دراسات معمقة ومتخصصة عن حياة أولئك
العظماء، ومن القارئ العزيز الاستفادة من هذه الثروة في الاحتذا
والاقتداء بأولئك الهداة.

نسأل الله دوام التوفيق.

دار الحق
للطباعة والنشر والتوزيع

دراسة حياة الائمة عليها السلام شمولاً وعمقاً

بداية:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ، وصلاته وسلامه على عباده الذين اصطفى ، محمد وآله الطيبين
الطاهرين ...

وبعد..

فان الحديث عن الائمة ، وعن حياتهم ، ومواقفهم وممارساتهم ليس حديثاً
عن أشخاص لهم ميزات وخصائص محدودة ، ذات طابع فردي تمتاز بها شخصية
مّا على حدّ ما عرفناه والفناه .

وانما هو حديث عن الاسلام بشتى مجالاته ، ومختلف ابعاده ، واروع

خصائصه، وبكل ما فيه من شمولية، وأصالة وعمق.

انه حديث عن الحياة مجلوها ومرها، وبكل ما لها من اتّساع وامتداد، وغموض ووضوح وهو ايضاً حديث عن هذا الكون الرحب، وعن كل ما فيه من عجائب وغرائب وآيات بينات.

حديث عن الدنيا والآخرة بأفاقهما الرحبة، وبجميع ما فيها ولهما من ميزات، وسمات.

اذن.. فليس بوسع اي باحث أو مؤرخ ان يستوعب حياتهم ﷺ. ولا أن يعكس لنا الصورة الدقيقة والطافحة بكل النبضات الحية في شخصيتهم، وفي مواقفهم ومجمل سلوكهم، الا اذا استطاع ان يدرك بعمق كل حقائق الاسلام، ويقف على واقع تأثيراته في كل حياتهم، وفي كنه شخصياتهم، ومن ثم انعكاساته على سائر المواقف، وعلى كل المفردات، والحركات، والسلوك، والتعامل مع كل ما ومن يحيط بهم.

ولا نزن احداً يستطيع ان يدعي انه قد بلغ هذا المستوى او وُفّق لمثل هذا المقام الرفيع، الا ان كان واحد منهم ﷺ، أو من يدانيهم فكراً وعلماً، وفضيلة وخلوصاً، وصفاءً، كسلمان الفارسي وابي ذر واطراهما واين وائى لنا بأمثال هؤلاء، أو بمن هم دونهم بمراتب.

ولكن ذلك لا يعني ان نقف هكذا عاجزين، ولا ان نرتد خائبين. بل لابد من خوض غمار البحث، واقتحام هذا العباب الزاخر بالخير والبركات، والعبر والعظات، من اجل ان يستفيد كل منا حسب ما تؤهله له قدراته، وتسمح له به امكانياته، فان ذلك نور على نور وهو محض الخير الذي من شأنه ان يؤهل لخير

أوفى وأوفر وأكبر ولبركات أعم وأتم وأكثر.

وليست هذه المحاولة من الاخ الفاضل والمهذب الكامل حجة الاسلام الشيخ رسول جعفریان، الا من اجل أنه اراد ان يقتحم آفاق النور لتلامس اشراقته قلبه، ويغمر لجين سناه عقله وروحه، فعاد بالخير الكثير، وبالعطاء الوفير، فشكر الله سعيه، ووقفه وهداه سبل الخير والرشاد، والفلاح والسداد.

آفاق البحث

وإذ قد عرفنا: أن الحديث عن الأئمة عليهم السلام ليس تأريخاً لأشخاص، فيما نعرفه من مفردات التاريخ لهم.

وإنما هو تاريخ الرعاية الإلهية لهذا الانسان، الذي أراد الله له أن تتجسد فيه كل آمال الانبياء وجهودهم، على امتداد التاريخ البشري، فانهم عليهم السلام هم التجسيد الحي، والنموذج الفذ للخلافة الالهية على الارض، بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وبجميع، ما تحمله من مداليل. نعم لقد تجسد في شخصيتهم الانسان الكامل الذي واجه الحياة، بالإرادة والوعي والحكمة، والحزم، وواجهته الحياة بكل ما تملك من سلبيات، وما تحتزنه من مصاعب ومشكلات وما انطوت عليه من مهالك، وآفات. فقهرتها إرادته، التي هي امتداد لارادة الله سبحانه، واحبط مكرها وعيه، لأنه ينظر بعين الله، وانتصرت عليها حكمته، وأناف على جبروتها حزمه، لأن ذلك منه كان بتعليم الله وتسديده، وتوفيقه وتأييده.

ومن هنا.. فانه يصبح من الواضح بمكان حاجتنا إلى فهم حياة الأئمة عليهم السلام من خلال فهم كل الظروف، والاحوال التي ساهمت في فرض واقع معين كان لابد لهم من أن يعايشوه، وأن يتعاملوا معه، في كل مجال، وعلى كل صعيد.

سواء في ذلك ما ربما يعتبره البعض أنه يقع في الدائرة الخاصة في حياتهم الشخصية ﷺ أو في ما يفترض انه الدائرة الاوسع من الحياة العامة في ظروف العمل السياسي والاجتماعي والتربوي العام، وما يرتبط بذلك أو ينتهي إليه، بسبيل، أو بآخر.

وكل ما تقدم إنما يدلّ على حقيقة واحدة، ويؤكدّها، ألا وهي الصعوبة البالغة وحجم المشاق التي لابد ان تواجه أي باحث يريد أن يفتح نافذة على الافاق الرحبة في حياتهم صلوات الله وسلامه عليهم، ويؤرخ لها ولو في المستوى الأدنى، مهما أراد أن يقتصد ويقتصر على الضروري من الشواهد والدلائل.

سؤال.. وسؤال آخر

ولكن ما تقدم يفرض علينا الاجابة على سؤال ملح، وهو:

هل يكفي ما بأيدينا من نصوص ومصادر لهذا المهم، وبني بهذا الغرض، ويحقق تلك الغاية؟!

وإذا كانت الاجابة الصحيحة والصريحة بالنفي، فان السؤال الآخر الذي يواجهنا هو:

هل استطعنا أن نوظف كل ما لدينا من نصوص؟ وهل استفدنا من جميع المصادر التي مجوزتنا بالشكل الكافي، وبالمستوى المطلوب؟!

وطبيعي أن تكون الاجابة الصحيحة والصريحة هي كالاجابة السابقة بالنفي أيضاً، فان الكل يعلم: أننا لم نستطع أن نستثمر ما بأيدينا من نصوص في مجال فهم حياتهم ﷺ، والانطلاق في آفاقها الرحبة واللامحدودة.

بل إننا لن نكون مسرفين في القول، إذا قررنا: أننا حتى الآن لم نقم بما هو ضروري في مجال التحضير للاجواء والمناخات، وتقريب الوسائل التي تؤهلنا، ولو لأن نقدم معلومات عامة منسقة بصورة فنية صحيحة، أو فقل: لم نقم حتى بفهرسة اجمالية تقربنا إلى معرفة القيمة الحقيقية لما نملكه من تراث نافع في هذا المجال، أو ذاك.

فضلاً عن أن نقوم بدراسة النصوص وتمحيصها، ثم ربطها بمناسئها وتأثيراتها في غاياتها بصورة علمية معمقة ومفيدة، ولو في دائرة محدودة.

وإن كنا قد نجد لمحات ولمعات متناثرة هنا وهناك، لم تتل حظها من البحث والتقصي، ولا استطاعت أن تربط نفسها بما عداها، مما كانت لها تأثيرات - به أو فيه - بمستويات متفاوتة.

تأريخان.. غير متجانسين

ولعل مما يزيد الأمر صعوبة، واشكالاً: أننا إذا وضعنا تاريخ الأئمة عليهم السلام، إلى جانب هذا التاريخ الذي يدعي أنه يسجل وقائع واحداث الفترة الزمنية التي عايشها الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم، - لو وضعناهما - أمام باحث أو ناقد لا يملك أية خلفيات تعطيه تصوراً عن حقيقة تطورات الأحداث، وتأثير السياسات، فانه سيجد: أنها تاريخان غير منسجمين، بل وحتى غير متجانسين، ولسوف يخيل إليه: أن الأئمة لا يعيشون الاحداث ولا يشعرون بما يحيط بهم بل لهم عالمهم الخاص بهم، المنغلق والمنطوي على نفسه، وللآخرين عالم آخر، لا يشبه ذاك العالم لا من قريب، ولا من بعيد.

ولكن الباحث الالمعي، والمدقق الخبير، الذي اطلع على حقيقة التطورات،

وما رسمته السياسات في المجالات المختلفة، لسوف يجد عكس ذلك تماماً،
ولسوف يكتشف: أن الائمة عليهم السلام يلامسون الواقع عن قرب، ويسجلون
الموقف الرسالي المسؤول، والواعي، تجاه كل ما يجري، ويدور حولهم.

ولعلمهم ﷺ يمثلون في أحيان كثيرة أعرق العوامل تأثيراً في مجمل الواقع
السياسي، والاجتماعي، والثقافي، والتربوي، على مستوى الأمة بأسرها، فضلاً
عن تأثيرهم العميق، في الدائرة التي يبدو - للوهلة الأولى - أنهم يعيشون فيها،
ويتعاملون معها.

التزوير.. والاصالة:

وفي مجال فهم عوامل هذا الاختلاف الظاهر بين دينك التاريخي، لابد من
التأكيد على الحقيقة التالية:

وهي: أن ذلك الفريق الذي اهتم بتسجيل بعض اللحاحات من حياة الائمة
ومواقفهم ﷺ. يختلف كثيراً في عقليته، وفي مفاهيمه، وفي طموحاته، ثم في
خوافزه ودوافعه، وكذلك في اهدافه وغاياته - يختلف كثيراً - عن ذلك الفريق
الذي تصدى للتأريخ لتلك الفترة الزمنية، التي عايشها الائمة ﷺ.

والأهم من ذلك هو ذلك الاختلاف الظاهر، والاساسي بين هذا الفريق
وذاك في مجمل المعايير والمنطقات التي راضيا كل لنفسه، وانطلق منها لتمييز الحق
من الباطل، والصحيح من السقيم، وعلى أساسها كان الرد أو القبول، والخروج،
والدخول، في مختلف المواقع والمواضع.

حيث وجدنا: أن المنطقات، والمعايير، التي انطلق منها، وتحرك على
أساسها أولئك الذين أرخوا لتلك الحقبة من الزمن، وكتبوا ما يسمى بـ«التاريخ

الاسلامي» قد كانت في مجملها مزيفة ومضللة، أريد منها تكريس الانحراف، وتأكيده، وتبريره، والحفاظ عليه، وتسديده.

ولا نقول ذلك تعصباً، ولا تجنباً على التاريخ والمؤرخين، ما دام أن الكل يعترف لنا بحقيقة:

أن التاريخ المكتوب ليس هو تاريخ الشعوب والأمم، ولا يملك القدرة على أن يعكس لنا آمالها، ولا آلامها، ولا معاناتها أو حركتها في واقع الحياة.

وإنما هو تاريخ الحكام والسلاطين، ومن يدور في فلكهم.

وحتى تاريخ الحكام هذا؛ فانه لم يستطع أن يعكس واقعهم بامانة ودقة ونزاهة، مادام أنه غير قادرٍ إلا على تسجيل ما يرضي الحكام، ويصب في مصلحتهم، ويقوي من سلطانهم، مهما كان ذلك محرفاً غير نقي، أو مزوراً وغير واقعي.

فلم يكن ثمة مؤرخ يملك حرية الرأي، ولا هو مطلق التصرف فيما يريد أن يقول أو يكتب. كيف وهو يرى بأم عينه كيف ان رواية واحدة يرويها أحدهم في فضل علي عليه السلام، تشير عليه غضب الحاكم، فيصدر أمره بجلده مئات السياط.

ويروي الطبري حديث الطبري، فيرجم العامة داره، حتى كان على بابه تل من الحجارة.

ويروي أحدهم رواية حول مناظرة بين آدم وموسى عليه السلام، فيشكل الأمر على أحد الحاضرين ولا يعرف أين اجتمع آدم وموسى، وبين موت ذاك، وولادة هذا المئات من السنين، فيدعو الخليفة له بالنطع والسيف، إلى آخر ما هنالك مما يحتاج استقصاؤه إلى وقت طويل وجهد وافر.

أضف إلى جميع ما تقدم: أن ما كتب وسجل، فأنما كتب بعقلية خرافية،
قاصرة وغير ناضجة في احيان كثيرة.

ولا أقل من أن كثيراً منهم ينطلق من تعصبات مقبنة، أو من هوى مذهبي
رخيص لا يلتزم بالمنطق السليم، ولا يهتدي بهدى العقل، ولا يؤمن بالحوار
والفكر كأسلوب أفضل للتوضيح وللتصحيح.

هذا.. إلى جانب اهواء وطموحات لا مشروعة ولا مسؤولة، تتوسل
بالتحوير والتزوير. لتتوصل إلى المناصب والمآرب.

ومن خلال ذلك كله، وسواه، فانه يصبح من الطبيعي: أن لا يجد الباحث
في كتب التاريخ الملامح الحقيقية للشخصيات التي تقف في موقع التحدي للحكام،
ولمخططاتهم، وتتصدى لأصحاب الأهواء المذهبية، والتعصبات العرقية، وغيرها،
ولانحرافاتهم.

هذه الشخصيات التي تركت آثاراً عميقة وخطيرة في واقع الحياة السياسية
والاجتماعية، والعلمية والتربوية وغير ذلك.

ومن هنا.. فانتنا نعرف: أنه لا بد من البحث عن الأيدي الامينة والمخلصة
التي تستطيع أن ترسم الملامح الحقيقية لهؤلاء الافذاذ من الرجال. ثم محاولة التقاط
ما تنثر هنا وهناك من لمعات، أو نذ من لفتات ولمحات، لم يجد الحكام فيها
خطراً، ولربما أراد المؤرخون ان يقضوا بها وطراً.

بين الافراط.. والتفريط

وبعد.. فانتنا نشعر: أن من الضروري الاشارة هنا إلى ذلك النهج من

البحث، الذي يفرض في الاعتماد على الغيب في فهمه لمواقف الائمة عليهم السلام، وتفسيرها. ويفصلهم عن واقع الحياة وحركتها، ويصورهم على أنهم يحركون الحياة، ويتعاملون معها بصورة خفية، ومن وراء الحجب، ولا تكاد تذكر له أمراً عن امام حتى يصدملك بالقول بأن ذاك امام له حكمه الخاص به حتى كأن الامام لا يجوز الائتمام به، وليس قوله وفعله وتقريره حجة علينا وعلى الناس جميعاً.

وذلك إن دلّ على شيء، فانما يدل على أن صاحب هذا النهج من البحث والفكر يعاني من مشكلة فهم الخاطئ للائمة عليهم السلام، ولدورهم، الذي رصداهم الله للقيام به، الا وهو نفس دور الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، الذي ارسله الله سبحانه مبلغاً ومعلماً، ومريباً، وقائداً، وقاضياً، وحاكماً إلى آخر ما هنالك من مهمات صرح بها القرآن الكريم، ولهج بها النبي العظيم صلى الله عليه وآله.

كما أنه لم يأخذ بنظر الاعتبار تأكيدات القرآن والرسول على بشريتهم: ﴿قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا: ابعث الله بشراً رسولاً﴾^(١).

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً، وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾^(٢).

إلى آخر ما هنالك من آيات لها هذا الطابع، أو تصب في هذا الاتجاه.

وفي مقابل ذلك، فاننا لا نوافق الآخرين أبداً، بل نخطوهم بقوة في نظرتهم المادية إلى الائمة عليهم السلام، بعيداً عن عنصر الغيب، والكرامات الالهية فيفسرون مواقفهم عليهم السلام وكل سلوكهم، وأنحاء تعاملهم، ويفهمونها على أساس مادي،

(١) الاسراء ٩٣ و ٩٤.

(٢) الانعام ٩.

خاضع لحسابات رياضية، له آثار ونتائج طبيعية وذاتية بالدرجة الأولى.

وهم يتجاهلون بذلك النصوص التي لها طابع غيبي، على أساس اللطاف الخفية، والكرامة الإلهية لعباد الله الاصفياء، وحججه على عباده، وامنائه في بلاده.

فلا يكاد يقترب من تلك النصوص والآثار التي تسجل - على سبيل المثال - حقيقة: أنه يوم قتل الحسين عليه السلام لم يرفع حجر في بيت المقدس الا ووجد تحته دم عبيط.

ثم ظهور الحمرة في يوم عاشوراء، وقول زينب عليها السلام لابن زياد افعجبتن أن مطرت السماء دماً ولا يتصدى لبحث ذلك وتأيبده، أو رده وتقنيده وليفترض لنا أن زينب عليها السلام إنما تفترض الحدث ولا تنقله وتسجله على أنه حقيقة واقعة.

وهم ابعد ما يكونون عن الحديث عن كلام الرأس المقدس فوق الرمح بالآية الكريمة: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ، كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾.

بالإضافة الى حديث ارتفاع جدران المسجد، حينما همت الزهراء عليها السلام بالدعاء على الذين يضطهدون أمير المؤمنين عليه السلام، ويغتصبون حقه، بعد ضربهم لها واسقاطهم جنيها حين وفات أبيها الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

إلى غير ذلك من نصوص وآثار، تشير إلى ظهور الكرامات، وخوارق العادات لهم عليهم السلام، وشمول الله لهم بالطافه الخفية، تماماً كذلك المعجزات والكرامات التي سجلها القرآن للأنبياء، كما في قضية عصا موسى، ونقل عرش ملكة سبأ، وغير ذلك.

نعم.. إن هؤلاء الباحثين والكتاب، لا يكادون يقتربون من النصوص التي

لها هذا الطابع، وتصب في هذا الاتجاه، حتى كأنهم لا يريدون الاعتراف بها، أو أنهم يخجلون من وجودها. تماماً كخجل البعض منهم وإبائه من طرح موضوع الامام المهدي الغائب صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطيبين الطاهرين في أي من كتبه وإبائه، متمحلاً اعذاراً واهية لا تسمن ولا تغني من جوع.

ولا ندري إن كان بعد ثبوت صحة هذه النصوص، وسلامتها، يمكن لهؤلاء أن لا يعتبروها جزءاً من تاريخ الائمة، ومن حياتهم.

وأخيراً.. فانتنا نؤكد لهؤلاء ولغيرهم على حقيقة: أن الائمة عليهم السلام إنما يمثلون الرعاية الالهية لانسانية الانسان، من خلال الاعتراف بواقعية وجوده المادي، ثم الانطلاق بهذا الواقع بالذات، والسمو به إلى المطلق إلى رحاب الله سبحانه، من خلال الامداد الغيبي حيث يكون ذلك ضرورياً، واکرامه بالكرامات الظاهرة واكتنافه بالألطف الالهية الخفية اللامحدودة، حيث يصبح محلاً وأهلاً لها.

أما أولئك الذين يحجمون دور الائمة، ويقصرونه على الاخلاق، مثلاً أو على الدور الاجتماعي، أو خصوص التحرك السياسي مثلاً، ويصبون كل تصوراتهم في هذا القالب المحدود أو ذاك، فانما يقدمون للآخرين صورة تفقد معظم معالمها الاساسية، ولا يمكن أن يعكس بحث كهذا واقع حياتهم، وحقيقة دورهم عليهم السلام.

مدخل دراسة، تعوزه الفهرسة

ولقد كان بوذي أن اسهم بدوري ببحوث تتناول بعض جوانب حياتهم عليهم السلام. وهذه أمنية عزيزة علي، وأثيرة لدي. وقد كنت قبل سنوات قد سجلت بعض النقاط، المؤهلة للبحث بصورة اكثر الحاحاً، على أن تمثل بمجموعها

مدخلاً معقولاً لدراسة حياتهم ﷺ، وإن كانت ربما تكون لا تستوعب كل ما يجب، وما ينبغي.

وقد بقيت هذه النقاط متناثرة تائهة، يعوزها التنسيق، والتبويب والفهرسة وقد سنح بخاطري الآن أن أقدمها إلى القراء كما كانت عليه، علّ أن ينفع الله بها، من يسعفه التوفيق للبحث والتقصي في حياتهم ﷺ.

والنقاط هي التالية:

١ - إن من الطبيعي اعطاء لمحة عن تواريخهم ﷺ كيوم الولادة، ويوم الوفاة، والسنة والشهر، ومحل السكنى والاولاد والزوجات، والاصحاب وسائر النقاط التي تمثل الجانب الفردي والشخص لهم ﷺ.

وذلك بصورة علمية صحيحة، فيها من التحقيق، ما يزيل كل شبهة وريب أو تردد.

٢ - لماذا تعدد الأئمة ﷺ، سؤال لا بد من الاجابة عليه.. وهل يمكن أن يكون لما نراه من اختلاف وتمييز المواقف لكل إمام بالنسبة للامام الآخر، فهذا تراه يهتم بالتربية العقائدية، وذاك يهتم بنشر المعارف الفقهية، وثالث يهتم بالناحية السياسية، إلى غير ذلك مما تفرضه عقليات، وحاجات الأمة في الأزمنة المختلفة - هل يمكن أن يكون لذلك صلة بتعدد الأئمة ﷺ، أم أن ذلك لمحض الصدفة واقتضاء الحالات والظروف الطارئة؟ مع العلم بأن بعض الأئمة قد تصدوا لأكثر من مجال أيضاً.

٣ - بيان الطرق التي اتبعها الأئمة لمعالجة الانحرافات الفكرية، وإيراد امثلة على ذلك، سواء في النواحي العقائدية، أو الفقهية، أو في التفسير، أو في السلوك

الانساني، والأخلاقيات، أو في المواقف من القضايا الحساسة والمصيرية، وغير ذلك.

٤- محاولاتهم طرح الاسلام العملي، الذي يرتبط بالغيب، ويندفع نحوه، مع مقارنة بين ذلك وبين ظاهرة التصوف الذي اهتم بالرياضة الروحية، وأهمل الجانب الثقافي والعلمي. وبيان الفوارق بينهما وكذلك الحال بالنسبة لذلك الاسلام النظري الذي اهتم بالناحية الثقافية والعلمية، وحشر المفاهيم الجافة والنظريات الفارغة من النفحات الروحية، ومن الارتباط بالغيب.

٥- الملاحظة الدقيقة لموقفهم عليه السلام من أهل الحديث، ومن المعتزلة، وسائر الحركات الدينية والفكرية والفرق المختلفة التي كانت تحاول فرض نفسها، وبلورة افكارها هذا بالاضافة إلى مواقفهم عليه السلام من الفقهاء المنحرفين، وعلماء السوء، ووعاظ السلاطين.

٦- ولابد أيضاً من إلماحة سريعة إلى سرّ موقفهم عليه السلام السكوتي في قضية خلق القرآن، وسبب أمرهم شيعتهم بعدم التدخل في الجدل القائم حولها. مع الماحة سريعة بأهداف طرح مسألة كهذه، ثم النتائج التي تحققت في هذا الاتجاه.

٧- ثم هناك موقفهم عليه السلام من الثقافات الغربية الوافدة عن طريق أهل الكتاب، وعن طريق الترجمات لكتب سائر الأمم، أو اختلاط المسلمين بعد الفتوحات، وغيرها بالأمم الأخرى، واطلاعهم على ما عندها من أفكار ومذاهب.

ولا يجب أن ننسى مواقفهم عليه السلام من التحريفات، التي كان يتعرض لها

الاسلام الخالص من قبل اليهود والنصارى الذين اظهروا الاسلام. ومن قبل القصاصين، وأهل الحديث من طالبي الشهرة والمال. وكذلك تحريف الحكام والسلاطين للاسلام، ليوافق مذاهبهم ومشاربهم السياسية، ويخدم طموحاتهم، وتوجهاتهم السياسية، ومصالحهم الشخصية، أو القبلية والإقليمية.

٨ - ولا بد من بيان موقفهم من تفسير القرآن بصورة غير واقعية، ومن التلاعب بالسنة النبوية الشريفة.

ثم التعرف على الموازين والمعايير والضوابط التي اتبعوها أو أُرشدوا إليها والتي يتمكن الناس من خلالها من معرفة ذلك الجانب العريض من النصوص، واستبعاده كما ويتمكن شيعتهم بواسطتها من فهم القرآن فهماً سليماً غير متأثر بما هو غريب عن الدين وتشريعاته، وعن الاسلام ومفاهيمه.

ودراسة قضية الكندي هنا تصبح ضرورية لفهم بعض أساليب الأئمة في مواجهة حالات الانحراف الفكري، إذا كانت منطلقة من شبهة، ولم يكن لها خلفيات، ذات طابع غير اخلاقي، ولا إنساني.

٩ - كما لا بد من دراسة السرّ في أنهم عليهم السلام لم يتركوا للناس آثاراً مكتوبة، ما دام أن ذلك يحسم النزاع في أمور كثيرة. مع أن تدوين العلوم كان في زمنهم على قدم وساق، ورغم أن أمير المؤمنين عليه السلام قد كتب الجفر والجامعة وغير ذلك، لكن ما كتبه عليه السلام قد بقي عندهم، ولم يتجاوزهم إلى غيرهم.

وذلك يحتم دراسة صحيفة الرضا عليه السلام، وغير ذلك مما ينسب إليهم عليهم السلام لمعرفة إن كانت من املاءاته، أم أنها من مكتوباته، وقد بقيت لانه كان ثمة فرق بين هذا العلم وذاك، أو بين عصر وآخر، لا بد من تحقيق ذلك وإيضاحه.

أضف إلى ذلك أننا نجدهم عليهم السلام يشجعون شيعتهم باستمرار على تدوين العلوم، واتقانها، لابد من تفصيل وقائع ذلك بصورة واضحة.

١٠- لابد من البحث حول كرامات الأئمة عليهم السلام، والاجابة على سؤال: هل كان الأئمة بحاجة إلى ظهور تلك الكرامات على أيديهم؟ وما الفرق بين الكرامة والمعجزة؟ ثم ما الفرق بين كراماتهم وبين ما ينسب الى غيرهم من المتصوفة وسواهم. وهل كل ذلك صحيح؟ أم أن كرامات الصوفية وغيرهم موضع شك وريب؟ لابد من ذكر مبررات ذلك إن كان. وإذا كان ثمة مبالغات غير معقولة، فلا بد من الاشارة إلى ذلك مع التركيز على فهم ظروفه ومبرراته.

كما أنه لابد من دراسة ما ينسب إلى المرتاضين حتى من غير المسلمين من خوارق.. وكذا ما ربما يقال من حصوله لبعض غير المسلمين ممن لهم اعتقادات غير صحيحة.

وهل يدخل في هذا المورد (الكرامات) اخباراتهم عليهم السلام بالأمور الغيبية وعن المستقبل، وهل كانت ذلك من هذا الباب، أم أن بعضه من العلم الخاص، وبعضه ليس من هذا ولا ذاك، وإنما هو معرفة للنتائج من خلال دراسة الظروف الموضوعية بدقة ووعي؟!

كما أنه لابد من معرفة السبب في أن علياً عليه السلام قد كان يهتم باظهار هذا الأمر، اعني الاخبار بالمغيبات، وقد بلغت اخباراته حداً جعل بعض الناس يتهمون بالتكهن وحتى بالكذب - والعياذ بالله -.

مع ذكر نماذج مما تحقق من اخباراته الغيبية عليه الصلاة والسلام.

١١ - حدود علوم الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم وكيفية علمهم مع

تسجيل الملاحظة التي تقول: إنهم ﷺ كانوا باستمرار يؤكدون على أن لديهم من العلوم والمعارف الخاصة ما ليس عند غيرهم، وأنهم إنما تلقوا ذلك من رسول الله ﷺ الذي هو مصدر الوحي، ومن ذلك قولهم: إن عندهم الجفر والجامعة «كتاب علي ﷺ» وغير ذلك. وما هو السر في ذلك؟

١٢ - محاولة إعطاء وصف دقيق - مع الامثلة الكثيرة - لشخصياتهم في أبعادها المختلفة، وإبراز فضائلهم ومزاياهم النفسية، بالإضافة إلى التعرف على سلوكهم الانساني والاخلاقي.

ثم إعطاء تصور عن حياتهم الخاصة، ووصف دقيق لتعاملهم مع ابنائهم وسائر أفراد عوائلهم، وحركاتهم داخل بيوتهم، وتصرفاتهم مطلقاً، حتى مع ضيوفهم، أو حينما يكون ثمة ما يوجب فرحاً وسروراً أو حزناً وجزعاً.

١٣ - ملاحظة مصادر أموالهم وحجمها، من أين كانوا يحصلون عليها وكيف؟ وفي أي شيء كانوا ينفقونها؟ وما هو مدى تأثير المال في حياتهم وفي روحياتهم ونفسياتهم؟

ثم الإشارة إلى حقيقة موقفهم من عطايا الحكام، ومتى قبلوها، ولماذا؟ وهل كان رفضهم لها يعني - بنظر الحاكم الظالم - تحدياً، وإعلاناً للحرب ضده.

ولابد من معرفة السر في أن أمير المؤمنين ﷺ قد كان ينفق على نفسه من أمواله في المدينة، وهل كان يأخذ من بيت المال عطاءً، وفي أي شيء كان ينفقه، وكيف جاز له أخذ العطاء، إذا كان يملك من البساتين ما تقدر صدقته، أو غلته بأربعين ألف دينار في السنة؟! وهل كانوا ﷺ يتناولون من الخمس شيئاً، وكذا من غيره من الحقوق الشرعية، ولماذا؟

هذا بالاضافة إلى توضيح كيف أنهم ﷺ كانوا يصرون على العمل في مزارعهم وبساتينهم بأنفسهم.

ثم البحث عن سرّ مطالباتهم ببعض ما انتزع منهم من أراضٍ، وماذا كان مصير الخمس في عهد علي عليه السلام.

١٤ - اساليبهم التربوية لشيعتهم، وأسس وأساليب تعاملهم معهم، وكيفيات ربطهم الناس بقضية أهل البيت ﷺ، عقائدياً و عاطفياً وثقافياً وغير ذلك، وتأثيرات هذه المركزية الدينية على الحالة الفكرية وعلى الانسجام في الفهم للامور وفي المواقف والتطلعات، والآمال - هذا - إلى جانب موقفهم من كل الثقافات الأخرى وأن كل ما لا يخرج من هذا البيت فهو زخرف، ومدى تأثير ذلك في صيانة الفكر والعقائد، والمفاهيم لدى الناس الذين كانوا مرتبطين بهم.

١٥ - هذا بالاضافة إلى تسليط الاضواء على الحالة التنظيمية الدقيقة التي ركزوها فيما بين شيعتهم، والماحة الى دور وكلائهم في مختلف الاقطار، وحدود صلاحيات ووظائف أولئك الوكلاء، ثم معالجات الأئمة ﷺ للخلافات التي ربما كانت تنشأ فيما بين هؤلاء الوكلاء، مع التركيز الدقيق على الانضباطية في الحالة التنظيمية، حتى إنهم ليرجعون الأموال لاحد الاشخاص، ليدفعه الى الوكيل الذي كان في بلد ذلك الشخص.

١٦ - الاساليب الحربية، ومبادئ الحرب عندهم، هذا بالاضافة إلى المبررات التي كانت تكفي - في رأيهم الذي هو رأي الاسلام - لحوض الحروب ومكابدة ويلاتهما. هذا بالاضافة إلى بيان الحدود التي تفرض ايقاف تلك الحرب، ومبررات التخلي عنها.

ووصف دقيق لتعاملهم الانساني مع أعدائهم، ورفض منطق التشني،

واسباب ذلك وتأثيراته.

١٧ - ابراز اهتمام الأئمة عليهم السلام بتربية متخصصين في العلوم والفنون، فهذا متكلم، وذاك فقيه، وآخر كيميائي، وهكذا... ثم اهتمامهم في أن لا يتجاوز كل منهم حدود اختصاصه وارجاع الآخرين حين تمس الحاجة إلى أصحاب الاختصاصات هذه كل حسب ما يتناسب مع ما يطلبه ويريده.

هذا.. إلى جانب ابراز المستوى الثقافي لأصحابهم عليهم السلام حتى لقد أصبحوا في عهد الامام الصادق، والكاظم عليهم السلام هم الطليعة المثقفة والواعية، وأرباب الفكر والعلم في الأمة الاسلامية، وهمنوا على الثقافة العامة بصورة واضحة. ودراسة تأثيرات ذلك على صقل الفكر وانتقاء المقولات لدى أرباب الفرق والمذاهب الأخرى، هذا.. بالاضافة الى تأثيرات ذلك على السياسة والسياسيين ومواقفهم من الأئمة عليهم السلام، ومن الشيعة بصورة عامة.

١٨ - بيان اهتمام الأئمة عليهم السلام بتعليل الاحكام الشرعية وغيرها، حتى لقد ألقت الكتب فيما روي عنهم عليهم السلام من علل أو من حكم ودراسة الطابع والخصائص التي كانت تتميز به تلك التعليقات والموضوعات والنواحي التي ابرزتها أكثر من غيرها.

١٩ - بيان أنهم عليهم السلام كانوا لا يستعملون التقية في بعض القضايا الحساسة، رغم خطورة ذلك على حياتهم، كقضية: أنهم الأحق بالإمامة من كل أحد، وقضية النص على علي عليه السلام فما هو سر ذلك؟ وما هي الاساليب التي استفادوا منها لاقناع الناس بهذا الأمر الخطير. ثم إظهار أنهم كانوا يركزون في اثبات ذلك على أمرين: أحدهما: اظهار واثبات: أن لديهم علوماً خاصة، ورثوها عن رسول الله ﷺ، ولا توجد لدى أي كان من البشر. الثاني: قضية النص.

٢٠ - كيف كان يتم الإتصال فيما بين الأئمة عليهم السلام وبين القاعدة الشعبية، وبسائر أفراد شيعتهم، الذين كانوا في ضيق شديد، ومحنة عظيمة من قبل حكام الجور، وكثير منهم في السجون، أو مشردون في البلاد.

مع إعطاء لمحة عن الاساليب والوسائل التي كان كبار شيعتهم يتوصلون بها للاتصال بهم ولا سيما في الظروف الصعبة والحرجة.

٢١ - لا بد من إعطاء لمحة عن نشاطات الأئمة حينما كانوا في سجون الطواغيت، سواء في ذلك نشاطاتهم فيما بين الناس الذين يسرون في الخط الآخر، أي في ركاب الحكام أو ينتمون إلى فرق أخرى ليست على علاقات طيبة مع خط اهل البيت عليهم السلام، حتى لنجد يحيى بن خالد البرمكي يشكو إلى الرشيد بأن الامام الكاظم وهو تحت هيمنتهم، ورقابتهم قد أفسد عليهم قلوب شيعتهم.

٢٢ - وبعد.. فان الملاحظ هو: أن الامام السجاد عليه السلام قد كان يهتم بالموالي وشرائعهم وعتقهم بصورة متميزة عن باقي الأئمة باستثناء ما عرف عن امير المؤمنين عليه السلام وكان يعلمهم ويتقنهم، وكان يكتب ذنوبهم في كتاب، ثم يذكرهم بها ويعتقهم وقد اعتق الوفاً كثيرة منهم. لا بد من دراسة دقائق تعامله عليه السلام معهم وظروف عتقه لهم وآثار هذا التعامل ودوافعه. مع الالتفات إلى أن هذا منه عليه السلام يجيء في وقت كان فيه الحكام يمارسون سياسة التمييز العنصري، وتفضيل العرب على كل من سواهم.

ثم.. الالمح إلى دور الموالي في نشر الاسلام ولا سيما التشيع لأهل البيت، ثم ما كان لهم من دور في نشر الاسلام في الامم الأخرى بصورة عامة.

كما أنه لا بد من دراسة ظاهرة تزوج نفس الأئمة عليهم السلام بغير العرييات بكثرة، حتى ان عدداً منهم قد ولد من هؤلاء النساء بالذات.

كما أن لمعرفة الأئمة بلغات الأمم آثاراً لها طابعها الخاص، لابد من الاطلاع عليه والامام به وبمنأشئه.

٢٣ - ثم هناك موضوع التمهيد منهم عليه السلام لغيبة الامام المهدي صلوات الله وسلامه عليه، وكيف بدأوا يحتجبون عن الناس منذ عهد الامام الهادي عليه السلام، ليعودوا شيعتهم على هذه الظاهرة. هذا بالاضافة إلى أن الامام الجواد والهادي قد تصديا لمقام الامامة في سن مبكر جداً، أي في الخامسة أو فوقها بسنوات معدودة. مع ملاحظة مدى تأثير ذلك على موقف الشيعة وعلى فكرهم، ثم على موقعهم بين أهل الملل الاخرى.

مع الاشارة إلى أن الامام المهدي قد غاب وهو صغير السن، وذلك بعد وفاة والده عليه السلام.

٢٤ - ولابد من الحديث عن مساهمة الأئمة عليهم السلام في النهضة العلمية، وعن تصريحاتهم أو تلميحاتهم إلى حقائق علمية، لم يكن اكتشافها، أو قل إدراكها الا بعد قرون من الزمن. وعن بعض القواعد والمباني التي ساعدت على تحقق هذه النهضة العلمية، مع ذكر امثلة صريحة ويقينية في هذا المجال، مع ملاحظة تنوع العلوم، ومن اشتهر من اصحابه بالتصدي اليها كجابر بن حيان وغيره.

٢٥ - ومن الامور الجديرة بالبحث «الدعاء» عند الأئمة، ولاسيما بالنسبة لأئمة المؤمنين، والسجاد، والحسين عليه السلام، مع تقييم وبحث للصحيفة السجادية، ومضامينها المختلفة، وموضوعاتها المتنوعة، السياسية، والعقائدية، والتربوية، والاخلاقية وغير ذلك. مع الاشارة إلى ما يلاحظ من المد والجزر في مستوى اعتمادهم صلوات الله وسلامه على طريقة الدعاء في ابلاغ وتحقيق مقاصدهم الاعلامية والتعليمية والتربوية.

كما لا بد من إلماحة ولو سريعة بما كان يعاني منه الناس من جهل مطبق، وتجهيل متعمد لهم بالإضافة إلى ظاهرة التحريف التي كانت تستهدف الاسلام والمسلمين في تلك الفترة، حتى إن بني هاشم، وهم أقرب الناس إلى مصدر الوحي والتنزيل كانوا إلى أن مضت سبع سنين من امامة الباقر عليه السلام لا يعرفون كيف يصلون، ولا كيف يحجون.

كما أن من المفيد جداً تقديم دراسة لرسالة الحقوق للامام السجاد، ولعهد أمير المؤمنين عليه السلام للاشترا، وتوحيد المفضل، والرسالة الطبية الذهبية.

٢٦ - وإذا كنا نجد: أنه لم يكن يعترف بامامة السجاد سوى ثلاثة اشخاص، أو خمسة، حسب اختلاف النقل، فلا بد من معرفة الخطوات التي اتخذها الامام السجاد عليه السلام لتهيئة الأجواء لمدرسة الباقر والصادق عليه السلام.

مع أن الناس بعد قتل الحسين، وبسبب السياسة الأموية البغيضة قد انصرفوا عن اهل البيت، ولم يبق بينهم بنظرهم شخصية كبيرة تعنو لها الحياة بالتسليم والخضوع وكيف استطاع السجاد عليه السلام أن يصبح الرجل العظيم الذي يجله حتى أعداؤه ومخالفوه أكثر من أي إمام آخر، فهل كان ذلك لأنهم رأوا فيه انصرافاً عن طلب الحكم والسلطة؟ أم لغير ذلك من أمور.

وما هو مدى صحة ما يقال من أنه عليه السلام قد غاب عن الناس عشر سنين ليعيش في البادية، وما هو تفسير ذلك على تقدير صحته.

٢٧ - ما هي دوافع الحركات الشيعية وغيرها كالزيدية وحركات الغلاة، وكذلك سائر الحركات التي قامت ضد الحكم والحاكمين، مثل حركات الخوارج، وما هو موقف الاثمة عليه السلام من هذه الحركات، وكيف كانوا يوفقون بين آرائهم فيها، وبين حفظ موقعهم وهم يواجهون ظاهرة اندفاع الناس نحوها.

ولماذا نهى علي عليه السلام عن قتال الخوارج بعده. وما هو موقف الشيعة والأئمة منهم.

٢٨ - ولابد أيضاً من دراسة حقيقة موقف الأئمة من الحكام وموقف الحكام من الأئمة، وكيف امكن لهم الحفاظ على التشيع، مع أنه كان يواجه الحكام على مدى التاريخ، ومع أن التعاليم التي كان يؤمن بها الشيعة هي على النقيض تماماً مما يسعى الحكام له، ويعملون من أجله.

وقد رأينا: أن حكومة الجبارين ما حاربت مذهباً إلا وخنقته في مهده، وقطعت أوصاله، إلا أن يسير في ركاياها ويدور في فلكها ويجند نفسه ويحرف تعاليمه لتصبح في خدمتها، وقد كان المعتزلة فرقة قوية في منطقتها وكانت تملك هي مقاليد السلطة على مستوى الخلافة الاسلامية كلها، ولكنها حين رأت السلطة: أنها في غنى عنها وناصرت خصومها فانها أصبحت في خبر كان، وأصبح أصحاب نحلة أهل الحديث، وهي من السخافة بمكان هم المسيطرون، وهم الحاكمون، وبقيت نحلتهم ودامت، وقعدت وقامت، وإن كان الاشعري قد حاول طلاء وجهها ببعض الأصباغ التي لم تستطع التخفيف من بشاعة ملامحها، حين يتأمل بها المتأملون، ويلتفت إلى ملامحها الشوهاء الواعون. ولابد أيضاً من التوقف عند الاساليب التي كان ينتهجها الحكام لابعاد الناس عن الأئمة، ومنها اسلوب التخويف والملاحقة كما أن من الضروري الالتفات إلى أن الشدة وغيرها من الاساليب التي كان الحكام يحاولون من خلالها ابعاد الناس عن أهل البيت عليه السلام، قد كانت تنتج عكس ما يريدون وخلاف ما كانوا إليه يطمحون، حيث يزداد الناس في كثير من الأحيان تعلقاً باهل البيت، ثم محاولة تفسير ذلك بالشكل المعقول والمقبول.

مع تقديم اطروحة كاملة عن نظرتهم عليه السلام إلى الحكم والحاكمين، وعن الموقف الشرعي منهم، وأساليب التعامل معهم.

٢٩ - ومن اللازم أيضاً تفسير ظاهرة عدم ثورة الأئمة بعد الحسين عليه السلام على الحكام، مع وجود ثورات كثيرة قام بها الزيدية وغيرهم.

كما أن من الضروري معرفة حقيقة موقف الأئمة من ثورة زيد والمختار، وكذلك سائر الثورات التي كانت ترفع شعار الحق والعدل، كثورة الحسين الهرش وثورة الحرة بالمدينة بالإضافة إلى ثورة الحسين بن علي في المدينة، وسائر ثورات العلويين.

ولماذا كانوا عليهم السلام يرغبون باستمرار هذه الثورات، ويقولون لشيعتهم: «ما زالت الزيدية لكم وقاء أبداً»، ويقولون أيضاً ما مضمونه: «ما زلت أنا وشيعتي بخير ما خرج الخارجي من آل محمد». أو نحو ذلك.

وكيف يمكن تفسير هذا الكلام، وعلى أي معنى يحمل. مع أننا لا نجد في علاقات نفس هذا الامام بالثائرين، ما يشجع، أو ما يستحق أن يقال عنه: إنه علاقات طبيعية على أقل تقدير، وذلك بسبب وجود كثير من الفجوات والمشاكل فيما بينه وبينهم.

٣٠ - يضاف إلى ما تقدم: دراسة محاولاتهم عليهم السلام إدخال بعض الشخصيات الشيعية - ولو مع التقية - إلى المراكز الحساسة في الدولة التي يحكمها الظالمون، كما هو الحال في ابن يقطين في دولة الرشيد العباسي. وقد بقي بعض الشيعة يحاولون النفوذ إلى بعض المراكز في الحكومات، حتى بعد عصر الأئمة الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين.

ولكنهم في نفس الوقت ينعون صفوان الجمال من كراء جماله لهارون الرشيد حتى لأداء فريضة الحج. فكيف نوفق بين هذين الموقفين.

ومن المفيد جداً أيضاً: التعرف على الاساليب العملية في مجال الدعوة كالدعاء، والشعر، والكرامات، والاخبار بالمغيبات.

بل نجد عطاياهم للشعراء مثيرة للعجب، لكثرتها، حتى ليرد سؤال: أليس الفقراء كانوا أولى بهذا المال من هذا الشاعر؟

كما لابد من دراسة استشهادات علي والحسين عليه السلام كذلك لحديث الغدير في رحبة الكوفة وفي منى وغير ذلك من المواضع.

وهناك أيضاً موضوع تخصيص الامام الباقر عليه السلام ثمانمائة درهم لنوادب يندبونه بعد موته في منى في موسم الحج لمدة عشر سنين.

هذا بالإضافة إلى حنهم الشديد والاكيد على اقامة مجالس الغزاء والبكاء على الحسين عليه السلام.

إلى غير ذلك من أساليب تعليمية وإعلامية اختاروها في مجال دعوتهم إلى الله سبحانه، وكلها مشروعة، ومؤثرة.

٣٢ - وإذا كان الاهتمام بالإبتعاد عن مذهب أهل البيت، وبالجعل والاختلاق للحديث - قد تجلّى في القرن الأول أكثر منه في الذي يليه فانتنا نلاحظ قلة المأثورات في الفقه في القرن الأول، ولم يكن ثمة تحديد واضح لكثير من المسائل والاحكام في تلك الفترة، وقد يكون ذلك لأجل تفويت الفرصة على الوضاعين وأعداء الحق. وقد يكون لغير ذلك أيضاً. ثم بدأ التركيز على المسائل الفقهية وتحديدها، وتحديد الحق في غيرها من المسائل العقائدية منها وغيرها - قد

بدأ بعد ذلك القرن، أي من زمن الباقر عليه السلام.

أو فقل بعد مضي سبع سنين من امامته كما أشارت إليه بعض النصوص .
كما أن إظهار الجانب العقائدي السياسي والتدبري قد كان في عهد الامام
علي أمير المؤمنين عليه السلام اكثر منه في عهد سائر الائمة من ولده .

٣٣ - كما لا بد من دراسة مواقفهم عليهم السلام من الثقافات الوافدة، والمعايير التي
رسموها لشيعتهم لقبول ما يمكن قبوله منها، ورد ما يجب رده، مع بيان ما قبلوه
مطلقاً، وما قبلوه بشرط، وما لم يقبلوه مطلقاً أيضاً.

٣٤ - وأخيراً.. لا بد من معالجة موضوع الغيبة وفوائدها وآثارها وكيف
ربى الائمة شيعتهم على الاستقلال الفكري، باعطائهم الضوابط والمعايير العامة
التي تمكنهم - لو روعيت - من اتخاذ الموقف الصحيح في مختلف الحالات
والظروف، وعلى مر الزمان.

كما لا بد من دراسة الزلزال الكبير الذي أحدثته الغيبة رغم الاعداد لها
بامامة الجواد والهادي وهما صغيران، وباحتجاب العسكريين عن الناس أيضاً
تمهيداً لذلك، وغير ذلك مما يجده الباحث المتتبع.

جعفر مرتضى العاملي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾^(١)

اهل البيت عليه السلام

لقد تعرّضنا في كتابنا هذا الى البحث عن المحاولات الفكرية والسياسية
لأئمة الشيعة عليه السلام ... الائمة الذين هم المصداق لأهل البيت عليه السلام والابناء لرسول
الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام. وما هو مهمّ التعرّض اليه هنا هو الاجابة عن
السبب الذي جعلنا نعتمد كلّ هذا الاعتماد على اهل البيت، فلماذا يعتمد الشيعة
على أهل البيت كلّ هذا الاعتماد؟ ولماذا قبلوهم أئمة لهم واعتبروا ولايتهم هي
الولاية الاصيلة فقط؟.

الحقيقة إنّ اهل السنّة غير الناصبيين يحبّون اهل البيت ايضاً ويحترمونهم
أعظم الاحترام. غير أن الامر المهمّ في المسألة هو الاساس الذي بني عليه هذا

(١) الشورى: ٢٣.

«الحب» و«الاحترام» الواجب ابرازهما.

فهل اننا لو بنينا على الاكتفاء بابرار المودة والمحبة لهم، وحصرها في حدود الاحترامات الظاهرية نكون قد التزمنا بهذا الواجب وامتلنا الأمر بمحبتهم؟ وهل أنّ ما بلغنا من روايات عن رسول الله ﷺ في فضيلة أهل البيت عليه السلام على كثرتها^(١)، وأمره ﷺ بمحبتهم ينحصر في هذا البعد الظاهري من المحبة، ونظم أبياتٍ من الشعر في مدحهم؟.

بعيد جداً أن يجيب عقل منطقيّ على هذه الاسئلة بالاثبات فيقول بأنّ رسول الله ﷺ اراد منا أن نحبّ قرابته فقط، وأنّه لم يأخذ في هذه المحبة امراً آخر، وأنه إنّما وجبت علينا محبتهم احتراماً للنبي ﷺ فإنّهم قرابته!.

لا ريب انّ الانعطاف الذي يبيده عامّة المسلمين تجاه اهل البيت عليه السلام منشؤه هو التوصيات الصادرة عن رسول الله ﷺ عند اهل السنّة التي تتحدث عن أنّ رسول الله ﷺ جعل اهل البيت عليه السلام، ركناً للدين بعد القرآن لذا فن غير الممكن لاحد أن يتجاهل اهل البيت عليه السلام حيث بلغ عدد الكتب المؤلفة باللغة العربية من قبل اهل السنّة وحدهم حوالي ٧٠٠ كتاب عن اهل البيت^(٢).

لكن كيف انحرف هذا العدد العظيم من الناس رغم وجود هذا القدر من الفضائل الصحيحة بحيث آل الأمر^(٣) في نهاية المطاف وإثر اصرار جمع من

(١) راجع كتاب «فضائل الخمسة في صحاح الستة» لمؤلفه آية الله الفيروزآبادي.

(٢) راجع مجلّة «تراثنا» مقالة «اهل البيت في المكتبة العربية» لكايتها السيد عبدالعزيز الطباطبائي، وقد كان ما ألف من الكتب لحد ذلك الحين يبلغ «٣٤٠» مذكورة بالترتيب حسب الحروف الهجائية واستناداً الى ما قاله الكاتب في مقالته فإنّ عدد الكتب بلغ اخيراً ما يقرب من ٧٠٠ كتاب.

(٣) ينبغي الالتفات الى أنّ احمد بن حنبل وحده الذي ثبت عليناً عليه السلام خليفة رابعاً فإلى زمانه لم يكن

المحدثين والفقهاء امثال محمد بن ادريس الشافعي الى أن يقف عند حدّ المحبة حيث قال:

يا أهل بيت رسول الله حبّكم فرض من الله في القرآن انزله

كفاكم من عظيم الشأن انكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له^(١)

ويسهل الجواب عن هذا السؤال لدى ملاحظة الوقائع التي جرت في عصر النبي ﷺ وبعد وفاته حتى اواسط القرن الثاني الهجري. فهناك رواية تحكي عن مدى ما كانت قريش تضمّره من العدااء والنفرة لقراية رسول الله ﷺ في حياته.

فقد روي أنّ العباس عمّ رسول الله ﷺ قال له يوماً: «إنّ قريشاً تلقى بعضها بعضاً بوجه منبسط، فاذا رأتنا لقيتنا بغير الوجوه التي نعرفها». فغضب رسول الله ﷺ وقال: «والذي نفس محمد بيده لا يدخل قلب رجل الايمان حتى يحبّكم لله ولرسوله»^(٢).

فهذه الرواية تدلّ على أنّ قريشاً كانت ساخطة جدّاً على قراية رسول الله ﷺ في اواخر ايامه. وقد جاء في المثل أربعة لا تكون في أربعة السخاء في الزبيري، والتواضع في المخزومي، وصحة النسب في الشامي، وحبّ آل محمّد في القرشي^(٣).

⇒ العثمانية - الذين اخذوا يحملون اسم السنة مع اختلاف يزيد وينقص - يعتقدون بهذا الأمر راجع كتاب طبقات الحنابلة ج ١، ص ٤٥.

(١) راجع: كتاب القدر ج ٣ ص ١٧٣، والصواعق المحرقة ص ٨٧، وشرح المواهب ج ٧ ص ٧ ومشارك الانوار ص ٨٨، والاتحاف ص ٢٩ والاسعاف ص ١١٩.

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوي ج ١ ص ٢٩٥، ٤٩٧، ٤٩٩ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٥٧.

(٣) ربيع الابرار للزمخشري ج ٣ ص ٤٢٣.

فالمستظهر من هذه الروايات انه كانت لقراية رسول الله ﷺ منافسات وعداوات. اضافةً الى ذلك فإنّ ما حصل من مبايعة أبي بكر في السقيفة التي تمت بدوافع متعدّدة منها منافسة الانصار، وطلب عمر الشديد من جميع المخالفين البيعة، وتهديده علياً عليه السلام والزبير وآخرين بحرق دورهم عليهم اذا لم يبايعوا^(١)، كان من الطبيعي أن يعقبه موقف جديّ من أهل البيت عليهم السلام هذا الموقف الذي ازداد اتساعاً بمخالفة الإمام لبيعة أبي بكر التي دامت ستة أشهر وظهور الغضب والسخط في وجه فاطمة عليها السلام من الخليفة^(٢) وهو ما أدّى الى أول نوع من الانقسام بين المسلمين... الانقسام الذي كانت ثمرته مظلوميّة أهل البيت عليهم السلام مظلوميّة بلغت أوجها في كربلاء.

هذا والنبي ﷺ أوصى بهم مراراً على مسمع ومرأى من الناس، وطلب منهم معاملة عترته بالحسنى فضلاً عن الكلمات الكثيرة التي قالها في فضلهم عامّة وفضل كلّ واحد منهم على وجه الخصوص.

فقد روى «ابن شيبّة» عن «عبد الرحمن بن عوف» في حديث مسند أنّ رسول الله ﷺ عمد الى الطائف بعد فتح مكّة، وحاصرها ثمانية عشر او تسعة عشر يوماً فلم تُفتح، وفي أحد الايام او احدى الليالي مشى قليلاً ثم وقف وقال: «أيّها الناس إني فرط لكم فأوصيكم بعترتي خيراً. وإن موعدهم الحوض. والذي نفسي بيده ليقمّن الصلاة وليؤتّن الزكاة، أو لأبعثنّ إليهم رجلاً منّي او كنفسى فليضربنّ أعناق مقاتلتهم، وليسبيننّ ذراريهم» قال:

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١١، ١٣، وابن أبي الحديد ج ٢ ص ٨، ١٩.

(٢) راجع كتاب فضائل الخمسة ج ٣ ص ١٥٦.

فرأى الناس أنه أبو بكر أو عمر، فأخذ بيد عليّ فقال: «هذا»^(١).

وجاء في رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال بعد أن ذكر كتاب الله ووجوب التمسك به: «وأهل بيتي، اذكركم الله في أهل بيتي» كررها ثلاث مرّات^(٢).

ورغم هذه الوصايا، وتأکید القرآن على تطهير أهل البيت، وفرض سهم ذوي القربى، والصلاة على النبي ﷺ التي فسرها رسول الله ﷺ نفسه بأنها الصلاة على محمد وآله، واعتباره أجره من الناس المودّة في القربى فإن التعامل اللفظي لسانة المجتمع في صدر الاسلام أدى الى اعتزال الناس لأهل البيت حتى قال أمير المؤمنين عن ذلك: «إنّ الناس نسونا لفرط ما فعلوه بنا»^(٣).

ولقد اخذ «أبو ذر» صديق رسول الله ﷺ الحميم، الذي اطلق نداء التوحيد عند الكعبة في أوج ظلم ابي سفيان، بمقابض الكعبة - وفقاً لما رواه أهل السنة في جوامعهم الحديثية - وصاح: «أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا ابو ذر الغفاري». لا أحدّثكم الا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول، سمعته وهو يقول:

«أيّها الناس إنّي قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، واحدهما افضل من الآخر، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، وانما مثلهما

(١) ابن ابي شيبة ج ١٤ ص ٥٠٨، ابن عساكر، تاريخ دمشق ج ٢، الحديث ٨٧٥ نقلاً عن حاشية ابن ابي شيبة، المعرفة والتاريخ ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) المعرفة والتاريخ ج ١ ص ٥٣٦.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٩، ص ٢٨، ٢٩، ج ٢٠، ص ٢٩٩.

كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تركها غرق»^(١).

هذه هي روايتا الثقلين والسفينة المشهورتان اللتان تؤكدان المكانة العليا لأهل البيت ولياقتهم في قيادة المسلمين، وهذا هو ابو ذر الذي قال عنه الرسول ﷺ: «ما اظَلَّت السماء ولا اقلَّت الارض اصدق لهجة منه»، يدعو الناس لاهل البيت بهذه الطريقة التي احيا بها خاطرات صدر الاسلام في مكة. وكما آذاه المشركون حين اطلق تلك الصرخة نفاه الآخرون حين اطلق صرخته هذه المرة!.

وهكذا فإنّ احداً ما كان ليكنه أن يبيّن مكانة اهل البيت على حقيقتها الاّ في المدّة القصيرة التي تولّى فيها الامام عليّ الخلافة. فأحيا في رحبة مسجد الكوفة حديث الغدير، وعدّد فضائل ومناقب اهل البيت، وقد وردت كلماته الرائعة في مكانة أهل البيت السامية في كتاب نهج البلاغة وسائر كتب الحديث والأدب، وقد قمنا بجمع نماذج من خطبه في موضع آخر^(٢).

غير أنّ تسلّط معاوية وبني سفيان وبني مروان، وسبّهم العلويّ لعليّ وآله من على المنابر - حتى أن عبدالله بن الزبير كان لا يصليّ على النبي ﷺ لثلاثين يوماً - لاهل البيت شأن - ما كان ليؤدي الى نسيان أهل البيت وحسب، بل الى رفضهم من قبل الناس. اذ كيف يتوقع والحال هذه أن يذكر شيء من مناقبهم التي نطق بها

(١) المعرفة والتاريخ ج ١، ص ٥٣٨، والروايتان متواترتان. راجع كتاب عبقات الانوار ج ٢ من المجلد ١٢ طبعة اصفهان سنة ١٣٤١.

(٢) الحق أن اكثر طرق حديث الغدير الذي رواه أهل السنة سببها ذلك العمل الذي قام به الامام في رحبة مسجد الكوفة، وهذا يدلّ على أنّ الامام لو لم يكن قد فعل ذلك لآل امر هذا الحديث الى النسيان كما آلت إليه كثير من الامور الاخرى.

رسول الله ﷺ بين الناس؟.

فلم يكن ذاكر لعليّ عليه السلام غير الكوفة -وهي أيضاً لم تخلُ من بغضه وعداوته- فهي وحدها التي أبقت ذكر عليّ حيّاً، واعتبرت آله احقّ بالخلافة من سائر الناس، واقرّت لهم بها في الباطن حتى اقرّ هشام بن عبد الملك بذلك^(١)، واعترف في نصوص أخرى بأنّ الناس كانوا على استعداد تامّ لقبولهم في مقام القيادة^(٢) لكنّ بني العبّاس استغلوا هذه الفرصة فيما بعد، وفرضوا انفسهم باسم اهل البيت على الناس البسطاء.

وغير خفيّ أنّ تناقل مناقب وفضائل اهل البيت خصوصاً حديث الغدير بين رواة الحديث والمحدثين الذين ما كان لهم من الانصاف إلا القليل دام واستمرّ الى يومنا ممّا جعلنا نملك ميراثاً مثل «الغدير».

غير أنّه قد وقع ما كان يخشى وقوعه إذ انحرفت مسيرة المجتمع الاسلامي فغدا ذلك المجتمع الذي كان ينبغي له أن يتغذى من علوم اهل البيت وينتفع بعلمهم يستند الى اعمال خاطئة وتصرفات مرفوضة بينما واصل اهل البيت عليهم السلام العمل بما تقتضيه وظيفتهم ويملي عليهم واجبهم ضمن مساحة محدودة هم الشيعة المواليون لهم، وإن استفاد اهل السنّة من كلماتهم أحياناً.

(١) الفتوح لابن أعثم ج ٤، ص ٢٣، يدلّ على ذلك صريحاً ثورة التوابين وحركة التوابين، وتفصيل القول في ذلك تعرّضنا له في كتابنا تاريخ الاسلام السياسي من العام ٤٠ الى العام ١٠٠ الهجري.

(٢) الكامل في الادب للمبرّد ج ١، ص حيث يهدّد خالد بن يزيد في هذه الرواية عبد الملك بن مروان بأنّ زواج الحجاج من بنت عبدالله بن جعفر غير صحيح لأنّ الناس يقولون عن بني هاشم اشياء! فهذه الزواج ربما صار عاملاً لزوال حكم بني امية وتوليّ الحجاج الحكم، وهو ما جعل عبد الملك يجبر الحجاج على تطبيق بنت عبدالله بن جعفر خوفاً من عقيدة اهل العراق في بني هاشم.

واستمرّت استقامة الأئمة الاطهار في الفكر والعمل رغم ما كانوا يعانون منه من ضغط وقمع وكبت، واستطاعوا بما كانوا يتمتعون به من شخصيّة فذة من الحفاظ على ميراث الشيعة الذي يستند الى القرآن والعترّة. وقد حققت الشيعة عملاً ما نادى به ابو ذرّ حيث وصلوا طريق ائمتهم العظام في الفقه والتفسير والاخلاق والسياسة.

وامّا اهل السنّة فقد أشرنا فيما مرّ الى أنهم كانوا يعلنون المودة لاهل البيت، ويؤلفون الكتب في مدحهم والتعرض لمناقبهم، بل قد كتبوا كتباً في سيرة حياتهم ايضاً تعبيراً عن ذلك^(١). لكنهم لم يكلّفوا انفسهم عناء السؤال والتحقيق عن واقعة الغدير هل كان لاثبات مودة علي فحسب؟

وعن الامامة التي يقول بها الشيعة لأئمتهم هل تفتقر الى اساس متين؟

وهل أنّ حديث «الثقلين» الذي ثبت تواتره لم يكن الاّ بصدد الاشارة والارشاد الى تلك المحبّة السطحيّة لأهل البيت عليهم السلام؟ وهل أنّ حديث «السفينة» لا يعبر عن تشبيهه بليغ في وجوب التبعية لهم عليهم السلام؟

وإنّ ما يثير العجب أنّ حديث «الأئمة اثنا عشر» - استناداً لما يذكره السيوطي وآخرون - حديث متواتر وإجماعي^(٢). لكنّ أهل السنة راحوا يحملونه - خطأً - على بعض الخلفاء وربّما ذكروا أنّ اربعة منهم مضوا وسيأتي الباقي. أليس هذا يدلّ على أنّ هذه الرواية تنطبق على أئمة الشيعة فقط؟. وانهم الذين

(١) من هذه الكتب تذكرة الخواصّ، والاتحاف، وينايع المودة، والائمة الاثنا عشر لابن طولون وغيرها مما ذكره السيّد الطباطبائي في فهرسه المتقدّم في مجلّة «تراثنا».

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٠ - ١٢ والصواعق المحرّقة ص ٧ - ١٠.

امتدح الجاحظ الذي عاصر الامام الحسن العسكري عليه السلام احد عشر إماماً منهم حيث وصفهم بأنهم «العلماء، الزهاد النساك، الشجعان الطهرة» وأنهم اللاتقون بمنصب الخلافة^(١)؟

لقد كان للأئمة عليهم السلام من العظمة أنه حين ذكر اسم الامام الرضا عليه السلام عند تنصيبه ولياً للعهد ف قيل: «عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن علي بن ابي طالب» قيل: «والله لو انّ هذه الاسماء قرئت على اصمّ أو أبكم لشفي بأذن الله»^(٢).

وما كان بين أهل السنّة من يدرك اهميّة هذا البيت الا عدد قليل منهم، وأما اكثرهم فكانوا يبدون نفرتهم من مقام اهل البيت عليهم السلام الشاخص. إذ جاء في رواياتهم أنه قيل لزائدة - وهو من رواة الحديث -: لماذا لا تروي عن جابر الجعفي وابن ابي ليلى، والكلبيّ؟ فقال: «... وأما الكلبيّ فقد كنت اذهب عنده واقرأ القرآن فسمعتة يوماً يقول: لقد مرضت زماناً فنسيت ما كنت حفظته، فذهبت عند آل محمد فبصق في في فعاد اليّ كلّ ما كنت نسيته» يقول زائدة: «فلم ارو عنه بعد ذلك أبداً»^(٣). ومنه يعلم السبب في مخالفة زائدة للكلبيّ!

وقد كان الشهرستاني - وهو من أهل السنّة والجماعة - يرى لأهل البيت

(١) آثار الجاحظ ص ٢٣٥ تقرأ عن حياة الامام الرضا عليه السلام ص ١٤٧، والجاحظ من اكابر الادباء وكتاب اهل السنّة في القرن الثالث الهجري .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق ج ٢ ص ١٤٥، ٤٧، وكتاب مقاتل الطالبين ص ٣٧٥ ومناقب ابن شهر آشوب ج ٢ ص ٣٣٩.

(٣) تاريخ يحيى بن معين ج ١ ص ٢٨٩.

منزلة خاصّة ومكانة عظيمة ويعتقد أنّ علم القرآن عندهم فقط^(١).

وحقيقة الأمر أنّ أهل البيت عليهم السلام كانوا الحفظة الحقيقيين لسنة الرسول صلى الله عليه وآله، ولذا جعلهم النبي صلى الله عليه وآله بموازاة القرآن وقال: «إنهما لا يفترقان». وقد ذكرنا في بحثنا التاريخية عن الحياة الفكرية للأئمة الشيعة مسألة حفظ السنّة تفصيلاً. ونذكر هنا امثلة ثلاثة على ذلك ليّتضح بها المعنى المراد.

* قال أمير المؤمنين: «إن كان الدين يدرك بالعقل فباطن القدم اولى بالمسح من ظاهرها لكنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يمسح ظاهر قدميه»^(٢).

فهذا إحياء لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله في مقابل تحكيم «الرأي».

* ينقل ابو موسى الاشعري: «صلّى بنا عليّ يوم الجمل صلاة ذكرناها صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله فإمّا نكون نسيناها أو نكون تركناها عمداً»^(٣).

* كان الامام السّجّاد عليه السلام إذا أدّن فبلغ «حيّ على الفلاح» اتبعها بلا فصل قوله: «حيّ على خير العمل» - التي تركها اهل السنّة - وقال: «هو الاذان الاول»^(٤) وذلك ليعلم الناس انهم حرّفوا الاذان بحذفهم هذه الجملة.

وهذه التصرفات وامثالها ممّا يرجع الى سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله كثير عند الأئمة. واعتماد الشيعة كلّ هذا الاعتماد على أهل البيت عليهم السلام واستنادهم الى اقوالهم وافعالهم انما هو لتأكيد رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك من جهة ولسيرتهم في حفظ

(١) راجع مجلّة «تراثنا» العدد ١٢ مقالة آذرشب حول تفسير الشهرستاني.

(٢) مصنّف ابن ابي شيبة ج ١ ص ١٨١.

(٣) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٢٤١.

(٤) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٢١٥.

كيان الدين وقاعدته من جهة اخرى .

ولا بأس باستثمار الفرصة هنا لأقدم النصيحة لعشاق الحق وطالبيه من أهل السنة وادعواهم للتحقيق وتحري الدقة فيما يخص أهل البيت عليه السلام والتفكير في حقيقة المناقب والفضائل المنقولة بحقهم والتبعات الفكرية لها فربما هدانا الله الى التمسك بهم ، ووَفَّقنا للجواز على الصراط المستقيم ^(١).

وبعد تقدّم الشكر الجزيل لاستاذي العزيز العلامة السيّد جعفر مرتضى العاملي الذي كتب مقدّمة ثرة ومعطاءة لهذا الكتاب اقدم بحثي المختصر هذ حول حياة الائمة عليه السلام الى طلاب طريق الائمة الاطهار .

رسول جعفریان

ربيع الاول / ١٤١٠هـ

(١) يمكن ذكر كتابين هنا: احدهما كتاب (في مدرسة أهل البيت) وهو من تأليف دار التوحيد. وقد ترجمه الى الفارسية السيد محمد تقي رهبر وطبعت ترجمته منظمة الاعلام الاسلامي. واما الكتاب الآخر فهو كتاب (اهل البيت او الوجوه المنيرة) من تأليف العلمين المرحوم شهاب الدين الاشراقي وآية الله فاضل لنكراني وقد تمّ نشره من قبل مكتب نشر الثقافة الاسلامية .

الامام علي عليه السلام

قال الحسن البصري في وصف الامام علي عليه السلام :

«اراهم السبيل، واقام لهم الدين إذا اعوج»^(١)

قد يدّعي البعض منّا أنّه يعرف أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب عليه السلام أكثر من معرفته بأي شيء آخر، وقد تكون معرفتنا به افضل من سائر الائمة عليهم السلام. غير أننا وإن كنّا جميعاً نعرف عليّاً لكنّ معرفتنا الحقيقية بحياة عليّ الواقعيّة ضئيلة جداً. والظاهر أنّ سبب ذلك هو قوّة الاشراق وسعة المساحة التي يتمتع بها علي عليه السلام ممّا يجعل الامام بحياته واعطاء خطّ بياني كلّ عنه امراً مشكلاً. وأمّا معرفته كواحد في كثير، وكثير هو في الحقيقة في شكل الواحد فلا يمكن أن يبين لنا من خلال عدد من المعلومات المشتتة. بل لابدّ من التفكير بسعة وشمولية مع المحافظة على عنصر التركيز والدقّة في حركات عليّ وخصاله وصفاته ودوافعه واقواله وافعاله لنجد بعد كثير من التأمل والامعان أنّنا لم نعرف عن تلك الشخصية

(١) مصنّف ابن ابي شيبة ج ١٢ ص ٨٣.

الآ جانباً محدوداً من شخصيته وأنا ما زلنا في منعطف الطريق .

معرفة مختصرة

اسمه عليّ، واسم أبيه ابو طالب (وإن كان يجب تسميته أبا عليّ)، أمّه فاطمة بنت أسد، مولده الكعبة الشريفة في مكّة المكرّمة، سنة ولادته العام الرابع والعشرون قبل الهجرة، مكان نشأته بيت رسول الله ﷺ حيث نشأ وترعرع في حضن النبي ﷺ وخديجة.

امضى فترة صباه في بيت الرسول ﷺ حيث كان أبوه لا يقوى على تحمّل العبء الثقيل لعائلته. فطلب رسول الله ﷺ إليه إعانته بأن يكفل احد ابنائه لقاء الاتعاب التي بذلها ابو طالب بحقّ النبيّ حين كان يتيماً، فكان علي نصيبه. وهكذا قضت مشيئة الله سبحانه أن يكون لعليّ عليه السلام هذا الفخر الذي ما شاركه فيه احد غير فاطمة عليها السلام.

إيمان عليّ عليه السلام

استناداً الى اصحّ النصوص التاريخية والحديثية فإنّ الامام عليّاً عليه السلام هو أوّل من آمن برسول الله ﷺ، وإن تدخلت يد السياسة بعد ذلك فاثارت أوهاماً وشكوكاً حول الموضوع. وما جاء في كتب الحديث والتاريخ قديمها وحديثها صريح في هذا الباب بما لا يدع مجالاً للشكّ والشبهة^(١).

(١) راجع كتاب الغدير ج ٣ ص ٢٢١ وما بعدها حيث يصرّح الامام نفسه في عدة مواضع فيقول في موضع: «أنا أوّل رجل اسلم مع رسول الله»، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٣ ص ٢٥٨ طبعة بيروت

وقد سعى بعض ممن عرف هذه الحقيقة وصدّق بها الى التقليل من أهميّة الموضوع بادّعاء أنّ الإمام كان حينها طفلاً لم يبلغ الرشد، لكنّ ثمة شواهد مقنعة تدلّ بوضوح على نضجه الفكريّ آنذاك، بل إنّ عمره يدلّ بوضوح على ذلك.

وقد خصّص محمّد بن عبدالله الاسكافي في كتابه القيم (المعيار والموازنة) موضوعاً للبحث في هذا الأمر نذكر فيما يلي خلاصته حيث كتب يقول:

«حين نلاحظ النبيّ كيف يدعو عليّاً الى الاسلام يمكننا أن ندرك بوضوح أنّه كان حينها بالغاً وعاقلاً وان النبيّ ﷺ كان يرى اعتناقه للاسلام واجباً عليه. ولو كان عليّ عليه السلام طفلاً آنذاك لم يجب عليه حكم خصوصاً والاسلام في بدايته في ذلك الحين. كما لم يكن المجتمع مجتمعاً اسلامياً كي يقوم الناس بتعليم اطفالهم لقبول الاسلام. وكان الرسول ﷺ في ذلك الوقت محتاجاً الى اسلام من يعتنق الاسلام عن علم وبصيرة».

ثم يضيف فيقول:

«فان قيل: وكيف يكون بالغاً وسن البلوغ في الاسلام هو اكمال السنة الخامسة عشرة من العمر في الذكر؟ قلنا: إنّ آخر حدّ البلوغ في الاسلام هو السنّ المذكور، اذ به يحصل البلوغ حتى لا ضعف الناس عقلاً من الرجال. ولا ريب أن لكلّ آخر أوّلاً ووسطاً فيصحّ معه قبول بلوغ إنسان لم يبلغ سنّ الخامسة عشرة. وقد كان لأمر المؤمنين من العمر حين آمن بالاسلام ثلاث عشرة سنة وهو ما يعتبر أوّل مراتب البلوغ.

⇒ أو يقول: «أنا أوّل من صلّى مع رسول الله»، الاستيعاب ج ٢ ص ٤٥٨، وفي موضع ثالث يقول أيضاً: «اسلمت قبل أن يسلم الناس بسبع سنين» الرياض النضرة ج ٢ ص ١٥٨.

ويستمر الاسكافي في حديثه فينقل رواية عن أهل السنة مفادها: أنَّ عليّاً عليه السلام سأل النبي ﷺ عندما رآه يصلي ماذا يفعل؟ فقال له رسول الله ﷺ: هذا دين الله يا عليّ.

ثم عرض عليه الاسلام فقال له عليّ بن ابي طالب عليه السلام: انظري حتى اتفكر فيه ليلة» ثم يقول الاسكافي: «وبعيد عن طفل مثل هذا الجواب»^(١).

وتوجد اقوال متضاربة في السنّ التي آمن معها عليّ عليه السلام حيث أن المنقول إيمانه ما بين ٨ سنين و ١٦ سنة. والذي يبدو من عبارة الاسكافي المتقدمة أنَّ الامام عليه السلام اعتنق الاسلام وعمره ١٢ سنة^(٢).

غير أنه يبدو لي أنَّ الزيادة والانقاص في عمر الامام عليه السلام رغم ما يعتريه من عدم الاطلاع الدقيق بذلك، له دوافعه الخاصة التي منها اظهار الامام طفلاً غير بالغ عند إيمانه إما بدافع التقليل من شأن هذا الأمر، أو لاثبات أنَّ الامام لم يكن له عهد بالجاهلية (وان كان عمره عند ايمانه بالاسلام ١٣ سنة) وعكس هذا يأتي بالنسبة الى فرض الزيادة في عمره.

واذا كنّا من القائلين بالاخذ باوسط الامور فإنّ علينا أن نقبل بقول الاسكافي أي أن نقبل بأنّه كان لعليّ عليه السلام حين اسلامه ثلاث عشرة سنة. خصوصاً وأنّ النبي ﷺ اوكل اليه امر اعداد الطعام في واقعة الانذار^(٣). فلا بدّ أن يكون عليّ في ذلك الوقت - بعد ثلاث سنين من البعثة الشريفة - في سنّ يتوقع منه

(١) المعيار والموازنة، ص ٦٧ وما بعدها، طبع بيروت تحقيق المحمودي.

(٢) راجع كتاب: ترجمة الامام عليّ بن ابي طالب من تاريخ دمشق ج ١ ص ٤١-٤٦.

(٣) هي حادثة الدعوة التي دعا فيها رسول الله ﷺ عشيرته واهل قرابته الى منزله ودعاهم الى الاسلام إشارة الى الآية الكريمة: «وانذر عشيرتك الاقربين».

صدور مثل هذا العمل منه.

صحبة عليّ لرسول الله ﷺ

يمكن تقسيم حياة الامام الى مراحل عدّة:

المرحلة الاولى: وتبدأ من زمان النبي ﷺ وتستمرّ الى حين وفاته. فخلال هذه المدة الطويلة لم يُرَ عليّ عليه السلام بعيداً عن رسول الله ﷺ الا نادراً، وما من امر حدث الا كان لعليّ فيه معلم واثر. واذا شئنا أن نقوم بتحليل واقعي عن علاقة الاخوة التي اوجدها رسول الله ﷺ بينه وبين عليّ عليه السلام في السنين المتأخرة لكان علينا ان نعتبرها آية على صداقة وصحبة طويلة بينهما - كأخوين - تمتد الى جميع مراحل الحياة.

وقد عبر الامام عن هذه الصحبة بعبارات مختلفة وضمّنها قالب تشبيهات جميلة. وانعكست آثار هذه الصحبة وتمثّلت بانتقال علم رسول الله ﷺ وعمله اليه وتحلّي كماله فيه، قال عليّ عليه السلام:

«ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر أمّه»^(١).

وكانت نتيجة هذا الارتباط الوثيق بين الرجلين ما كان من قوله:

«إني لم أرّد على الله ولا رسوله ساعة قطّ»^(٢).

وقد منح هذا القرب الذي بينها الفرصة للامام عليه السلام لينهل من بحر علم رسول الله ﷺ الذي لا يقف عند حدّ كما قال هو عن ذلك:

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٠.

(٢) الخطبة ١٩٥.

«وكان لا يمرُّ بي من ذلك شيء إلا سألتُه عنه وحفظته»^(١).

وطبيعيّ أنّ النبي ﷺ إذا كان مدينة العلم فإنّ عليّاً يجب أن يكون بابها لانه الوحيد الذي كان على اتصال مباشر بهذا البحر من العلم.

وقد اختاره النبي ﷺ أخاً له لتزداد هذه العلاقة وثوقاً ومتانة وقال في ذلك: «عليّ منّي» وقال جبرئيل: «وأنا منكما»^(٢) ولما رأى الناس ما لعلّي من المنزلة فقد جعلوه واسطتهم عند النبي ﷺ وجعلوا يقدّمون اسئلتهم الى رسول الله من خلاله^(٣).

يقول ابو سعيد الخدري في وصف هذه العلاقة: «كانت لعلّي درجة لم تكن لاحد من الناس»^(٤).

وعندما يسأل الامام لماذا تروي من حديث النبي اكثر مما يرويه سائر الصحابة فيجيب: «لأنّي كنت اذا سألتُه انبأني، واذا سكتُ ابتدأني»^(٥).

ومن جملة الادلة التي تؤكّد وجود هكذا علاقة لعلّي بالنبي ﷺ وآثارها البارزة في علم الامام معرفته بشأن نزول الآيات القرآنية وتفسيره الدقيق لها. قال علي عليه السلام: «والله ما نزلت آية الا وقد علمتُ فيما نزلت وأين نزلت»^(٦).

وكان الامام خلال الفترة التي كان فيها النبي ﷺ مشغولاً بالدعوة الى

(١) الخطبة ٢٠٨ من نهج البلاغة.

(٢) حياة الصحابة ج ١ ص ٥٥٩.

(٣) التراتيب الادارية ج ١ ص ٥٨ - ٥٩.

(٤) انساب الاشراف ج ١ ص ٩٨ تحقيق المحمودي، مصنف عبدالرزاق ج ١٠ ص ١٤١.

(٥) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٩٨.

(٦) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٩٩.

الاسلام والتبليغ يعد نفسه للدفاع والتضحية من اجله .

وعندما بلغ رسول الله ﷺ الأمر باعلان دعوته، واراد ان يدعو قرابته كان علي عليه السلام نعم العون له، يهيئ الاستعدادات اللازمة للمجلس وييدي بين القوم وفاءه واخلاصه .

وحين كان بعض الافراد امثال ابي ذر تائهين في مكّة بحثاً عن بيت النبي ﷺ كان علي عليه السلام الفتى الشجاع يأخذهم الى منزله سرّاً مراعيّاً رغم ذلك اساليب العمل السري الدقيقة .

وعندما قاطعت قريش النبي ﷺ اقتصادياً واجتماعياً وحاصرت في شعب ابي طالب كان علي من جملة من كانوا يتحملون الصعاب ويسلكون الطرق الوعرة لتوفير المواد الغذائية للنبي ﷺ وسائر الصحابة^(١) .

وحين كان رسول الله يتّجه صوب الطائف والمناطق الواقعة اطراف مكّة ليعمل بواجبه في تبليغ الرسالة الالهية كان علي هو الذي يرافقه لكيلا يبقى النبي وحيداً وليعينه عند تعرضه للمشكلات .

وحين عزم المشركون -الذين وقعوا تحت ضغط دعوة الرسول وتبليغه ورأوا في استمرارها زوال سلطتهم- على قتله كان ناصر رسول الله ﷺ المضحي معه يعدّان خطة لمواجهة هذه المؤامرة تحتاج الى تضحية وفداء، وكان في قلب علي عليه السلام من الحب لرسول الله ﷺ ما جعله يرضى من صميم قلبه أن يعرض نفسه الى خطر الموت لينجو رسول الله ﷺ من الخطر الذي يتهدّد به .

(١) المعيار والموازنة ص ٨٨ .

وبعدما هاجر رسول الله ﷺ الى المدينة بايام كان عليّ عليه السلام اقرب الناس اليه يتولى مسؤولية حمل عائلة النبي ﷺ التي كانت عرضة لتهديد المشركين الى المدينة إضافة الى مسؤولية ردّ امانات الناس (التي كانت عند النبي ﷺ الى اهلها). وقد لبث رسول الله ﷺ مترقباً على مقربة من يثرب حتى يعود اخوه عليّ عليه السلام من السفر ليدخل المدينة معه.

وقد ازدادت هذه العلاقات قوّة واستحكماً بزواج عليّ من فاطمة الزهراء عليها السلام بنت رسول الله ﷺ وكانت ثمرة الزواج المبارك اولاداً كان رسول الله ﷺ يحبهم اعظم الحبّ ويسمّيهم ابناءه^(١) ولم يكن ذلك لاجل فاطمة عليها السلام وحدها بل لاجل عليّ عليه السلام أيضاً. لأن النبي كان يعتبر نفسه وعليّاً من شجرة وباقي الناس من اشجار آخر.

وقد سئلت عائشة عن احبّ الناس الى رسول الله ﷺ فقالت: «أمّا من الرجال فعليّ وأمّا من النساء ففاطمة»^(٢).

وكان بيت عليّ عليه السلام من القرب الى بيت رسول الله ﷺ ما جعل عبدالله بن عمر يعتبر ذلك شاهداً على العلاقة الوطيدة بينه وبين النبي ﷺ^(٣) تلك العلاقة التي كان زيد بن ثابت يقبلها رغم كل المعارضة التي كان يبديها لعليّ^(٤).

واما عن اشتراك الامام في الحروب في صدر الاسلام فقد قيل في ذلك الكثير فبدر وأحد والخنديق ثم معركة حنين كلّها ملاحم رائعة سطرّ فيها الامام

(١) وهو ما انكره فيما بعد بنو امية وبنو العباس - راجع كتاب الحياة السياسية للامام الحسن عليه السلام.

(٢) تاريخ جرجان ص ٢١٨، ربيع الابرار ج ١ ص ٨٢١.

(٣) انساب الاشراف ج ٢ ص ١٨١ - ١٨٢.

(٤) مصنف عبدالرزاق ج ١٠ ص ١٤١، فتوح ابن اعثم ج ٢ ص ١٦٥.

تضحياته وبطولاته فان نصف قتلى بدر لقوا حتفهم على يديه.

وحينما فرّ اكثر المسلمين من ساحة المعركة في أحد ، ظل هو وعدد قليل منهم الى جوار رسول الله يدافع عنه وعن الاسلام. وفي معركة الخندق كان علي قد ادّخر من الأجر بقتله عمرو بن عبد ودّ ما يعدل عبادة الثقلين وكان في اكثر المعارك والحروب حاملاً لواء جيش الاسلام^(١).

إن من يعرف حياة علي عليه السلام وقربه عن رسول الله ﷺ يفهم كم بذل من الجهود وتحمل من المشاق من اجل استقرار الاسلام وانتشاره. اجل لقد كان هو وابوه ابو طالب واخوه جعفر اكثر الناس عزماً وسعيّاً من اجل الحفاظ على النبي ﷺ والاسلام^(٢).

وكانت لعليّ من الشجاعة في الحروب ما جعل بعض العرب يقولون: «كنا كلما هجمت طائفة فيها علي عليه السلام اوصى احدنا الآخر»^(٣).

وكان احمد بن حنبل اذا اراد أن يصف عليّاً يقول : «ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالاسانيد الصحاح مثل ما لعلي رضي الله عنه»^(٤).

كما كان اذا دار الحديث في مجلسه -وهو احد ائمة المذاهب الاربعة- عن علي والخلفاء الثلاثة قال: «إن ابن ابي طالب لا يُقاس به أحد»^(٥).

(١) حياة الصحابة ج ٢ ص ٥١٤، ٥١٥، انساب الاشراف ج ٢ ص ٩١، ٩٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٧ ص ١٧٤.

(٣) ربيع الابرار ج ٣ ص ٣١٩.

(٤) مناقب احمد بن حنبل لابن الجوزي ص ١٦٢-١٦٣، ابن ابي يعلى، طبقات الحنابلة ج ١ ص ٣١٩.

(٥) نفس المصدر السابق ص ١٦٠-١٦٣.

ولا بأس أن نقل هنا إحدى فضائل الامام بتفسير امام الحنابلة فقد روى محمد بن منصور الطوسي قال: «كنّا عند احمد بن حنبل فسأله شخص: ماذا تقول في الحديث المروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: انا قسيم النار».

فقال احمد: ولماذا تنكرونه اما روينّا ان النبي ﷺ قال لعليّ عليه السلام: «لا يحبّك الاّ مؤمن ولا يبغضك الاّ منافق»؟ فقلنا: بلى . فقال: فاين يكون المؤمن؟ قلنا: في الجنة. قال: فالمنافق؟ قلنا: في النار، قال: فعليّ قسيم النار»^(١).

وقد منع بنو امية من نقل اغلب هذه الفضائل فيما بعد ولم يكن يجزؤ على نقلها الاّ عدّة معدودة. وكان عبدالعزيز ابو (عمر بن عبدالعزيز) الذي كان احد خلفاء بني امية يقول لولده: «لو علم هؤلاء الحمير ما نعلمه عن عليّ ما تبعنا اثنان»^(٢).

سياسة الامام

اذا التفتنا الى طبيعة العلاقات التي كانت تربط امير المؤمنين برسول الله ﷺ والدور المشرف الذي كان الامام يقوم به لنشر الاسلام منذ اوائل ايامه والى زمان رحيل النبي ﷺ والمعبّر عن الايثار والتضحية من اجل الاسلام فسوف نفهم انّ الامام كان من الشخصيات العظيمة واصحاب النفوذ في زمان حياة الرسول ﷺ ورغم هذه المكانة الخاصة التي كان الامام يتمتع بها تمكّن الآخرون -الذين لم تكن لهم هذه المكانة بأدلة ستوضح في حينها- ان يقيّدوا حركة

(١) طبقات الحنابلة لابن ابي يعلى ج ١ ص ٣٢٠، حديث لا يحبّك الاّ مؤمن، من الاحاديث المتواترة في فضل امير المؤمنين عليه السلام راجع كتاب ربيع الابرار ج ١ ص ٤٨٨.

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري ج ١ ص ٤٩٩.

الامام ويستولوا على السلطة بتنفيذ بعض الحيل السياسية الخاصة، وكان من أهم ما عملوه في هذه الفترة محو المكانة المتميزة والفريدة التي كانت لعلّي عليه من المجتمع الاسلامي، لذا راحوا يسعون وبما كان في ايديهم من امكانيات الى تضعيف شخصية علي عليه السلام، وتمكنوا من فرض العزلة عليه وهذا الامر اعلنه الامام وغيره بصراحة ووضوح^(١).

وكان الامام الذي يرى حقّه ضاع منه قد قام معترضاً في بداية الامر لكنّه حين رأى المخالفات ثارت من اطراف وانحاء الجزيرة العربية كفّ عن المعارضة من اجل حفظ الاسلام. وان كان يبدي بين الحين والآخر احقيته في الخلافة^(٢). وكان اذا استشاره الخلفاء في أمر او رجعوا اليه في قضاء يسدي نصائحه إن رأى في ذلك فائدة. وان كان في بعض الموارد الاخرى يأبى ذلك لعلمه بعدم المصلحة في الامر. وكان عليه في مثل هذه الحالات أن يواجه سيلاً من التهم والانتقادات^(٣)، ولذا تعرضت علاقاته بالخليفة الثالث لحالات من التشنّج لان الامام كان في كثير من فتاوى الخليفة يبدي اراء مخالفة^(٤).

خلافته

وبمرور الزمان وتفاقم المشكلات والحوادث وعجز الخليفة ومساعديه السياسيين والعلماء عن حلّها راح الخلفاء يمدّون ايديهم الى الامام طلباً في

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٩ ص ٢٨، ٢٩، ج ٢٠ ص ٢٩٩، والجمل للشيخ المفيد ص ٩٢.

(٢) الغارات ج ١ ص ٣٠٧.

(٣) مسند احمد بن حنبل ج ١ ص ١٠٠.

(٤) مسند احمد بن حنبل ج ١ ص ١٠٠.

المساعدة، وكان هذا سبباً في لفت الانظار الى مكانته العلمية في المجتمع الاسلامي وجعل الناس ينظرون اليه على انه خزانة علوم الاسلام واسراره المنقذة. ومن وجهة النظر السياسية فإنّ هناك عدداً من الواعين ممن كانوا يعتقدون أن السياسات الجارية لا تصبّ في مصالح الاسلام اختاروه ليكون مرشحاً للخلافة اضافة الى أن عدداً من الشيعة الذين كانوا يرون الارضية مناسبة، قد ضاعفوا من نشاطهم للكشف عن وجه الامام الناصع وراحوا يبذلون جهوداً حثيثة ومساعي سياسية متواصلة ليتولّى الامام الحكم، كما أن سائر طبقات الشعب ايضاً اعرضوا عن الخليفة الثالث لأنهم كانوا يرون مسيرة الحكم لا تتفق مع آمالهم واهدافهم من وجهة النظر الدينية والسياسية لذا فانهم أظهروا الحبّ والبيعة والولاء لامير المؤمنين. وقد أدّت هذه العوامل جميعاً الى أن يهجم الناس بعد عثمان على بيت علي عليه السلام ليجلسوه على كرسي الخلافة، وهذه هي المرة الاولى التي يبايع الناس فيها شخصاً ثم يتولّى امور الخلافة بصورة رسمية خلافاً للمرات السابقة التي كان ينصب فيها الخلفاء أولاً ثم يدعى الناس لمبايعتهم.

المبادئ والاصول السياسية للإمام طيلة حكمه

إنّ من اهم ثمرات حكومة الامام امير المؤمنين - التي دامت خمس سنوات فقط - اتخاذه سياسات كان الامام يهدف من خلالها الى تنظيم امور البلاد وتطبيق الوقائع الاجتماعية المهمة عليها، تلك السياسات الاسلامية التي بنيت على اساس من التعاليم الدينية والقيم الانسانية العامّة، ولم يكن الامام مستعداً للعدول ذرّة عنها. نذكر فيما يلي باختصار نماذج منها:

الف: اصلاح نظام الحكم وتقديمه على الفتوحات:

ان من احدى المبادئ السياسية عند الامام بنحو قابل لأن يعطي انطباعاً عاماً لجميع مساعي الامام عليه السلام في ايام حكومته هي مبادرته لاصلاح الفساد السياسي المتفشى بين المسلمين، وتقديمه على الفتوحات الاسلامية وتوسعة المناطق التابعة للدولة الاسلامية. فقد كان الإمام يفضل أن تبقى الدولة الاسلامية منحصرة ضمن مساحة جغرافية محدودة ولا يسود في داخلها الفساد السياسي وانما يتولّى مسؤولية الحكم على الناس فيها عناصر لا شك في صلاحيتهم الدينية والسياسية، ولذا فإنّ الامام حين عرض عليه جماعة أن يصبر على معاوية وامثاله رفض ذلك وقال: «ما وجدتُ الا قتال القوم او الكفر بما جاء به محمد»^(١).

وقال أيضاً: «لم يكن الله يراني اتّخذ المضلّين عضداً»^(٢).

ولهذا السبب كفّ يده طيلة مدّة امامته عن الاستمرار في الفتوحات وحاول تنفيذ سياساته، فعندما خالفه اشخاص مثل الناكثين هاجر الى العراق، وحصل على عون الكوفيين^(٣) واسرع لقتالهم وتمكّن في الحرب التي نشبت من قتل قادة الناكثين، والقضاء على حركة راكبة الجمل التي قادت المعركة. وكان الامام يرى نفسه موظفاً لمقاتلة العناصر الداخلية المخلة بالامن والنظام وكان يقول: «امرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»^(٤).

وما كان يصبر على معاوية ولم يرضَ ان يكون حاكماً على الشام ولو

(١) الانساب ج ١ ص ٢٣٦ المحمودي، المعيار والموازنة ص ١٣٦، ٥٤، وكتاب الفتوح ج ٢ ص ٢٦٦.

(٢) وقعة صفين ص ٥٢، الطبري ج ٣ ص ٤٦٠.

(٣) اذن الاموال والرجال بالعراق، الاخبار الطوال ص ١٥٣، الفتوح ج ٢ ص ٢٦٨.

(٤) الانساب ج ١ ص ١٣٨.

لساعة واحدة. فلذا بذل قصارى جهده لازالة هذه العقبة عن طريق الاسلام، وهو وإن وقَّى الى حدّ كبير في ذلك لكن الضعف الذي ابداه اهل العراق، واغترارهم بالشعارات الكاذبة التي اطلقها معاوية افقد الامام القدرة على ازالته.

وطبيعي أن تكون نتيجة هذا الضعف الفكري الذي اوصل القدرة القتالية لجيش الكوفة الى درجة الصفر هو تسلط معاوية على العراق بعد استشهاد. لكنّ سنّة الامام في الحرب مع القاسطين والظالمين صارت اصلاً دينياً مسلماً عند جميع المسلمين وانشئت قاعدة في الاحكام الشرعية فيما يخص حرب البغاة.

وفي قتاله المارقين^(١) عندما وجد الامام ان جماعة قد خدعتهم التأويلات الخاطئة للآيات القرآنية وانهم سيجرون المجتمع الاسلامي نحو الفساد اقدم لتفريق جمعهم فحطّم قدرتهم العسكرية. وإن ساعد الحكم الجائر لبني اميّة فيما بعد على انتشار افكار الخوارج المنحرفة مرة اخرى واتسعت دائرة عملهم السياسي لكنهم لم يقووا على الوقوف بوجه علي عليه السلام فقد قمعوا ودمروا على يديه.

وكان الامام يسير بسيرته هذه في جماعة من المسلمين ابتلوا بانحراف في الدين ووقعوا - عن علم وغير علم - في حبال الشيطان وصاروا منافقين، يقول الامام في هذا الصدد:

«ولكنّا انما اصبحنا نقاتل اخواننا في الاسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل»^(٢).

لكنّه كان يعتبر الحرب واجباً لاصلاح العناصر المفسدة بين المسلمين التي

(١) مرق عن الدين اي خرج عنه.

(٢) الخطبة ١٢٠ وفقاً لتصنيف نهج البلاغة ص ٥٠١.

تريد انتهاز الفرصة للاستيلاء على الحكم ويقول:

«فإن رأيت قتال المحلّين حتى القى الله، لا يزيدني كثرة الناس حولي
عزّة، ولا تفرّقهم عني وحشة»^(١).

طبيعيّ انه لو كان التصالح مع المعارضين ممكناً واعلنوا فروض الطاعة
للامام وتوجيهاته ما خاض الامام حرباً ضدهم لكنهم اوجدوا ظروفاً لم يكن
لدى الامام معها خيار سوى الحرب فقد روى طارق بن شهاب عن الامام قوله:
«والله ما وجدت من القتال بُدّاً»^(٢).

ب - الاستفادة من الاسس الاسلامية والاخلاقية في اصلاح الانحرافات:

وكان من جملة السياسات الاصولية للامام انه لم يكن يعتمد على الطرق
والاساليب غير الشرعية في سياسته. وقد اقترح عليه مراراً ان يوقّر شرفاء القوم
ليأمن خطر مخالفتهم ويستمدّ العون منهم لكنّ الامام كان يأبى ذلك^(٣). إذ لو كان
يريد أن يفعل ذلك لسالم معاوية لكنه كان يرّدّد هذه الجملة دائماً ويعتبرها اصلاً
مهماً في حكمه حيث يقول: «أنا مروني أن أطلب النصر بالجور»^(٤).

لقد كان دأب عليّ عليه السلام على شرح سياساته للناس لذا فأنه كان يبيّن
المخطوط العامّة لسياسته في خطبه المفصّلة التي كان يلقيها في الناس طيلة مدّة
خلافته. وكان يحاول بذلك أن يكون اقدام الناس عن وعي واختيار. وكان كلما

(١) الخطبة ٢٧٥ وفقاً لتصنيف نهج البلاغة ص ٣٨٨.

(٢) التاريخ الكبير للبخاري ج ٢ ص ٦٧.

(٣) الغارات ج ١ ص ٤٥.

(٤) الغارات ج ١ ص ٦٧٥، بهج الصباغة ج ١٢ ص ١٩٦.

خالفوه في امر سعى لتوضيحه لهم. فاذا وجدهم لم يقبلوه لم يفرض عليهم مراده ويقول: «ليس لي أن احكمكم على ما تكرهون»^(١).

وفي مقام آخر قال بعد أن ذكر محاولاته لاصلاح الامر من طرق مختلفة: «لا يصلحكم إلا السيف وهيئات ان يكون صلاحكم بفسادي»^(٢).

لقد كان الامام ملتزماً بهذه الضابطة. ولذا فإنه حين رأى نفسه بين اصلاح الناس وإفساد نفسه باعتباره قائداً صمّم على ترك الاستفادة من الاساليب الجائرة لاصلاح الناس كيلا يفقد صلاحه. فهو لم يكن يريد أن يستعمل الحيلة والمكر لتحقيق اغراضه السياسية وبذلك يقوّي موقعيته بين الناس فقد كتب فخري يقول: «ولم يكن الخدع والحيل من مذهب علي».

لكنّ معاوية لم يكن كذلك، ولذلك اتّهم الامام بضعف الرؤية السياسية وعرف معاوية بقوّتها عنده. وقد قال الامام في الاشارة الى ذلك:

«والله ما معاوية بادهى منّي لكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهيّة الغدر لكنّ من ادهى الناس»^(٣).

ولهذا السبب كان ابن عبّاس يقول: «ما رأيت رئيساً يوزن بعلي»^(٤).

ج - جميع الجهود لحفظ الاسلام:

انّ من جملة المبادئ السياسية عند الامام سعيه لحفظ الاسلام فاذا اقدم

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٠٨.

(٢) الارشاد ص ١٣٤ طبع المطبعة الاسلامية.

(٣) الخطبة ١٩٨ وفقاً لتصنيف نهج البلاغة ص ٣٧٩، المعيار والموازنة ص ٢٦٦، الفارات ج ١ ص ٢٩٦.

(٤) عيون الاخبار ج ١ ص ١١٠.

على امر معيّن فأنّه يقدم عليه باعتباره مقدّمة لبقاء الاسلام، فحين وقعت حادثة السقيفة كان الامام يشهد ضياع حقّه، لكنّه اختار السكوت لكيلا يترزعزع ايمان سكّان جزيرة العرب الحديث، ويصاب الاسلام العزيز بالضرر، فقد كتب في رسالته الى محمّد بن ابي بكر يقول:

«فخشيتُ إنّ لم انصر الاسلامَ واهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ اعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيام قلائل...»^(١).

هذا في الوقت الذي لم يمتنع الامام ابداً عن اعلان احقيّته بالخلافة وحده^(٢) وكان كثيراً ما يعدّد فضائل اهل بيت رسول الله ﷺ لينبه الناس على تقدّمهم على غيرهم. وفي نهج البلاغة عبارات وكلمات له في هذا الصدد تصرّح بذلك بوضوح. هذا مضافاً الى مساعي الامام الاخرى لتثبيت اسس امامته الالهية بالطرق والاساليب المختلفة^(٣).

مصير السياسة في حكومة امير المؤمنين عليه السلام

لقد كان طيلة مدّة حكومة امير المؤمنين تناقض اساسي بين جهاز القيادة السالم الصحيح وبين ما اعتاد عليه الناس وعملوا به.

فن جهة كان الامام يريد أن يصلح امر المجتمع وفقاً للمعايير الشرعية ويحكم الضوابط الدينية في العلاقات الاجتماعية بين الناس، ويلزم من ذلك أن يستخدم لهذا الغرض اسلوبه الاسلامي والاخلاقي الخاص، بأن لا يقدم على امر

(١) الغارات ج ١ ص ٣٠٧، انساب الاشراف ج ١ ص ٢٨١ تحقيق المحمودي، ونهج البلاغة الكتاب ٨١.

(٢) راجع كتاب نهج البلاغة ص ٤١٩ الى ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٧. انساب الاشراف ص ١٧٧.

(٣) راجع كتاب تاريخ الاسلام السياسي حتى العام ٤٠ الهجري ص ٤٣٠ الى ٤٣٥.

خارج عن حدود الدين - كما ذكر - للوصول الى اهدافه .

ومن جهة اخرى فإنّ الناس خلال سنين طويلة جعلوا لهم معايير أخرى
تكوّنت في ظلّ مجتمع مرفّه متجه الى احياء القيم الجاهلية وكان تطبيق هذه
المعايير معلولاً لامرين :

١ - استمرار الفتوحات وزيادة الغنائم .

٢ - عدم اعتناء الحكّام بتربية الناس تربية اصيلة .

وخلاصة الامر أن الناس كانوا يريدون شيئاً ، والامام يريد شيئاً آخر ،
وهو ما جعل تناقضاً بين الارادتين . لذا لم يكن إصلاحهم بغير السيف ممكناً ، ولم
يكن لعلّي أن يسوقهم الى الاسلام بغيره فماذا يتوقع لسياسة كهذه من مصير ؟

لقد سعى الامام أن يدلّ الناس على الطريق ، وينزلهم عند حكم العقل ،
ويرشدهم بإيضاح اسس التقوى الى الهدف المقدس الذي ابتعدوا عنه . لكن
نشوب الحروب الداخلية زاد من وطأة الضغط الذي يعاني منه الناس اذ انّ هذه
الضغوط ليست لا تتلاءم مع نفسية ذلك المجتمع الميّالة نحو الرخاء فحسب ، وانما
تنافيا ايضاً ، لانّ المعارك التي كان الناس يخوضونها ضد المشركين كانت تعود
عليهم بالغنائم .

وامّا الحروب الداخلية التي خاضها عليّ ضد الناكثين والقاسطين والمارقين
فلا تعود عليهم بشيء وهو ما جعل الناس بل كثيراً من الراغبين ظاهراً في تطبيق
الاسلام عاجزين عن الوفاء بتعهداتهم ، فعدلوا عن مواضعهم واعلنوا مخالفتهم ،
وتركوا عليّاً عليه السلام وحده ، ولم يثبت معه الاّ من كان يعرفه ويعرف طريقه معرفة
حقّة .

وكان الامام امير المؤمنين عليه السلام يتوقع مثل هذا اليوم ولذا كان في أول الامر يأبى أن ينصاع لطلب الناس، ويرفض قبول حكومتهم، لأنه يعلم انهم لا يثبتون على تنفيذ سياساته واجراء برامجه، اذ كان يقول:

«دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون امراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول»^(١).

لكنه قال في آخر الامر جملة تؤكد تحقق توقعه السابق وثبت صحة رأيه الأول بعد أن اختبر الناس رأيه حيث قال: «اعلموا أنه قد وقع الامر الذي كنتُ احذركم إياه، وأن الفتنة كالنار كلما اسعرت ازدادت، وإنما سأمسك هذا الأمر ما أتمسك فاذا لم اجد بُدّاً فأخر الدواء الكي»^(٢).

وكانت عاقبة هذا الحكم على خلاف السنن الجارية في المجتمعات البشرية حيث صار الحاكم مظلوماً والرعية ظلمة بدلاً من أن يكون هو الظالم وهي المظلومة كما هو المتعارف، وغدا الناس امراء له بدلاً من أن يكون هو اميرهم. وواضح ماذا يكون عليه مصير حكومة كهذه. قال علي عليه السلام:

«لقد اصبحت الامم تخاف ظلم رُعَاتِهَا، واصبحت أخاف ظلم رِعِيَّتِي»^(٣).

وقد ازدادت حركة الامّة وخروجها من الطاعة الى عدم الطاعة خلال الحروب الداخلية الثلاث شيئاً فشيئاً. فقد بلغ اقبال الناس وهجومهم عليه في أول الامر حدّاً كاد ان يسحق معه ابنائه ويهلكا تحت ضغط الجمع الحاشد حتى

(١) نهج البلاغة، لصبحي الصالح ص ١٣٦.

(٢) الفتوح لابن اعثم ج ٢ ص ٢٧٢.

(٣) الخطبة ٩٥ من نهج البلاغة، وفقاً لتصنيف نهج البلاغة ص ٣٨٢.

اضطر في نهاية المطاف واثّر المزيد من الاصرار أن يقبل الخلافة معللاً ذلك بقوله ﷺ :

«ولكنني آسى أن يلي امر هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها فيتخذوا مال الله دُولاً وعباده خُولاً والصالحين حرباً والفاسقين حزباً»^(١).

ولكن لما كان أوّل الناس بيعة له قد اعلن مخالفته قبل غيره والامر ما زال في أوّله، فان من الطبيعي أن يلحق به آخرون ويزداد عدد مخالفيه بالتدريج، فقد انتقاد الناس في حرب الجمل للامام، واطاعوا امره وان عصاه في الكوفة ابو موسى الاشعري ودعا الناس الى القعود، ففقد عن القتال معه بعض ظاناً انه بذلك حفظ دينه لكنه لم ينصر الحقّ طبعاً ولذلك نرى الامام يصفهم بدقة بهذا الوصف فيقول: «خذلوا الحقّ ولم ينصروا الباطل»^(٢).

ورغم انّ الناس في حرب صفين كانوا على اطمئنان كامل بصحّة مسيرهم في أول الأمر لكنّ ضغط الحرب اضعف عقيدتهم، ولان من عزمهم، وادّى بهم الى التراجع عن التزاماتهم وتعهّدهم السابقة وسحقها، عندما رجّحوا قول معاوية على قول عليّ واعتبروا معاوية مع القرآن وعاملاً به دون عليّ.

وفي المرحلة اللاحقة شكّل المخالفون للامام عليّ ﷺ صفّاً أمامه حيث أنهم إذا كانوا يرفضون قتال معاوية معه في صفين، فقد خرجوا عليه هذه المرّة ليخرجوا بذلك عن الدين.

وقد قصرت يد الامام في الأيام الاخيرة عن القيام باي عمل وعجز حتى

(١) الكتاب ٦١ من نهج البلاغة.

(٢) تصنيف نهج البلاغة ص ٥٧١.

عن الدفاع ازاء الهجمات التي كان معاوية يشنّها على المناطق الخاضعة لحكومته، كما ضعف ايمان الناس ايضاً حتى لم يعودوا مستعدين لسماع كلام الامام، بل كانوا يرون انفسهم عاجزين عن الدفاع عن بلاد العراق تحت ضغوط هجمات معاوية.

اما الخوارج هؤلاء المتعصبون الجهلة، فقد كان فهمهم للدين يتّسم بالجمود فلم يكونوا يعرفون الدين ولا يفهمون للمتدّين معنى، وهو ما أدى بهم في نهاية المطاف الى أن يرتكبوا تلك الجريمة البشعة باراقتهم لدم عليّ هذا المثال الانساني الكامل الذي ستبقى البشرية عاجزة عن الاتيان بمثله، وبذلك كانت الخاتمة للحياة السياسية لامير المؤمنين.

ان مثل هذه النتيجة -وكما توقّعها الامام- كانت هي المآل الطبيعي لمجتمع خرج عن مساره الأوّل، واضحى اشبه ما يكون ببناء دعائم منهارة وجدرانه متزلزلة بحيث ان المكث فيه يعد بحكم الانتحار. ورغم ان الامام لم يكن قادراً على التخلي عن الساحة عند هجوم الناس على داره لأن ذلك كان بمثابة الاهمال لارادة الناس وعدم الاهتمام بمطالبهم، الاّ أنه فعل ذلك من اجل أن تبقى تلك التجربة، وليكون من جانب آخر قد ادى واجبه ومسؤوليته في الامامة. وان اصراره على عدم الاستجابة لارادة الناس هو اهم دليل لدينا على تكوين مثل هذه الرؤية بشأن حياة الامام في الحكم.

لقد كانت حصيلة هذه الحكومة هي بلورة المبادئ الاسلامية للسياسة التي ينبغي أن تطبق على المجتمعات البشرية في المستقبل وعندما تتاح لها الفرصة المناسبة. وقد كانت فيها -بلا شك- تجارب ودروس ضرورية لتسير على ضوئها الاجيال القادمة وتتنأى بنفسها عن حب الدنيا وتلتزم طريق الاستقامة والتقوى وتمسك بتطبيق الاحكام الالهية. فالخطب البليغة في وصفه للمفسدين الظالمين

والخوارج والناكثين والمارقين، والكلمات القصار التي تنطوي كل واحدة على عالم واسع من المشاعر والرؤى وتُعتبر باجمعها اراثاً ثقافياً ودينياً وسياسياً. وقد تكون هي اهم ثمرة انتجتها خلافة امير المؤمنين التي دامت مدة خمس سنوات.

تحرك الامام لاهياء الدين

حينما بدأت الفتوحات في اعقاب وفاة النبي ﷺ، تركزت مساعي الحكام آنذاك على السيطرة على اكبر مساحة ممكنة من الارض، وتوسيع رقعة الدولة الاسلامية. ورغم الجهود التي بذلها المسلمون آنذاك في سبيل مواجهة الكفر والشرك، إلا أنهم -ولاسباب عديدة- لم يتمكنوا وللأسف من التخلص من منحدر الانحرافات الدينية التي كانت شائعة آنذاك عن جهل أو عن قصد أحياناً. ولقد كانت هذه الانحرافات تتسع يوماً بعد آخر، وتُهجّر سُنّة رسول الله ﷺ الى جانب كتاب الله، ويحل محلّها الرأي والبدعة التي اصطلح عليها بالبدعة الحسنة!

ولقد بدأ اهتمام الناس يتضاءل بهذه المسألة من اجل الحصول على الغنائم والوصول الى حالة الرفاه، وبدأت اصوات المعارضة ترتفع فقط، حينما شعروا ان الغنائم الحربية الهائلة توزّع على عائلة خليفة المسلمين عثمان في غيابهم! وكان من بين الناس اشخاص واعوان ايضاً. وقد بدأوا بالتمرد للتخلص من الظلم والاستبداد الذي لحقهم من ولاية الخليفة في الولايات والامصار المختلفة. وقد انضم اصحاب علي عليه السلام الى هذه الحركة ايضاً من اجل تحقيق اهدافهم المتمثلة بتطبيق الاسلام الحقيقي.

ولما جلس امير المؤمنين على كرسي الامامة والخلافة، تركّز جلّ اهتمامه -كما اشير الى ذلك فيما سبق- على اصلاح الفساد الداخلي. ولو صرفنا النظر عن

الاصلاحات السياسية التي نتجت عنها الصراعات المشهورة في عهد الامام عليه السلام فإنه عليه السلام قد بدأ جهوداً حثيثة ايضاً في مجال الاصلاحات الدينية.

ولقد كان من ابرز الانحرافات الدينية هو زوال الرؤية الدينية، واضمحلال مشاعر التدين بين عامة الناس، الامر الذي ادى بهم الى السعي لا من أجل تحقيق اهداف الدين المبين، بل لاجل الحصول على اكبر حصّة ممكنة من بيت المال، وتنظيم شكل وماهية حياتهم ضمن هذا السياق ايضاً.

ولقد صعد الامام من وتيرة خطبه العميقة الجامعة من اجل ازالة الدوافع غير الدينية وقد ركّز في كلامه وخطبه البليغة المثيرة التي كان يلقيها في صلاة الجمعة او الموارد الاخرى على التقوى، ويحثّ الناس على ضرورة عدم الانغماس في الدنيا، ويحذّر طلاب الدنيا ويقرّعهم. ولو ان احداً اراد تدوين ثقافة التقوى لوجد أغنى مفاهيمها وكلماتها في رحاب نهج البلاغة. صحيح ان النصيحة والدعوة الى التقوى هي من المستلزمات المعروفة لكل خطبة وهي امر عادي ايضاً، الا أن كل هذا التأكيد من قبل الامام عليها، وكل هذه الايضاحات التي اوردها بشأنها، انما يدل على أنه كان يهدف بطرحها الى اصلاح مجتمع مُلَوّث بالدوافع غير الدينية، ولا يحمل شيئاً من همّ الدين، بل همّه الاكبر اكتساب المال وجمع الغنائم وقبض اكبر سهم ممكن من بيت المال.

وبالاضافة الى التقوى، يشتمل نهج البلاغة على قضايا كثيرة، وذات اهمية بالغة لفهم الدين، وتبيان الكثير من جوانبه، والخطب التي تتناول معرفة الله على درجة كبيرة من السعة، وذات عمق عقلي وعلمي، وهي جميلة وجماها يشكّل تلك الصورة الرائعة الجذّابة لنهج البلاغة.

وقد سعى الامام عليه السلام في شتّى الجوانب الدينية لاهياء القرآن وسنّة رسول

الله ﷺ ولا جهاز السياسات الفكرية الخاصة التي أدت الى ظهور البدع واندثار السنن الالهية. فحينما قلّ التذاكر بالحديث امر الامام بتذاكره ونقله، ولما كان الآخرون يمنعون من تدوين الحديث لأسباب واهية، كان الامام ينادي من على المنبر: «من يشتري علماً بدرهم»^(١). فاشترى حارث الاعور رقعة وكتب عليها: قال الامام: «يا أهل الكوفة غلبكم نصف رجل»^(٢).

وكذلك كان الحسن بن علي يوصي ابنائه بكتابة الحديث حتى وان مَرَّق الآخرون ما كانوا قد كتبوه.

وسنشير الى هذه القصة المأساوية في مكان آخر من الكتاب^(٣).

ولهذه الأسباب ايضاً تم تناقل الحديث الحقيقي لرسول الله ﷺ - الذي كان على لسان اهل البيت - بصورة مكتوبة، وبهذه الشاكلة بقيت احاديث الشيعة في مأمنٍ من التحريف الذي طال احاديث اهل السنة. وحينما تغلغلت ثقافة اهل الكتاب الى المجتمع الاسلامي في قالب الاسرائيليات واتبع البعض اساليب خاصة في نشرها والترويج لها، ابرز الامام معارضته الصريحة وراح يحذّر الناس من اتباع ثقافة وتراث اهل الكتاب^(٤).

كان الامام يشير الى هذه الانحرافات بصراحة، ويرى في المجتمع الذي عاصره تجربة عصر الجاهلية تتكرر فيه من جديد.

(١) التراتيب الادارية ج ٢ ص ٢٢.

(٢) تقييد العلم ص ٩٠، ربيع الابراج ٣ ص ٢٢٦.

(٣) نشرية نور العلم، الاعداد ٩، ١١، ١٢ من الدورة الثانية.

(٤) التراتيب الادارية، ج ١ ص ٧٦.

«ألا وان بليتكم قد عادت كهينتها يوم بعث الله نبيّه»^(١).

وقال ايضاً في موضع آخر: «اعلموا انكم بعد أن هاجرتم عدتم الى روحيتكم البدوية، وبعد أن عقدتم اواصر الولاية بينكم اتبعتم سبيل الفرقة .. ما تتعلقون من الاسلام الأ باسمه، وما تعرفون من الاسلام الا رسمه.. الا وقد قطعتم قيد الاسلام، وعظمت حدوده وأمتّم أحكامه»^(٢).

وهذه العبارة تعكس رؤية الامام ونظرته الى ذلك المجتمع، وتبرز العلل التي من اجلها سعى الامام الى احياء الدين، والتي تحدث الامام نفسه عنها قائلاً: «قد ركزت فيكم راية الايمان، ووقفتكم على حدود الحلال والحرام»^(٣).

وحينما كان ابو ذر تلميذ الرسول ﷺ وعلي عليه السلام المخلص الذي ما اظلت السماء ولا اقلت الخضراء اصدق لهجة منه، يريد وصف الامام بكلام كان يقول: «علي زُر الدين»^(٤) (اي قوامه).

وكان يقول للناس: «ستكون فتنة فإن ادركتموها فعليكم بكتاب الله وعلي عليه السلام»^(٥).

والتلميذ الآخر لهذه المدرسة -الا وهو عمار بن ياسر- كان يتحدث عن النهج الذي سلكه علي عليه السلام. واصفاً آياته بالعبارة الرائعة التالية:

(١) نهج البلاغة - ص ٥٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٣ ص ١٧٩.

(٣) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٣٧٣.

(٤) الفائق في غريب الحديث ج ٢ ص ١٠٨.

(٥) انساب الاشراف - ج ١ - ص ١١٨.

«لو لم يعمل عملاً ولم يصنع شيئاً إلا أنه احبى التكبيرتين عند السجود
لكان قد اصاب بذلك فضلاً عظيماً»^(١).

وهذه العبارة تشير الى ان اهم الاعمال في رأى علي واصحابه هي احياء
دين النبي ﷺ حتى ان عملاً كالذي ذكره عمار صار يعدّ من اعظم الانجازات
التي حققها الامام.

ولهذا السبب فقد قال عنه عمر وحسب معرفته به: «انّي لأرى أنّه ان وُلّي
شيئاً من امركم سيحكمكم على طريق الحق»^(٢).

ومما يؤسف له أن الخليفة نفسه لم يكن يرضى أن يعدّ الارضية التي تمكن
الامام من تطبيق آرائه عملياً. وفي مورد آخر لما اراد الحكم بين علي وخصم له،
فنادى علياً بكنيته واعترض الامام عليه على مناداته له بكنيته بحضور خصمه
واحترامه بشكل لم يفعله مع خصمه قال عمر للامام: «بأبي بكم هدانا الله وبكم
اخرجنا من الظلمات الى النور»^(٣).

لقد كان الامام شديداً في امر الدين، ولم يكن الدافع لذلك سوى حفظ
الدين في المجتمع اذ كان يقول: «والله لا ادهنت في ديني»^(٤).

وعندما كان اصحاب الامام يريدون وصف علي بالشعر كان يقولون عنه:

(١) انساب الاشراف - ج ١ ص ١٧٩ - ١٨٠، مصنف ابن ابي شيبة ج ١ ص ٢٤٠.

(٢) انساب الاشراف - ج ١ ص ٢١٤؛ ادب المفرد للبخاري ص ١٤٩.

(٣) الزمخشري - ربيع الابرار - ج ٣ ص ٥٩٥.

(٤) نهج السعادة - ج ٢ ص ٢٠٢.

اوضحت من ديننا ما كان مشتبهاً

جزاك ربك عنا فيه احساناً^(١)

والحسن البصري رغم انه لم يكن يحمل نظرة ايجابية عن الامام، الا انه لما اراد وصف الامام بجملة قال: «أراهم السبيل واقام لهم الدين اذا اعوج»^(٢).

وهذا يظهر أن اهم الطروحات التي كان يرتئها انما كانت تتمثل فيما يقوم به من أعمال في سبيل احياء الدين، وكان يرى واجبه يتجسد في ابلاغ كامل سنة النبي ﷺ، ولذلك فانه كان ينادي بأعلى صوته: «والله ما أسمعكم الرسول شيئاً الاّ وها انا ذا مسمعكموه»^(٣).

وكان يرى نفسه منفذاً واعياً ومخلصاً لسيرة الرسول ﷺ، وكان يقول عند رؤيته تمرّد بعض الناس: «لو غبتُ عنكم من يسير فيكم بهذه السيرة؟»^(٤).

ولهذا السبب ايضاً كان يؤكد على ايضاح سيرة الرسول ﷺ للناس في مختلف جوانب الحياة، وكان يطبق ذلك بين الناس باسم السنة^(٥).

وصلى ابو موسى خلف الامام علي عليه السلام بعد ٢٥ عاماً من وفاة النبي ﷺ فقال: «ذكرنا ابن ابي طالب صلاة النبي ﷺ»^(٦).

ومن خلال امعان النظر في الشواهد السالفة يمكن ان ندرك جيّداً أن احد

(١) كشف الغمة - ص ٢٥.

(٢) مصنف ابن ابي شيبة ج ١٢ ص ٨٣.

(٣) نهج البلاغة ص ١٢٢.

(٤) المصنف لعبد الرزاق ج ١٠ ص ١٢٤.

(٥) نهج السعادة ج ٢ ص ١٠٠.

(٦) البخاري، التاريخ الكبير ج ٤ ص ٣٣.

أكثر الأعمال أهمية لدى الإمام طوال حياته والتي يمكن اعتبارها سياسة وتعاملاً منطقياً مع مسائل الحياة هي حفظ أصول وفروع الدين وجعل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ المحور الوحيد الذي تدور عليه مساعيه ومساعي عامة الناس.

البُعد العلمي للإمام علي عليه السلام

سمعنا كثيراً أنه لا يوجد كلام بعد القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ، مثل كلام أمير المؤمنين. ويمكن معرفة مدى صحة هذا الادعاء من خلال مراجعة كتاب نهج البلاغة الذي لا يضم إلا بعضاً من كلام أمير المؤمنين.

فالقضايا التي تناولها الإمام في مجالات معرفة الله ومعرفة الدين والشؤون الاجتماعية والسياسية وخاصة في باب علم الاخلاق؛ تُعد كل واحدة منها فريدة في مجالها ولا نظير لها في جمالها وروعها، ويمكن الاستفادة منها في صياغة أطروحة أساسية لبلورة العقائد الدينية، ورسم الخطوط العريضة في السياسة الإسلامية، وتنظيم قواعد الاخلاق الدينية.

وقد أكد صحابة النبي على هذه النقطة خلال حياته وطرحت بصور مختلفة، مثل: «علي اعلم الناس بالكتاب والسنة»^(١).

وقد كان النبي ﷺ يعتمد على علي إلى حد بعيد بحيث كان يأمره أن يُعلم الوضوء والسنة^(٢).

(١) المعيار والموازنة ص ١٠٢ وتقل عن عائشة أنها قالت: «علي اعلم الناس بالسنة» البخاري، التاريخ

الكبير ج ٢ ص ٢٥٥.

(٢) الطبقات الكبرى. ج ٤ ص ٥٢.

ولم يكن قد بلغ مرحلة متقدمة من شبابه حتى ارسله النبي ﷺ لتولي القضاء في اليمن. وأكد احد الصحابة هذه القضية بقوله: «كنا نتحدث ان علياً اقضى اهل المدينة»^(١).

وقال ذلك الصحابي ايضاً: «اعلم اهل المدينة بالفرائض علي بن ابي طالب»^(٢).

وقال الامام علي عليه السلام: «نحن اهل البيت اعلم الناس بما قاله الله ورسوله»^(٣).

قال: «فما نسيت حديثاً او شيئاً سمعته من رسول الله»^(٤).

وكان يقول ايضاً: «والله ما نزلت آية الا وقد علمت فيما نزلت واين نزلت»^(٥).

وكان عبدالله بن عباس يقول، وهو ذو المنزلة السامية بين المحدثين: «اذا حَدَّثَنَا ثِقَةٌ عَنْ عَلِيٍّ بِفَتْيَا لَمْ نَعْذُهَا»^(٦).

وكان الامام يرى نفسه في درجة من العلم بحيث يقول: «سلوني عن كتاب الله فإنه ليس آية الا وقد عرفت ابليل نزلت ام بنهار، في سهل او جبل»^(٧).

(١) انساب الاشراف - ج ١ ص ٩٧. والاستيعاب - ج ١ ص ٩ - الطبقات. ج ٢ ص ٣٣٨.

(٢) انساب الاشراف ج ١ ص ١١٢.

(٣) الطبقات الكبرى ج ٦ ص ٢٤٠.

(٤) انساب الاشراف ج ١ ص ١٢١.

(٥) انساب الاشراف - ج ١ ص ٩٩، حلية الاولياء - ج ١ ص ٦٧.

(٦) انساب الاشراف - ج ١ ص ٩٩.

(٧) انساب الاشراف ج ١ ص ٩٩.

وكذلك كان علي يقول: «لو أردت أن أقر على الفاتحة سبعين بغيراً
لفعلت»^(١).

وكان مشهوراً بين العلماء منذ القديم بأن أحداً لا يقول: «سلوني قبل أن
تفقدوني» غير علي عليه السلام^(٢).

ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يعتبر الخليفة الثاني وطوال فترة خلافته
علياً بمثابة مرجعه العلمي، مع أنه لم يستفد من الامام كما ينبغي وهو مما يؤسف له
طبعاً، فقد كان عمر يقول: «لا ابقاني الله لمعضلة ليس بها ابو الحسن»^(٣).

ونقل بشكل متواتر عن الخليفة الثاني أنه قيل لعمر من أين أعتمر فقال:
«أنت علياً فاسأله»^(٤).

بالإضافة إلى ذلك، فالامام هو واضع علم النحو وهو من أهم الفروع
الأدبية، وهو العلم الذي أصبح فيما بعد من أكثر الجوانب ضرورة لصيانة القرآن
من التحريفات النحوية.

والاقوال التي مرّ ذكرها لا تشكل إلا جزءاً ضئيلاً من الاعترافات التي
ذكرت بشأن علم الامام عليه السلام، ونحن طبعاً لسنا بصدد تقصي هذه الاقوال
والعبارات هنا لكي نأتي على ذكرها بجمعها. ولو لم تكن أي من الاقوال السابقة
موجودة لكان قول رسول الله ﷺ: «انا مدينة العلم وعلي بابها» وحده كافياً

(١) التراتيب الادارية. ج ٣ ص ١٨٣.

(٢) جامع بيان العلم ج ١ ص ١٣٧.

(٣) الطبقات: ج ٢ ص ٣٣٩؛ أنساب الاشراف: ج ١ ص ١٠٠.

(٤) غريب الحديث ج ٣ ص ٤٠٦.

وهي رواية متواترة عند السُّنة والشيعة.

نمط حياة الامام عليه السلام

من المسلم به ان حياة الامام هي افضل انماط الحياة التي جربتها الانسانية على طوال فترة حياتها ولحد الآن، حياة الانسان الكامل الذي يعتبر اكثر افراد البشرية واقعية واهية ومن الافراد النادرين الذين يليق اطلاق كلمة خليفة الله في الارض عليهم. وهي حياة جذابة الى ابعد الحدود بحيث سعدت بالمحب الى اقصى درجات المحبة واوصلت المبعوض الى اقصى درجات البغض. وهي الشخصية التي قال عنها النبي ﷺ: «يا علي يهلك فيك رجلان، محب مفروط، ورجل مفروط»^(١).

فمن يتشيع له يتنامى حب التشيع في قلبه حتى يبلغ حد الترفض^(٢)، وان غفل عن نفسه اصبح عرضة لميول المغالاة وقلما شوهد من نسب اليه الالهية خلال حياته الا ان الامام تعرض لمثل هذه النسبة في مجتمع تكررت فيه التأكيدات الالهية على الطبيعة البشرية لرسول الله، رغم تصدي الامام العنيف لمثل هذه النسب والشبهات.

ومن المثل السامية في حياة الامام الزهد الذي طغى على كل حياته، الزهد الذي يعني الاعراض عن كل ما في العالم في الوقت الذي يكون مالكا له باسره، الزهد الذي يرجح القناعة، ويجعل الصبر ذلولا خاضعا له امام المشاكل والصعاب.

(١) المعيار والموازنة ص ٢٣ ويقول عليه السلام في نهج البلاغة: هلك في اثنان محب غال ومبغض قال.

(٢) اذا صار الشخص شيعة يزداد حتى يرفض. رك: المعيار والموازنة ص ٣٣.

تحدّث جماعة عند عمر بن عبدالعزيز عن الزهّاد، وتساءلوا عن ازهد الناس فعّد بعضُ الحاضرين اشخاصاً من جملتهم ابو ذر، فقال عمر بن عبدالعزيز: «أزهد الناس علي بن ابي طالب عليه السلام»^(١).

كان الامام يجمع الفقراء حوله ويعاملهم برفق واحسان^(٢)، وفي كثير من الاحيان كان يأتي الى الصلاة ويخطب بالناس ولا زال ردائه الوحيد يقطر ماء^(٣) وهو على بدنه.

وبينما كان هو على رأس السلطة، والاموال الطائلة المتأتية من الضرائب المختلفة وخراج الاراضي الشاسعة تتدفق على خزائن بيت المال من كل صوب، كان هو يتناول ابسط الاطعمة، حتى قيل له: «ابالعراق تصنع هذا؟ العراق اكثر خيراً وطعاماً».

الا أن ذلك كان يُعدُّ من المناقب بالنسبة للامام^(٤). اذ كان يقول: «انا الذي اهنتُ الدنيا»^(٥).

وعندما كان يقسم بيت المال على المسلمين لم يكن يأخذ لنفسه شيئاً، وكان يعود الى داره خالي اليدين، حتى ان بعض الناس كان يتردّد هل يعتبره ازهد الناس أم أنّه^(٦).. فكان حقاً خير مصداقٍ لقوله: «خير القول ما صدّقه العمل»^(٧).

(١) المعيار والموازنة ص ٢٤٠.

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٢٤٠.

(٣) نفس المصدر السابق ص ٢٤١.

(٤) نفس المصدر السابق - ص ٢٤٩.

(٥) حياة الصحابة ج ٢ - ص ٣١٠.

(٦) الغارات - ج ١ ص ٥٥.

يقول اسود بن قيس: «كان علي عليه السلام يُطعم الناس بالكوفة الخبز واللحم وكان له طعام على حدة. فقال قائل من الناس لو نظرنا الى طعام امير المؤمنين ما هو؟ فأشرفوا عليه فاذا طعامه ثريده بزيت مكللة بالعجوة، وكان ذلك طعامه، وكانت العجوة تُحمل اليه من المدينة»^(٨).

ويقول عقبة بن علقمة: «دخلت على علي عليه السلام فاذا بين يديه لبن حامض آذنتني حموضته، وكسر يابسة، فقلت: يا امير المؤمنين أتناكل مثل هذا؟

فقال لي: يا ابا الجنوب رأيت رسول الله ﷺ يأكل أيبس من هذا ويلبس اخشن من هذا، (واشار الى ثيابه) فان أنا لم آخذ بما اخذ به خفت ان لا الحق به»^(٩).

وجاء عن عدي بن ثابت أنه قال: «اتي علي عليه السلام بفالونج فأبى أن يأكله»^(١٠).

واورد ابو اسحق الثقفي صفحات كثيرة من كتاب الغارات خصصها لذكر الامثلة الدالة على زهد علي في الملبس والمأكل والتعامل مع بيت المال وعدم الاسراف في القضايا الاقتصادية ورعايته لحدود الله بدقة.

لقد كانت شخصية الامام من السمو والرفعة حتى ان معاوية كان يشني عليه ايضاً في مجالسه الخاصة^(١١).

(٧) الغارات - ج ١ ص ٢٤٩.

(٨) انساب الاشراف ج ٢ ص ١٨٧ - ر. ك الغارات ج ١ ص ٨٥ - ٨٧ - ٨٨.

(٩) الغارات - ج ١ ص ٨٥.

(١٠) الغارات - ج ١ ص ٨٨.

(١١) ابن عدي - الكامل في ضعفاء الرجال - ج ٥ ص ٢٤ - ١٨.

يقول ابو سعيد الخدري: «حضر الرسول ﷺ جنازة احد الانصار، وقال: هل عليه دين؟ قالوا: بلى: فرجع الرسول ﷺ فقال له علي عليه السلام: انا اضمن دينه، فقال له النبي ﷺ: فك الله رقبتك كما فككت عن اخيك المسلم»^(١).

أجل هكذا كان عليّ يتصرف في ماله الخاص، ولم يكن مستعداً لاعطاء اقل مبلغ لا قرب شيعته ما لم يكن له بحق^(٢).

(١) الزمخشري، ربيع الابرار ج ٢ ص ٦١٩.

(٢) ربيع الابرار ج ٣ ص ٧٧.

الامام الحسن عليه السلام

قيل للحسن بن علي : «فيك عظمة . قال: لا بل عزة
قال الله تعالى : فله العزة ولرسوله وللمؤمنين»^(١)

ويدور الحديث عن مظلوم آخر من اهل بيت النبي ﷺ ، وهو المظلوم
الذي طالما تعرض الى ظلم التاريخ وعدم دقته ، اذ بقيت الخطوط العامة لسياسته
في فترة حكومته القصيرة واستشهاده محاطة بهالة من الغموض والابهام نتيجة
للدعايات المغرضة التي اشاعها الحكام الامويون اعداء الانسانية والاسلام
ودسأئس علماء السوء المأجورين او المغفلين .

ففي رواية ان امير المؤمنين عليه السلام اراد في يوم ولادة الحسن عليه السلام ان يسميه
(حرباً) لكن النبي عارضه وقال: ما شأنه والحرب ؟ هو حسن»^(٢).

(١) ربيع الابراج ٣ ص ١٧٧ .

(٢) ابن سعد - الطبقات الكبرى ، ترجمة الحسن بن علي . تراثنا العدد ١١ ص ١٢٨ .

ان استعمال مثل هذا التعبير قد يعرض شخصية علي عليه السلام للاستفسار من عدة جوانب ومن جملة ذلك انه :

لم يكن مقاتلاً شجاعاً بل كانت طبيعته ممتزجة بحب الحرب، وكان مبدئياً ذا شخصية ميّالة للعنف وتّسم بحب المخاطرة (كما نقل هذا الرأي عن الجاحظ).

انه لمن السذاجة حقاً ان تتصور ان الامام كانت له حقيقة مثل هذه الشخصية لأن عطفه وانسانيته التي اعطت لتاريخ البشرية جمالاً خاصاً لا تنسجم مع مثل هذه الاوصاف السقيمة حيث كان في ميدان الوغى محارباً شجاعاً لكنّه كان شديد التسامح والعفو مع عدوّه المهزوم، ويجلب للارامل واليتامى الطعام ويشاطرهم الحزن ويحمل همّهم و... وهذا من عجائب الخلق ان تجتمع في شخص واحد مثل هذه الصفات المتضادة ولا تتغلب على شخصيته صفة واحدة منها (فالجاحظ) وامثاله لم يتمكنوا من التخلّص من تأثير وجهة النظر التي وضعها بنو امية امام انظارهم، ولذلك لم يستطيعوا تقديم وصف صحيح عن شخصية كشخصية امير المؤمنين، خاصة وانهم قالوا انه تمسك بنفس الموقف ازاء تسمية الامام الحسين عليه السلام.

تربّى الحسن في حجر رسول عظيم كرسول الله ﷺ واب وام كعلي عليه السلام والزهراء عليه السلام وكان النبي يعتبره اخاه الحسين كأبنائه وكان يؤكّد على ذلك ايما تأكيد، ويتحدث عنه بمنتهى الصراحة بحيث لا يبقى هنالك ايّ مجال امام الدعايات^(١) المضادة لأهل البيت التي يبثّها ويروجّها ادعياء الخلافة كبني امية وبني العباس ولكي لا يتمكن محترفو السياسة هؤلاء من المساس او الاساءة الى

(١) العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي، الحياة السياسية للامام الحسن، ص ٢٧ وما بعدها.

اسمى واكوى الوشائج الروحية والنسبية التي تربط بين امير المؤمنين عليه السلام والحسين عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وسلم ولكي لا يتمكن امثال هؤلاء من اخراج محبة اهل البيت من قلوب الناس. فحضوره واخوه الحسين في المباهلة واستعمال كلمة (ابناءنا)^(١) بشأنها يعتبر وثيقة فخر واعتزاز اخرى لهما، وشهادة تعكس قداستهما الذاتية.

ونزول آية التطهير بشأنهم -النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين- تأكيداً آخر يثبت نفس تلك الحقيقة ويؤكدها، كما كان الامام يؤكدُها ايضاً^(٢).

واما من حيث الشكل فانه كما ذكر انس بن مالك، لم يكن أحد من اهل البيت اشبه منه برسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

وقد استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الطف وارق التعابير في مدحه، وكان يحبه الى درجة كبيرة حتى ان اعداء اهل البيت كانوا اذا تذكروا معاملة رسول الله له تملّكهم احترام عميق له وبان عليهم الخضوع امامه.

يقول عمير بن اسحق: «رأيت أبا هريرة التقى بالحسن بن علي عليه السلام فقال له: اكشف لي بطنك حتى أقبل حيث رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل منه، قال: فكشف عن بطنه فقبله»^(٤).

هذا السلوك من ابي هريرة وامثاله لا يُعتبر امراً غريباً اذا اخذنا بنظر

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) ابن سعد - الطبقات ص ١٦٧؛ الاربلي - كشف الغمة ج ١ ص ٥٣٨.

(٣) تاريخ ابي زرعة الدمشقي، ج ٢ ص ٥٨٧.

(٤) مسند احمد - ج ٢ ص ٤٢٧ و ٤٤٨؛ والطبراني في المعجم الكبير ج ٣ ص ١٩ رقم ٢٦٩٠.

الاعتبار الحب الذي كان يبديه له النبي .

فقد قال عنه النبي ﷺ: «لو كان العقل رجلاً لكان الحسن»^(١).

ولم يكن تكريم الرسول ﷺ لهذين الأخوين ناتجاً عن القرابة النسبية، بل ان احترام النبي ﷺ ومداراته للحسن على اعين الناس من على المنبر وفي وسط الصلاة (عندما كان الحسن في دور الطفولة صعد على ظهر النبي اثناء الصلاة وهو في حالة السجود فصر النبي حتى نزل من على ظهره من تلقاء ذاته) كان له هدف خاص، هو اثبات احقية الحسن واهل بيته في خلافة النبي وقيادة الامة الاسلامية من بعده .

ولما كان الامام الحسن عليه السلام يخاطب من على المنبر بعد استشهاد امير المؤمنين عليه السلام وكان بحاجة الى محفز يحث الناس على بيعته، قام رجل من قبيلة الازد وصاح: «رأيت رسول الله ﷺ واضعاً الحسن في حبوته وهو يقول: من أحبني فليحبته وليبلغ الشاهد منكم الغائب ولولا عزمة رسول الله ﷺ ما حدثت احداً شيئاً ثم قعد»^(٢).

من المؤكد أن هذا الحديث كان احد الدوافع وراء مبايعته الا ان الناس قد قصّروا فيما بعد في الدفاع عنه لأسباب سنشير اليها في محلّها^(٣).

وبغض النظر عن محبة امير المؤمنين عليه السلام للامام المجتبي باعتباره ولده، فهو

(١) فرائد السمطين - ج ٢ ص ٦٨ .

(٢) البخاري - التاريخ الكبير ج ٣ ص ٤٢٨ ، مسند احمد بن حنبل ج ٥ ص ٣٦٦ .

(٣) الروايات الواردة في فضله كثيرة ولا داعي لذكرها هنا بأجمعها، يمكن مراجعتها لمن يشاء في مظانّها .

كان ينظر اليه والى اخيه على أن في بقائها امتداداً لنسل رسول الله ﷺ، فلم يكن يسمح في الحروب بأن يتعرضوا لظرف يهدد حياتهما بالخطر، في وقت كان هو يخوض الحرب في قلب جيش العدو^(١).

المشاركة في حروب الجمل وصفين والنهروان

من المشاهد المهمة التي اقترنت بالظهور السياسي للامام في المجتمع هي مشاركته الفعالة في حرب الناكثين. فقد بعثه امير المؤمنين عليه السلام كممثل عنه الى الكوفة^(٢) لكي يعلم الناس هناك بخروج الناكثين على حكومة الحق ويدعوهم للمشاركة الفعالة في تصدي امير المؤمنين لاصحاب الجمل. وأول ما قام به الامام انه عزل ابا موسى الاشعري الذي كان يثبط الناس عن قبول دعوة امير المؤمنين عليه السلام بحجة حقن الدماء. ثم القى عليه السلام خطبة مثيرة اججت مشاعر الناس فحشد عشرة آلاف رجل من اهالي الكوفة للمشاركة في الحرب.

وفي صفين كان الامام الحسن عليه السلام ايضاً احد المقاتلين الذين ابدوا نشاطاً منقطع النظير في إثارة الناس ضد القاسطين. فقد خطب مرة بجيش الكوفة يحثهم على الحرب والثبات فيها حيث قال فيها:

«فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده فإنه قد حضر، ولا تخاذلوا
فأن الخذلان يقطع نياط القلوب»^(٣).

ورغم هذه المواقف الصريحة من قبل الامام في مقابل عثمانيي الجمل وصفين

(١) ر.ك. ربيع الابراج ٣ ص ٥٣٧.

(٢) نصر بن مزاحم -، وقعة صفين ص ١٥.

(٣) نصر بن مزاحم - وقعة صفين - ص ١١٤.

فان المؤرّخين والمحقّقين الذين سعوا في جعل الأب والابن بمواجهة بعضهما الآخر وتشوية موقف احدهما من خلال التشكيك بموقف الآخر، حيث سعوا الى اظهار سياسة الامام وكأنها معارضة للسياسة التي كان ينتهجها الأب، وذلك لاطهار الابن شخصية ضعيفة من جهة، والادعاء بأن الأب شخص سَفّاح مثير للحروب من جهة اخرى. فزعموا أنّه أتهم اباه بالاشتراك في قتل عثمان^(١)، في حين أن جميع الشواهد التاريخية تصرّح بان الامام الحسن عليه السلام أخذ الماء الى عثمان بامر من ابيه، وانه قد ذهب برفقة اخيه الحسين عليه السلام وعدد من ابناء كبار الصحابة لحماية عثمان والوقوف امام داره لمنع الناس من الهجوم عليها - كما كتبوا ذلك هم انفسهم - وان أباه عاتبه لعدم تمكنه من منع ازدحام الناس الذي نتج عنه مقتل عثمان.

ان التلاعب في تاريخ مثل هذه الشخصيات - الناشئ من الثقافة الاموية الجاهلية - قد استغل هنا في قضية الصلح مع معاوية، اذ حاولوا ومن خلال نقل جُمْلٍ كاذبة وتعمّد الكثير من التحريف والتزوير، والاستفادة من ذلك في سياق نفس التحليل الذي مر ذكره.

وسنشير خلال هذا البحث الى ذلك الصلح المفروض ومظلومية الامام فيه.

كما انهم استندوا الى مجموعة من الجمل والاقوال التي نسبوها الى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل: «الحسن مني والحسين من علي»^(٢) وسعوا من خلالها الى وضع الامام الحسن عليه السلام الى جانب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووضع الحسين عليه السلام - الذي وقف بوجه حكومة يزيد الاموية وصنع ملحمة كربلاء الخالدة - الى جانب الامام علي عليه السلام الذي واجه مجرمًا كبيراً في تاريخ الانسانية، هو معاوية. وبهذا يلوّحون الى ان

(١) ر. ك. البلاذري، انساب الاشراف ج ٢ ص ١٢ تحقيق المحمودي، طبعة بيروت.

(٢) ذخائر العقبى ص ١٣٢.

الخط السياسي للنبي ﷺ يختلف - بل قد يتعارض - مع الخط السياسي الذي سار عليه علي عليه السلام! وكتبوا ايضاً: ان الامام الحسين قال لأخيه: «يا ليت قلبي كان لك ولسانك لي»^(١).

ولابد أن القارئ الكريم يدرك ان هذه الجملة ايضاً تظهر بُعداً آخر من النظرة المنحرفة عن الامام الحسن عليه السلام.

وسنرى من خلال مواصلة البحث بأن الابن كان في نفس المسار الذي انتهجه الأب، ولكنه اضطر - لنفس الاسباب التي جعلت الأب في السنة الاخيرة من حكومته يشاهد تجاوزات معاوية على العراق والحجاز واليمن ولا يبدي اي رد فعل تجاهها - الى الكف عن المطالبة بالحكم والتوجه الى المدينة وحيداً.

ومن جهة اخرى كان من الضروري اعطاء فرصة لمعاوية الذي حصل على بعض الواجهة نتيجة الدعاية والضجة المفتعلة التي اثارها اعداء امير المؤمنين عليه السلام لكي يتولى زمام الامور كحاكم بلا منازع وليكشف بعد ذلك القناع عن وجهه الاموي الكريه، ويعلم المسلمون مدى خطورة هذا العدو الذي يتباكى على الاسلام ويتظاهر بالحرص على ادارة البلاد وراحة العباد، وانه لا يقل خطورة عن شخصية ابي سفيان الذي كان يشكل عائقاً امام انتشار الاسلام واقامة دولته، والاحداث المؤلمة التي احدثها للاسلام والمسلمين مثل بدر وأحد...

مسؤولية الامامة

استشهد امير المؤمنين عليه السلام في وقت كانت تمر فيه الكوفة باصعب الظروف.

(١) الاربلي، كشف الغمة، ج ٢ ص ٢٤٣.

فرغم ان اهل الكوفة انتصروا على اهل البصرة بعد منافسة طويلة فيما بينها، الا انه لم يمضِ وقت طويل حتى تعرضوا للهزيمة والمهانة في صفين رغم ما ابدوه من شجاعة فائقة، ولم يكن بينهم وبين النصر آنذاك سوى خطوة واحدة ولكنهم اغتروا بخدعة العدو. فكانت الهزيمة امام اهل الشام وهي البلاد التي بقيت خصماً منافساً للكوفة مدة ليست بالقصيرة. فبعد أن كانت الكوفة تحارب الشام وعلى رأسها معاوية (رمز الجاهلية) من اجل الاسلام الحقيقي وتطبيقه اصبحت بعد مدة تقبل وجودها بل وتتقبل تفوقها ايضاً وذلك بسبب الضعف الذي اصابها.

وكانت تلك بداية لمرحلة جديدة، فقد ظهرت نتيجة الضغط النفسي والشعور بالحقارة عند اهل الكوفة فرقة منحرفة ومعاودة تدعى بالخوارج، وهم الذين اصرروا على الامام بوجوب قبول التحكيم الذي اقترحه معاوية، الا أنهم عندما رأوا انعكاسات عملهم، جعلوا امير المؤمنين عرضة للانتقادات والاعتراضات والتهم الغادرة، فكانت النتيجة ان واجه بعضهم بعضاً وتقاتلوا بكل ما لديهم من اسلحة، وبهذا نزلت ضربة أخرى اخلت بالانسجام الذي كان يسود الكوفة.

وفي مثل هذه الظروف فقدت الكوفة قدرتها تماماً على الاستمرار في الصراع، وكلما الحّ عليهم امير المؤمنين عليه السلام بضرورة التهيؤ لمقاتلة معاوية واجتثاث هذه الغدة السرطانية من جسد الاسلام المقدّس، لم تظهر منهم اية رغبة بل لم يكونوا مستعدّين للدفاع حتى عن العراق ايضاً. فقد كان ولاية معاوية وقادة جيشه يغيرون على العراق باستمرار، لكن اهل الكوفة لم يكونوا يبذلون اي رد فعل بازاء ذلك. فلا نصائح الامام ولا تقريره اثر فيهم وأعادهم الى رشدهم، لأن تراخي اهل الكوفة وسذاجتهم هو الذي اوصلهم الى هذه الدرجة من الضعف

والانهيار النفسي وشلّهم عن القيام بأيّ عمل.

وفي مثل هذه الظروف المريعة في الكوفة استشهد الامام. ورغم ان مظلومية هذا الاستشهاد قد اثار عاصفة في المجتمع. الا أن الكوفة وبسبب اختلاف ولا ابالية اهلها لم تتأثر كثيراً بتلك العاصفة. وصار معاوية وجيش الشام كالكابوس الذي سلب من اهل العراق قلوبهم وعقولهم، حتى انّ الجسد الطاهر لأمير المؤمنين (عليه السلام) دُفن سرّاً، وظل مكان دفنه مخفياً عن الجميع الى أن كشف أئمة الشيعة عنه، ودلّوا الناس عليه.

لقد اثارت تلك المظلومية موجة بين اهل الكوفة، فالعراق وان اصبح في حالة شديدة من الضعف الاّ انه لم يخضع لسلطة الشام بهذه البساطة، وكان يعتبر ذلك عاراً عليه لا يمكنه الرضوخ له بسهولة. لذا فانهم اجتمعوا وشكلوا قوّة لفتت الانظار اليها، ثم راح اهل الكوفة يبحثون عن قائد يبايعونه حتى ينفذ البرامج التي استنّها امير المؤمنين (عليه السلام)، وينتهج نفس السياسة التي كان قد ابتدأها. ولم يكن من احد يمتلك مؤهلات مواصلة هذا الطريق سوى ابن الامام علي (عليه السلام)، فبايعوه واشترطوا البيعة له بمواصلة الحرب ضد معاوية. وحيث أن الامام كان قد جرّهم في السابق فقد قبل البيعة بشرط ان يعمل بما يرى فيه الصلاح، وان لا يرفع احد عقيرته بالاعتراض حتى وان اضطرته الظروف لقبول الصلح مع معاوية.

وفي هذه المرّة ايضاً اتخذ اهل العراق قرارهم بحزمٍ وجدّ في الوهلة الاولى ولكنهم سرعان ما تراجعوا عن قرارهم كما هو شأنهم دائماً وتقبلوا وبكل بساطة ذلك العار الذي أبوا قبوله.

ولو تقدّمنا قليلاً الى الامام لرأينا أن مبايعة الامام قد تمّت بسبب ما للناس من معرفة به في قيادة المجتمع، وفضلاً عن ذلك فالدافع الاساسي الكامن وراء

تلك البيعة هو التأكيدات المتكررة من قبل الرسول ﷺ والامام علي عليه السلام بشأن امامته وجدارته بالقيادة.

فقد كان رسول الله ﷺ قال عنه وعن اخيه: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»^(١).

وامير المؤمنين عليه السلام عينه خليفة له من بعده، كما قال هو في رسالة بعثها الى معاوية: «فان امير المؤمنين عليه السلام نزل به الموت وولاني هذا الأمر من بعده»^(٢).

ولما دعا عبدالله بن عباس الناس الى مبايعته قال: «هذا ابن بنت نبيكم ووصي امامكم فبايعوه»^(٣).

واستند جماعة من وجهاء الكوفة عند ارادة مبايعته الى كونه وصي ابيه وخليفته وقالوا له: «أنت خليفة أبك ووصيته، ونحن السامعون المطيعون»^(٤).

الاقوال المذكورة فيما سبق هي مجرد أمثلة للشواهد التي تدل على أن امامة الحسن انما كانت من قبل ابيه واعتباره وصياً له^(٥).

ومنذ اليوم التالي للبيعة، باشر الامام مهمته الاساسية في اعداد الناس لمواجهة القاسطين.

(١) الأربلي، كشف الغمة ج ٢ ص ١٥٩، الشيخ المفيد، الارشاد ص ٢١٠.

(٢) الاصفهاني مقاتل الطالبين ص ٥٥. المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٢.

(٣) الاصفهاني، مقاتل الطالبين ص ٣٤، الطبرسي اعلام الوری ص ٢٠٩.

(٤) العلامة المجلسي، بحار الانوار ج ٤٤ ص ٤٣.

(٥) انظر كتاب (الحياة السياسية للامام الحسن) تأليف السيد جعفر مرتضى العاملي ص ٤٧ وما بعدها.

رغبة الامام القاطعة في محاربة معاوية رغم الموقف الضعيف لاهل العراق

كانت اهم قضية بالنسبة للامام واهل العراق هي الموقف ازاء معاوية ومحاربه. فانفصال الاقاليم الاسلامية عن بعضها لم يكن له مفهوم آنذاك، ووحدة الاراضي الاسلامية كان امراً مسلماً به في رأى كل مسلم. فلم يكن بإمكان العراق الانفصال عن الشام، ولا الشام عن العراق أو مصر والحجاز، لذا كان من المحتّم حل مسألة الحاكمية المطلقة على البلدان الاسلامية.

فمن الناحية الدينية، كان معاوية في نظر الامام وشيعته عنصراً فاسداً تجب ازاحته عن سدة الحكم، وهو العمل الذي كان يعتبره امير المؤمنين عليه السلام اهم واجب امامه منذ توليه لزام امور المسلمين حيث جعله في رأس قائمة براجه. فقد كان الامام علي عليه السلام يخيّر المسلمين ما بين محاربة معاوية او الكفر بما انزل الله. ولا بد ان تكون هذه السياسة مثلاً يُحتذى به بالنسبة لابنه وشيعته ايضاً، ومثل هذا التكليف انما يجب على الامام انجازه فيما لو كانت لديه القدرة والظروف المناسبة للقيام به.

ومن ناحية الخلافة فان المهاجرين والانصار -من وجهة العرف السياسي المقبول يومذاك- هم الذين كان عليهم ان يعيّنوا الخليفة. وقد صوّتوا لعلي عليه السلام. وكان اكثر الانصار وجماعة من المهاجرين قد بايعوا الامام الحسن عليه السلام الذي كان وقتها في الكوفة. لذا كان معاوية يُعتبر من الناحية العملية باغياً. واما من ناحية المفاهيم والمعايير السائدة والمقبولة آنذاك لم تكن في يده أية ورقة رابحة لذا كان ينبغي تحديد مصيره.

اضافة الى ذلك، فان اهل العراق كانوا على علم بان معاوية بصدد الهيمنة على منصب الخلافة وان الاحوال والاضاع السائدة حينها لم تكن في صالحه،

وكان يتحّم عليه القيام بعدّة خطوات في هذا المجال. وتصور مثل هذا الأمر كان مرفوضاً بشدة من قبل اهل العراق، ولا ريب ان انتصار اهل الشام على الكوفة كان يعد هزيمة بالنسبة لاهل الكوفة، بل ويعني تعرضهم للانتقام على يد اهل الشام.

ومثل هذه الامور أدّت الى ان تتعقد حكومة الامام الحسن عليه السلام ومنذ يومها الأول على موضوع الحرب لاسيما وان بعض الذين بايعوه كانوا من الخوارج وكانوا يضرون بشدة على الحرب، ويقولون بوجود علاقة لا تقبل الانفصام بين الحكومة والحرب.

ورغم أن الامور كانت تسير على ما ينبغي حسب الظاهر، إلا أن باطن المجتمع -وللاسف- كان يعاني من متاعب خاصة ترافقها ميول انحرافية في الأبعاد الفكرية والاجتماعية. ولهذا السبب لم يكن يمتلك القدرة الكافية لاتخاذ قرار حاسم بشأن الحرب. فقد كان هذا الظاهر والباطن المتناقض يسير في اتجاه معاكس لبعضه الآخر اذ بنفس السرعة التي بويع فيها الامام الحسن عليه السلام تمت مبايعة معاوية ايضاً بسرعة اكبر وعلى نطاق أوسع.

ومنذ الوهلة الاولى لمباشرة الامام الحسن عليه السلام لمهام حكومته، ورغم معرفته التامة لطبيعة وماهية معاوية، إلا انه بدأ يتعامل مع الامور بما يتطابق وسياسته الدينية فابتدأه بدعوته إياه للكفّ عن التجاوز والعدوان واعلان الطاعة لحكومته الشرعية.

واشار الامام في نفس تلك الرسالة الى اختلاف الامة حول مسألة الامامة بعد رحلة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وانه هو وشيعته يعتبرون الحكومات السابقة غير شرعية وان مثل هذا المنصب حق محصور باهل بيت النبي، وانهم انما سكتوا عن

هذا الامر فلمصالح خاصّة، وان عمل معاوية هذا لا يعدو ان يكون تجاوزاً على الحق البديهي لاهل البيت وبعد اظهار العجب من هذا التجاوز طلب اليه اعلان البيعة وهدّده ان هو لم يبايع ولم يدخل في الطاعة فانه سيتوجه اليه ويقاتله بكل ما لديه من امكانيات.

وكتب معاوية رداً على رسالة الإمام، واستند في رسالته الى ارائه الجاهلية وتعلل فيها بكبر سنّه وانه ادق رؤية من الامام الحسن في المسائل السياسية ودعاه الى بيعته واذاف في ختام رسالته: «إنّ امري وامرك شبيهه بامر ابي بكر وأمركم بعد وفاة رسول الله ﷺ» (١).

وكان من الطبيعي أن لا ينتهي مثل هذا الاختلاف المتجذّر بمثل هذا الاسلوب بل كان لابد من مواجهة حاسمة تتقرر على ضوئها الامور في ساحة الوعى. لذلك باشر الامام الحسن عليه السلام بعزم راسخ باستجماع وتحشيد قواه لمواجهة القاسطين. وكتب معاوية الى عمّاله في الولايات وطلب فيها منهم تزويده بالمقاتلين لكي يستغل الاوضاع المضطربة في العراق ويهجم على الكوفة ويسيطر عليها ويسقط حكومة الامام الحسن عليه السلام. وكان لدى معاوية فئة كبيرة ومنظمة من العيون والجواسيس موزّعة في جميع ارجاء البلاد الاسلامية، وكان يحصل من خلال هذه الشبكة قطعاً على المعلومات والاخبار الدقيقة عن اوضاع العراق.

حركة اهل العراق البطيئة لمحاربة القاسطين:

انّ اهل الكوفة وان بايعوا الامام الحسن عليه السلام بُعيد استشهاد الامام علي عليه السلام

(١) البلاذري، انساب الاشراف ج ٢ ص ٣١ طبعة المحمودي.

واضطراب الاوضاع في تلك الأيام خوفاً من هجوم جيش الشام، لكنهم صنعوا به ما صنعوه من قبل بالامام علي عليه السلام حيث التزموا الجلوس في بيوتهم رغم تحذيراته المتكررة وتقرّيعه المتوالي لهم، ولم يبدر منهم اي رد فعل مناسب. فعندما دعاهم الامام الحسن عليه السلام للاستعداد لمحاربة معاوية لم يلبّ احدٌ نداءه^(١) حتى توجه عدي ابن حاتم الى المعسكر بمفرده فاضطرت جماعة من قبيلة طي، والقبائل الاخرى الى اللحاق به.

ثم بعد العملية الاعلامية الواسعة والخطب المتكررة التي اوردها الامام، وبعد ذهابه الى النخيلة ورؤيته تقاعس اهل الكوفة، وبعد عودته الى الكوفة اجتمع اليه ما يقارب ١٢ ألف رجل في معسكر النخيلة فقط^(٢).

وقد كتب بعض المؤرخين: «بعد استشهاد امير المؤمنين عليه السلام بايعه اربعون الف رجل على محاربة معاوية، فاشتبه البعض الآخر عندما تصوّر ان هذا الرقم يمثل عدد المقاتلين الذين احتشدوا في معسكر النخيلة»^(٣).

والواقع هو ان هذا النقل مبالغ فيه ولا يمتاز بكثير من الصحة والدقة.

يكفي هنا القاء نظرة سريعة على كلمات الامام عليه السلام وتقرّيعه المتكرر لاهل الكوفة وتاكيد على وجوب التحشد من جديد، والهجوم على الشام لانهاء فتنة معاوية. لنرى كيف أنهم واجهوا هذه القضية المصيرية بعدم الاكتراث، وتجنّبوا تلبية نداء الامام، ولم يبدوا اي موقف ايجابي ملموس. واذا افترضنا صحّة ذلك

(١) ابو الفرج الاصفهاني - مقاتل الطالبين - ص ٣٩.

(٢) اليعقوبي - تاريخ ج ٢ ص ٢١٤. الاصفهاني - مقاتل الطالبين ص ٤٠. ابن عساكر - تاريخ دمشق ص ١٧٦.

(٣) الطبري - تاريخ - ج ٢ ص ٩٤. ابن الاثير ج ٢ ص ٦١.

ايضاً فلا يوجد دليل على حضور مثل هذا العدد الى جانب الامام المجتبى ، لا سيما وان المؤرخين قد اشاروا الى أن ١٢ ألف رجل حضروا هناك .

واختار الامام عبيدالله بن عباس لقيادة الجيش ، وقيس بن سعد بن عبادة كمعاونٍ له وارسله لمقاتلة ما يربو على ٦٠ ألف مقاتل من جيش الشام ، واقام هو في المدائن ليحشد اعداداً اخرى من المقاتلين .

وبما ان الامام وجيشه كانوا في معزلٍ عن بعضهما ؛ فقد تمكن معاوية من بث الاشاعات المضلّة في كل منهما وجعل احدهما يسيء الظن بالآخر . فقد اشيع بين جيش الامام ان الامام قد تصالح ، وفي خضم احتدام مثل هذه الاقاويل والاشاعات دعا معاوية قادة جيش الامام للالتحاق به واستلام جائزة قدرها الف درهم^(١) .

فاضطرب جيش الامام لهذه الاشاعة ولا سيما مع وجود الظروف النفسية السيئة التي كان يعاني منها ، وانعدام الدوافع المحفزة على القتال لديه ، فانحدر صوب معاوية . وبقي فقط اربعة آلاف رجل الى جانب قيس بن سعد وثبتوا في وجه معاوية .

وفي هذه المرّة حاول معاوية خداعه ، لكن قيساً كان اكثر وعياً من ان يُخدع بمثل هذه الاشاعات أو ينهار امام مثل هذه الاغراءات التي عرضها عليه معاوية . وإضافة الى التأثير الكبير الذي تركه هروب جيش الامام صوب معاوية فان رسله الذين تشرفوا بمقابلة الامام في المدائن وطلبوا منه الاستجابة للصالح وواجههم بالرفض قد اشاعوا - في طريق عودتهم - بين الناس بأن الامام قد قبل

(١) الشيخ المفيد - الارشاد ص ١٧٠ . ابن ابي الحديد شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ٤٢ .

بالصلح، وقد جعلت هذه الاشاعة الكاذبة^(١) الناس في حيرة من امرهم وجعلتهم في اتم الاستعداد لتقبل معاوية.

وفي هذه الاثناء دارت على الألسن اشاعة^(٢) تفيد بقبول قيس بن سعد للصلح وهو قوة المقاومة الوحيدة المتبقية في مقابل معاوية، وكانت هذه بمثابة الضربة القاضية وجّهت الى الوضع النفسي المنهار في الكوفة، وقضت على رمق المقاومة النهائي لديه.

وفي مقابل هذه الاجواء وفي مثل هذه المواقف الخيانية لاهل العراق لم يجد الامام بدءاً من اعتزال الحكومة. فهو لم يعد قادراً على القيام بأي عمل مؤثر في الوقت الذي لم يكن من يصّر من الاصحاب على محاربة القاسطين سوى عدد ضئيل فقط. ولذلك عندما تقدّم معاوية الى الامام بطلب الصلح عدّة مرّات، اضطر الامام الى قبول ذلك.

الصلح المفروض من قبل معاوية وتحليل أسبابه

ان سلوك اهل العراق مع الامام علي عليه السلام في أواخر فترة حكمه، يعكس روحيتهم الضعيفة وعدم مقاومتهم وصمودهم في حرب طويلة الامد، وخاصة في حرب لا غنائم فيها، وتدور حولها شبهات وتأولات منحرفة كان يثيرها اعداء امير المؤمنين عليه السلام بين الناس وتكررت نفس تلك السلوكية مع الامام الحسن عليه السلام ايضاً في فترة حكومته. فقد اظهر اهل الكوفة انهم لا يريدون قتال معاوية، وكان

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢ ص ١٤.

التحاق القبائل^(١) بمعاوية الواحدة تلو الاخرى قد اثبت ان ليس بإمكان الامام الاتكال عليها، والقيام بعمل عسكري ضد معاوية.

ومن الواضح أنّ اي شعب يتعرض لحالة كهذه من الضعف لا يمكن لقائد ذلك الشعب القيام باي عمل فاعل. وسنحاول هنا نقل اسباب ودوافع هذا الصلح المفروض استناداً الى رأي الامام الحسن عليه السلام نفسه. فقد تطرق الامام الحسن ذات مرة الى سلوك اهل الكوفة مع ابيه وقصة مبايعته هو شخصياً فقال:

«سمعت اليوم ان اشرافكم ذهبوا الى معاوية وباعوه وهذا يكفيني. فأنتم الذين اكرهتم ابي يوم صفين على الحكمين»^(٢).

وقال في موضع آخر: «والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني اليه سلماً»^(٣).

وللامام ايضاً تعابير أخرى يشير فيها الى اهل العراق واصفاً آياهم بالناس الذين لا يمكن الوثوق بهم ويشير فيها ايضاً الى تجارب ابيه المريعة مع الكوفة^(٤).

وقد قام الامام المجتبي بدوره بحملة اعلامية شاملة لحثّ الناس على قتال العدو لكن نفوذه وتأثيره على الناس (على العكس مما قاله بعض المؤرخين) كان اضعف من ابيه. فاذا كان الامام علي عليه السلام غير قادر على اثارة الناس وتحفيزهم

(١) ابن الاثم - الفتوح - ج ٤ ص ١٥٧ طبعة الهند. ابن ابي الحديد ج ١٦ ص ٤٣. البلاذري - الانساب ج ٢ ص ٢٩

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الطبرسي، الاحتجاج ج ٢ ص ٩٠، العلامة المجلسي، البحار، ج ٤٤ ص ٢٠، البحراني، عوالم العلوم ج ١٦ ص ١٧٥.

(٤) ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٠٥.

على الحرب، فكيف يمكن للامام الحسن القيام بهذا العمل؟ وهل كان يجوز للامام اللجوء الى اساليب الخداع والحيلة لاعداد الناس لمحاربة القاسطين؟

لقد اشرنا قبل هذا^(١) خلال شرحنا لخصائص امير المؤمنين عليه السلام انه ما كان يريد احراز النصر عن طريق الجور. فلو اراد هذان الرجلان العظيمان حشد الناس للحرب من خلال اساليب الاستبداد والقهر والتهديد فقد كان بميسورهما، ولكنهما لم يريدوا فعل ذلك.

فالْحَرْبُ قضية تقوم على دعامتين: اجازة القائد، وموافقة الناس. ولذا نجد النبي صلى الله عليه وآله رغم ما كان يتمتع به من قبولٍ اجتماعي قد ترك قرار الحرب في معركتي «بدر» و «أحد»^(٢) الى رأي الناس ومشورتهم. وعندما رأى الامام المجتبي ان الناس لا يميلون الى الحرب حتى ان ثلثي الناس الذين كانوا يدعون الصمود الى آخر لحظة التحقوا بمعاوية ليلاً اختار الصلح. اذ ما الذي يمكن للامام ان يفعله إذا كان الناس لا يريدون الحرب ولا يريدون اي حماس بشأنها؟

لقد كان الامام نفسه راغباً في الحرب، الا ان ثقل الحرب ينبغي ان تحمله اكتاف الناس. ولما لم يكن الناس راغبين في الحرب، ولا قادرين على ادراك فلسفتها ومبانيها الفكرية في تلك الظروف المسمومة التي اوجدها معاوية وطبوله الدعائية الاموية، فلا يمكن للقائد طبعاً القيام بأي عمل. وللامام المجتبي عليه السلام كلام جميل وبلغ في هذا المجال يحل فيه ذلك الموضوع افضل تحليل فقد قال:

«انا والله لا يثنيانا عن اهل الشام شك ولا ندم، وانما كنا نقاتل اهل الشام

(١) ر. ك. الحياة الفكرية للامام علي ع في الصفحات السابقة.

(٢) العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من السيرة ج ٣ ص ١٤٥.

بالسلامة والصبر، فشيبت السلامة بالعدواة، والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم الى صفين دينكم امام دنياكم واصبحتم اليوم ودنياكم امام دينكم. الا وقد اصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره. واما الباقي فخاذل واما الباكي فثائر. الا وان معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة. فان اردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الى الله عزوجل بظبي السيوف، وان اردتم الحياة قبلناه واخذنا لكم الرضى، فناداه الناس من كل جانب البقية البقية وامضى الصلح»^(١).

يتضح من الكلام السالف ذكره بأن الامام كان يؤكد على وجوب الحرب ولم تكن قضية حقن الدماء مطروحة باي شكل من الاشكال الا اذا افترضنا ان اراقة الدماء في مثل هذه الظروف لا تتطوي على النتيجة المطلوبة. والامر المسلم به هو ان المانع من نشوب الحرب والدافع نحو قبول الصلح كان ارادة الناس التي كانت تمنع الامام من القيام باي عمل عسكري ضد القاسطين.

وقد اشار الامام الى هذا الموضوع ضمن تحليله لقضية الصلح فقال: «اني رأيت هوى عظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب فلم أحب أن احملهم على ما يكرهون»^(٢).

وهذا تعبير آخر عن نفس ذلك الامر الذي اشار اليه امير المؤمنين عليه السلام

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ٤٠٦، ابن عساكر نفس المصدر ص ١٧٨، ابن الاثير، اسد الغابة ج ٢ ص ١٤، ابن الجوزي، تذكرة الخواص ص ١٩٩، المجلسي البحار ج ٤٤ ص ٢١، البحراني عوالم العلوم ج ١٦ ص ١٧٩.

(٢) الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٢٢٠.

مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ^(١) وهو مبدأ اساس وثابت في التعامل السياسي للقائد مع جماهير الامة، ويقول ايضاً في موضع آخر: «والله إِنِّي سَلَمْتُ الأَمْرَ لأنِّي لم اجد انصاراً ولو وجدت انصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيننا وبينكم»^(٢).

ووردت ايضاً في اقوال الامام التي يدافع فيها عن موقفه ازاء المعارضين عليه، نقطة أخرى تلفت الاهتمام الا وهي ان هذا الصلح انما قُبِلَ من أجل المحافظة على بقايا الشيعة، فخواص شيعة امير المؤمنين عليه السلام استشهد أغلبهم في معارك الجمل وصفين والنهروان وبقيت منهم ثلة قليلة فقط. وان وقعت حرب جديدة - ومع الاخذ بنظر الاعتبار ضعف اهل العراق - فستلحق بالامام الحسن وشيعته خسائر لا تعوّض. لأنّ معاوية والحال هذه سيبالغ في قمعهم. اما الصلح فبماكانه الابقاء عليهم الى أن تتهيا ظروف افضل في مستقبل، واذا تقرر في يوم ما اراقة دمائهم فينبغي ان يعطي ذلك مردودات ذات فائدة ويؤدي الى خلق تيار مؤثر في حركة التاريخ.

لنتأمل هنا كلام الامام عليه السلام الذي واجه به اعتراضات بعض اصحابه: «ما اردت بمصالحتي معاوية الا أن ادفع عنكم القتل عندما رأيت تباطؤ اصحابي عن الحرب ونكولهم عن القتال»^(٣).

وتطرق في حديث آخر الى هذا الموضوع فاشار فيه الى ضرورة الصلح في ظل وجود بعض الظروف، فذكر صلح الحديبية كشاهد على كلامه فقال: «ولولا

(١) ابن ابي الحديد - شرح نهج البلاغة ج ١١ ص ٢٩.

(٢) العلامة المجلسي - بحار الانوار ج ٤٤ ص ١٤٧.

(٣) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٢١.

ما اتيتُ لما ترك من شيعتنا على وجه الارض احد»^(١).

وقال في مقابل اعتراض مالك بن حمزة: «يا مالك لا تقل ذلك، لما رأيتُ الناس تركوا ذلك الا اهله خشيت أن تجتثوا عن وجه الارض فاردت أن يكون للدين في الارض ناع».

فلو وقعت للامام الحسن في مثل هذه الظروف حرب فانها ستنتهي قطعاً بضرره وضرر خاصة اصحابه، وحتى الامام امير المؤمنين نفسه اصغى مستعداً للكف عن الحرب مع معاوية عندما تعرض لمثل هذه الظروف.

نورد فيما يلي مقطعاً من كلامه الموجّه الى فئة من المطالبين بمواصلة الحرب:

«يا قوم قد ترون خلاف اصحابكم وانتم قليل في كثير ولئن عدتم الى الحرب ليكوننّ اشدّ عليكم من اهل الشام، فاذا اجتمعوا واهل الشام عليكم افنوكم. والله ما رضىته ولا هويته ولكني ملّْتُ الى الجمهور منكم خوفاً عليكم»^(٢).

وكما تلاحظون فان امير المؤمنين عليه السلام نفسه قد اشار في مثل هكذا ظروف الى موضوع الحفاظ على الشيعة، وذكر أنّ احد الاسباب في قبول التحكيم المفروض هو ازالة التهديد عن اصحابه المقربين.

وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها بعض رواة الاخبار التاريخية لدس اشاعة معارضة الامام الحسين عليه السلام لاختيه في صفحات التاريخ، فانه على العكس

(١) البحراني - عوالم العلوم - ج ٣١ ص ١٧٤.

(٢) البلاذري - انساب الاشراف - ج ١ ص ٣٣٨ ط المحمودي . محمد باقر المحمودي - نهج السعادة ج ٢ ص ٢٦٨.

كان يعتقد بصحة واستقامة الطريق الذي سلكه اخوه. وأشار في مواضع متعددة الى أن أي عمل آخر سوى ما قام به اخوه لن يثمر عن شيء، وكلام الامام الحسين عليه السلام مع الذين طلبوا اليه القيام بعملٍ ما ملائمة جداً لتأييد الموضوع الذي نبحثه:

«صدق ابو محمد فليكن كل رجل منكم حلساً من احلاس بيته ما دام هذا الانسان حياً»^(١).

«وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك فالصقوا رحمكم الله بالارض واكمنوا البيوت واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً»^(٢).

فهذه الكلمات وغيرها تؤيد وجهة نظر الامام الحسن عليه السلام بعدم جدوى التحرك العسكري في مواجهة معاوية.

الصلح المفروض وبنوده

ولو فرضنا ان الامام الحسن عليه السلام قد غير رأيه في مواصلة الحرب بسبب الضعف الذي رآه على اهل العراق. فان ارسال معاوية المبعوثين الى المدائن وتعرض الامام لذلك في كلماته -التي تقدم ذكر بعضها- يشير الى ان معاوية كان راغباً في انتهاء النزاع من غير اللجوء الى الحرب وازاقة الدماء. فقد اظهر للناس من خلال ذلك وبشكل ذكي انه رجل حلیم وهادئ وانه يريد الاستيلاء على العراق بغير الحرب والصراع.

(١) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٢١.

(٢) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٢٢.

وهذا الاسلوب يمنع طبعاً من قيام اي تحرك مضاد من قبل اهل العراق. بالاضافة الى ذلك، فانه استطاع اضاء صبغة قانونية على عمله واحياء هذا التصور في الازهان وهو «انه ليس هو الذي يريد الاستيلاء على الخلافة الاسلامية بالقوة، بل ان الناس انفسهم وعلى رأسهم الامام الحسن عليه السلام هم الذين اوصلوا الامر الى هذه الحال».

ومع كل ذلك فانه لعدم التزامه بالتعهدات التي اتفق عليها الطرفان في كتاب الصلح يكون قد كشف عن وجهه القبيح المخادع. إلا أن التاريخ في نقله لبعض البنود -التي ادعى كتاب التاريخ بأن الطرفين قد اتفقا عليها- قد ظلم الامام الحسن ايما ظلم. اذ بالتمعن الدقيق في الموضوع ندرك بسهولة مدى ما احده بعض من الرواة والمؤرخين الذين لم يتحرروا من ميولهم المذهبية خلال تدوينهم للوقائع التاريخية من تلفيق وتزييف للاخبار والحقائق لصالح السياسة الاموية ضد الشيعة وتحريف الكثير من وقائع التاريخ.

وكان القصد الكامن من وراء هذه الجريمة هو اثبات النقاط التالية:

١ - ان الامام الحسن عليه السلام هو الذي تقدّم بطلب المصالحة من موقف الضعف والعجز.

٢ - ان الامام بادر الى القيام بهذا العمل من اجل بلوغ اهدافه المادية والحصول على الدينار والدرهم.

٣ - انه كان يفكر بنفسه فقط تاركاً الناس لمعاوية.

وكان الزهريّ -وهو احد المرتبطين ببلاط هشام بن عبدالمملك ومن انصارهم المخلصين- احد مصادر هذا التحريف فقد ذكر أن اساس عقد المصالحة

لا ينطوي سوى على شروط مالية وقبض خراج (الاهواز) و(دارابجرد)^(١).

ونحن في هذا البحث المختصر لا نجد الفرصة مواتية لتناول جميع النصوص التاريخية بشأن بنود معاهدة الصلح. لذا فانتنا نكتفي بذكر رواية تناقلتها المصادر القديمة باعتبارها نصاً كاملاً ونعطي بعض الايضاحات بشأنها. وقد نُقل هذا النص من قبل مؤرخين قديمين تختلف اسناد كل منها عن سند الآخر تماماً. وهذا التماثل الموجود بين النقلين بخصوص نص معاهدة الصلح هو من الدلائل على صحتها. فقد ورد في تلك الراوية ما يلي:

انفذ الامام عبدالله بن نوفل الى معاوية فتوَّثق منه لتأكيد الحجة بأن يكون الناس في أمان على انفسهم واموالهم وسيكون مستعداً لقبول مشروع المصالحة. الا أن عبدالله بن نوفل طرح على معاوية شروطاً غيرها وهي:

١ - تسلّم الخلافة بعد معاوية الى الامام الحسن عليه السلام.

٢ - دفع مبلغ ٥٥ ألف درهم سنوياً بالاضافة الى خراج دارابجرد. وقد قبل معاوية بهذه الشروط.

ولما رجع عبدالله بن نوفل الى الامام واعلمه بشروطه التي طرحها لم يوافق عليها الامام وقال: لست طالب خلافة، والاموال التي تعهد معاوية بدفعها لي انما هي من بيت المال ولا يحق له التصرف ببيت مال المسلمين. ثم دعا كاتبه وامره بكتابة ما يلي:

«هذا ما تصالح عليه الحسن بن علي ومعاوية بن ابي سفيان صالحه

(١) ر. ك. تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٢٥. وابن سعد. الطبقات ص ١٦٨.

على أن يسلم اليه الأمر على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيّه وسيرة
الخلفاء الصالحين، وعلى انه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وان يكون
الامر شورى والناس آمنون حيث كانوا على انفسهم واموالهم وذرائعهم، وعلى
أن لا يبغى للحسن بن علي غائلة سرّاً ولا علانية، وعلى أن لا يخلف احداً من
اصحابه»^(١).

ويبدو ان الشروط الاخرى التي نقلت بشكل مفصل او مختصر هي اشارة
الى هذه النقطة وانها كانت من تعابير المحدثين، مع ما يحتمل ايضاً من استعمال
المؤرخين لعبارات متساهلة في نفس هذا النص.

اما الشرط المالي الذي اورده بعض المؤرخين في معاهدة الصلح فقد كذّبه
الامام شخصياً إلاّ أنّه قد ورد في رواية أخرى ان هذا الشرط كان من اجل توفير
ارزاق عوائل شهداء الجمل وصفين^(٢)، وفي مثل هذه الحالة يُحتمل ان يكون هذا
الشرط خارج نص معاهدة الصلح المتفق عليها. وعلى كل الاحتمالات فمن البديهي
أن الامام -ومع جميع ما ورد في التاريخ بشأن كرمه وجوده- لا يطرح مثل هذا
الشرط لمصلحه الشخصية، رغم ما لأهل البيت عليهم السلام من حق وافر في بيت مال
المسلمين.

ويحتمل كذلك ان تكون اشاعة الشرط المالي التي اتخذت طابع الخبر
التاريخي قد افرزتها الرسالة التي بعثها معاوية الى الامام الحسن يحثّه فيها على
قبول الصلح ويعلن فيها استعداداه لوضع مبلغ قدره مليون درهم سنوياً تحت

(١) ابن الاثم، الفتوح، ج ٤ ص ١٥٨، البلاذري. انساب الاشراف ج ٢ ص ٤٢، ابن شهر آشوب:
المناقب ج ٤ ص ٣٣.

(٢) العلامة المجلسي: بحار الانوار ج ٤٤ ص ٣٠. عوالم العلوم ج ١٦ ص ١٨٢ و ١٨٧ و ١٨٨.

تصرفه بالاضافة الى خراج «دارالجرد» و «فسا»^(١). ومن ثم نقلها المؤرخون المغرضون او الجهلة، فيما بعد على انها أحد بنود معاهدة الصلح.

وامّا موضوع تعيين الامام الحسن عليه السلام كخليفة بعد معاوية والذي جاء في الرواية التي نقلناها فإنه لم يرد في نصّ المعاهدة، وقد كذّبه الامام ايضاً.

لكن مع كثرة الاخبار التاريخية الواردة في هذا الصدد يُستبعد أن يكون مصدرها جميعاً رسالة معاوية تلك التي قال فيها ضمن تعهّداته بانه سيسلم الخلافة من بعده الى الامام الحسن عليه السلام.

وقد اشار الامام في معاهدة الصلح الى أنه: لا يحق لمعاوية تعيين الخليفة من بعده بل ينبغي ان يتم ذلك عن طريق شورى المؤمنين، وهذا لا يعني اضعاف طابع الشرعية او الرسمية من قبل الامام على «شورى تعيين الخليفة» نظير الشورى التي شكّلها عمر او اي شكل آخر لها، بل ان الهدف من ذلك هو القبول الشعبي للحاكم وهذا لا يتنافى ومعتقدات الشيعة، لان الحاكم وفي جميع الاحوال وإن كان الامام المعصوم، بحاجة الى قبول الشعب له لكي يتمكن من امساك زمام امور الحكم، وكذلك الحال بالنسبة الى الله سبحانه و تعالى، تكون له صفة المحاكمية التشريعية في حال قبول الناس له ولدينه، رغم ان له الولاية التكوينية المطلقة على الكون شاء الناس ذلك ام أبوا.

لقد بادر الامام الحسن عليه السلام الى مثل هذا العمل من اجل انقاذ الخلافة من نظام الوراثة الذي يتوقع ان يقوم به معاوية هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان الناس في ذلك الوقت كانوا يعتبرون الخلافة مساوية للبيعة الاختيارية لاهل الحل

(١) البلاذري - انساب الاشراف - ص ٤٢.

والعقد، وانه من خلال احيائه لهذا المبدأ يكون قد اوقع معاوية في دائرة مخالفة الناس فيما لو تجاوز ذلك، ورغم ان معاوية كان اذكى من ان يقع في دائرة الخلاف مع اولئك الناس غير الواعين، ولكن ذلك كان اقصى ما يمكن اتخاذه من تدبير وقائي على يد الامام في تلك الظروف العصيبة، لكي يفضح للناس شخصية معاوية المناقفة، ويكشف للأجيال القادمة دوره الخبيث في التاريخ.

والنقاط المهمة الواردة في معاهدة الصلح نستعرضها فيما يلي وبشكل مختصر:

- ١ - توفير الأمان للجميع وخاصة شيعة امير المؤمنين عليه السلام الذين شاركوا بشكل او آخر في معركتي الجمل وصفين ضد العثمانية.
- ٢ - عدم وراثية الخلافة بعد معاوية.

- ٣ - توفير الأمان لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى رأسهم الحسنان عليه السلام.

لكن معاوية لم يلتزم باي من النقاط الواردة اعلاه، وهنا يجب على اولئك الذين لا زالوا يوالون معاوية أن يذكروا لنا السبب في أنه لم يلتزم ببسط تلك البنود، ولم يعمل بها رغم انه قبلها ووقع عليها. والاكثر اثارة من ذلك هو ان معاوية وبعد موافقته على بنود المعاهدة وتوقيعه عليها، دخل الكوفة وقال ضمن كلمته التي القاها على مسامع الجمهور وبقيت الانظار مشدوهة لسماعها:

«اني كنت شرطت شروطاً ووعدت عدة ارادة لاطفاء نار الحرب، ومدارة لقطع هذه الفتنة، فاما اذا جمع الله لنا الكلمة والالفة، وأمنّا من الفرقة، فإنّ ذلك

تحت قدمي^(١). اني والله ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا
انكم لتفعلون ذلك، وانما قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وانتم
كارهون^(٢).

يقول ابو ساسان الحصين بن منذر: لم يلتزم معاوية باي من التعهّدات التي
قطعها للامام الحسن عليه السلام اذ قتل حجراً واصحابه ولم يعهد بانتخاب الخليفة الى
شورى المؤمنين واختار ابنه يزيد لولاية العهد من بعده، وسمّ الامام
الحسن عليه السلام^(٣).

خطبة الامام عليه السلام بعد دخول معاوية الى الكوفة

لما دخل معاوية الكوفة اصدر بياناً يهدّد فيه الناس أنّ من لم يبايع الى
ثلاثة ايام فلا امان له. وعندما اجتمع الناس في مسجد الكوفة الجامع اراد معاوية
الاستهانة بالامام الحسن والحصول على تأييد ضمني منه امام الملاء العام فدعاه الى
القاء خطبة من على المنبر، وقد نقل المؤرخون روايات متضاربة في هذا الصدد
متضاربة، واوردت كل رواية منها مقطعاً مختلفاً من خطبة الامام. فقد ورد في
احدى الروايات انه قال عليه السلام:

«انما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وليس الخليفة من سار
بالجور ذلك ملكٌ ملكاً يتمتع به قليلاً ثم تنقطع لذّته وتبقى تبعته» وان

(١) البلاذري - انساب الاشراف، ج ٢ ص ٤٦. و ر. ك. ابن الاعثم ج ٤ ص ١٦٣.

(٢) الاصفهاني - مقاتل الطالبين ص ٤٤ طبعة النجف.

(٣) البلاذري - انساب الاشراف. ج ٢ ص ٤٨.

ادري لعلّه فتنة لكم ومتاع الى حين»^(١).

فالامام عليه السلام يعرض معاوية للناس عن طريق الكناية بصورة ملك جائر، وجاء في رواية اخرى أنه عليه السلام اشار الى انه واخاه الحسين عليه السلام الشخصان الوحيدان على الارض اللذان جدّهم نبي الاسلام ﷺ اذ قال:

«ان الله قد هداكم بأولنا محمد، وأن معاوية نازعني حقاً هو لي فتركته لصلاح الامة وحقق دمائها».

نعم فبعد ان دامت خلافة الامام مدّة سبعة اشهر وسبعة أيّام أكره على التنازل عن الخلافة لمعاوية والذهاب الى المدينة. وخلال هذه المدّة كان اهتمامه منصباً على الحرب، وكان من الصلاح من وجهة النظر الحكومية ابقاء عمّال ابيه استناداً الى ما ذكره ابن الخياط. وقد اصدر المغيرة بن شعبة كتاباً مزيفاً لنفسه باسم الامام وكان ذلك من النقاط المهمة في حياة بعض الصحابة الذين يعتبرهم اهل السنّة عدولاً بأجمعهم وفعلهم حجة شرعية.

الامام ومعاوية ومحاربة الخوارج

حينما كان الامام متوجّهاً الى المدينة اضطرم تمرد الخوارج ثانية في انحاء مختلفة من العراق. وكان امير المؤمنين قد قال سابقاً بهذا الصدد: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي» وهو ما يقتضي عدم مساعدة الشيعة للامويين في قمع الخوارج. وكان في نية معاوية استغلال الشيعة لتحقيق هذا الغرض. فارسل الى الامام

(١) الاصفهاني - مقاتل الطالبين ص ٤٧. ر.ك. ذخائر العقبى ص ٤٠. نظم درر السمطين ص ٢٠٠ -

الحسن عليه السلام -الذي كان في حينها قد وصل الى القادسية - كتاباً يطلب منه العون لمحاربة الخوارج، وكان الامام على وعي تام باهداف هذه الخطة فردّ اليه الجواب بهذا المضمون: «تركك قتالك وهو لي حلال لصالح الامة والفتهم، افترانى اقاتلُ معك»^(١).

وورد في نصوص أخرى بأن الامام قال: «لو آثرتُ أن أقاتل احداً من اهل القبلة لبدأت بقتالك»^(٢).

وهذا دليل آخر ايضاً على رأي الامام القاطع بشأن محاربة القاسطين. وكان معاوية في كل مرة يسعى للقضاء على بني هاشم باسلوب معين، فقال في احدى المرات: «اذا رأيتم هاشمياً غير كريم وأمويّاً غير حليم وعوامياً غير شجاع فأعلموا انهم لا يشبهون آباءهم».

ولما سمع الامام المجتبى هذه المقولة، قال:

«والله ما اراد بها النصيحة، ولكن اراد أن يفني بنو هاشم ما في ايديهم فيحتاجون اليه، وأراد الحلم لبني امية حتى يحبّهم الناس، واراد للزبيريين الشجاعة حتى يعرّضوا انفسهم للقتل»^(٣).

(١) البلاذري - انساب الاشراف: ج ٢ ص ٤٦.

(٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٤٢. المبرد، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٣٣. ابن ابي الحديد ج ٥ ص ٩٨.

(٣) ربيع الابراج ج ٣ ص ٤٢٢.

خصائص الامام الحسن عليه السلام

يعتبر الامام الحسن المجتبي عليه السلام احد النماذج الانسانية المتميزة، وشخصيته الفريدة والاجتماعية يمكن ان تكون معلماً بارزاً للسائرين على طريق الانسانية.

وليس بالامكان هنا تناول جميع الروايات في هذا المجال بشكل مفصل، لذا نقتصر على ذكر عدد من النقاط فيما يلي:

ففي الجانب العبادي تُعتبر ملامحه الوضّاء تاجاً يزيّن تاريخ البشرية فقد جاء في رواية ان الامام الحسن المجتبي قال: «انّي لأستحي من ربّي أن القاه ولم امش الى بيته».

فثنى عشرين مرّة من المدينة على رجله^(١). وتُقل ايضاً: لقد حجّ الحسن خمساً وعشرين حجّة ماشياً^(٢).

ومن الميّزات الاخرى التي تمتاز بها شخصيته هي العفو والتسامح والاستفادة المشروعة من النعم الالهية وهذا ما تناقلته السنن المؤرخين^(٣).

ففي رواية: «ان رجلاً جاء اليه طالباً حاجة فقال: ليكتب حاجته ويأت بها، فلما حضر الرجل دفع اليه الامام ضعف ما طلب»^(٤).

وجاء في رواية أخرى: «ان الحسن عليه السلام قاسم الله ماله ثلاث مرّات حتى انه

(١) ابو نعيم الاصفهاني - اخبار اصفهان ج ١ ص ٤٤.

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٧٢.

(٣) ربيع الابرار ج ١ ص ٦١٧.

(٤) البيهقي، المحاسن ص ٥٥.

كان يعطي نعلًا ويمسك نعلًا ويُعطي خُفًا ويمسك خُفًا»^(١).

ومن الصفات الجميلة الاخرى التي تميّز بها امامنا هذا هي الحلم والصبر والتحمل وتجنّب الرياء والتنسّك. وقد وردت روايات متعددة في هذا الصدد نورد احداها:

قال رجل من اهل الشام: «رأيت في احد الايام رجلاً حسن الهيئة، وسيماً، يرتدي ثياباً فاخرة، وهو راكباً بغلة زُيّنَت بشكل يلفت النظر، فسألت عنه فقيل لي: هو الحسن بن عليّ بن ابي طالب، فمُلّنت غيضاً منه وحسدتُ ابن ابي طالب على مثل هذا الولد. فلما دنوت منه سألته أنت ابن ابي طالب؟ فقال ابن ابنه. فانبريت له بالسبّ والشتّم، فلما فرغت قال: هل انت غريب؟ قلت نعم. قال: هلمّ معي. ان كنت مشرداً اويناك، وان كنت محتاجاً اعطيناك، وان كنت جائعاً اطعمناك، فوالله ما فارقتك وعلى الارض احد احبّ اليّ منه».

وإضافة الى دوره في الامامة وكونه حلقة وصل في نقل آثار رسول الله ﷺ وما نقله اهل السنة عنه ايضاً من روايات في الفقه^(٢)، فإن اهمّ دور اداءه في المجال الديني هو حثّ الناس على كتابة الحديث. وهو امر في غاية الاهمية اذ ادى نهي الخلفاء عنه الى بقاء الاحاديث لدى الشيعة من جهة، ومن جهة اخرى واجه اهل السنة مشكلة ضياع وفقدان الاحاديث بسبب عدم تدوينهم لها في بداية الامر.

وقد روي عنه انه اوصى اولاده واولاد اخيه فقال لهم:

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص ٧٣.

(٢) ابن عدي - الكامل في ضعفاء الرجال ج ٣ ص ١١٨٧.

«يا بنيّ انكم صغار قوم فتوشكون ان تكونوا كباراً، فتعلّموا العلم فمن لم يستطع ان يحفظه او يرويّه فليكتبه ويضعه في بيته»^(١).

وكان الامام احياناً مرجعاً لحل بعض العضلات التي يطرحها بعض الناس على معاوية^(٢).

استشهاد الامام عليّ

انّ إحدى الجرائم البشعة التي ارتكبتها معاوية خلال فترة حكمه هي قتله ريحانة رسول الله ﷺ الامام الحسن المجتبيّ عليّ، وآثار هذه الجريمة المروعة مسطورة علناً على صفحات التاريخ. وقد تمّت تلك الجريمة بهذا الشكل الرهيب الذي دبرّه معاوية بالاتفاق مع عنصر خبيث وفاسد مثل بنت الاشعث بن قيس (زوجة الامام) التي دسّت له السم فمات شهيداً. لقد كشف معاوية عن وجهه المنافق المرائي وفضح شخصيته الشيطانية ونقضه للعهود والمواثيق مرّات ومرّات خلال فترة حياته السياسية. وكانت هذه الجريمة اوضح من غيرها في انظار الناس.

وقد اثبت التاريخ هذه الحقيقة^(٣). فقد نقل الطبري عن (ام بكر بنت المسور) أنها قالت: سُقي السم للامام المجتبيّ عدة مرات، وكان ينجو منه في كل مرّة الى أن مات في المرّة الاخيرة^(٤) ومع هذا فنحن نجد اشخاصاً متعصّبين يدافعون عن بني

(١) البخاري - التاريخ الكبير، ج ٥ ص ٤٠٧.

(٢) الزمخشري - ربيع الاربار، ج ١ ص ٧٢٢.

(٣) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠. ابن عبد البر - الاستيعاب ج ١ ص ٣٨٩. و...

(٤) الطبري - المنتخب من ذيل المذيّل ص ٥١٤ طبعة دار المعارف في مصر.

أُمِّيَّة بآي شكل من الاشكال من امثال ابن خلدون الذي اشار الى أن هذه القضية لا اساس لها وهي ضعيفة وقال:

«انّ ما ذكر بشأن سم الحسن بن علي يد معاوية فهي رواية لفقها الشيعة وحاشا لمعاوية ذلك»^(١).

ولا ريب أنّ هذا ناتج عن الميول المذهبية الخاصة عند ابن خلدون الذي يرغب في تغيير شهادة تاريخ الاسلام دفاعاً عن شخصية مشبوهة وكريهة مثل معاوية.

وان مأساة الامام ومظلوميته في دفنه كانت اكثر اثارة وايلاماً، فعندما اراد اهل البيت دفنه الى جوار قبر النبي ﷺ طبقاً لوصيته، انبرت لهم زمرة من بني أمية مع احدى زوجات رسول الله ﷺ (عائشة)^(٢)، وهي زمرة طالما وقفت في الظروف الحساسة والمصيرية بوجه اهل البيت من اجل تغيير مسار الاحداث لصالح الافكار المنافقة والمراكز الخفية المعادية للاسلام. فقد رفع مروان بن الحكم عقيرته من بين هذه الزمرة المشاغبة وصاح: أيّدفن عثمان في اقصى اطراف البقيع بدفن الحسن بن علي في بيت رسول الله؟!!

وكانت المرأة التي تقود ذلك الشغب راكبة على بغل وتسير امام ذلك الجمع وتدّعي ملكية دار النبي عن طريق الارث، وتمنع بكل قوّة واصرار من دفن الامام في مقبرة رسول الله، مع انها ممن رووا: «انا معاشر الانبياء لا نورث»! وبعد هذا النزاع المؤسف والمجدال المرير دُفن الشهيد المظلوم في البقيع.

(١) ابن خلدون - العبر - ج ٢ ق ٢ ص ١٨٧.

(٢) الاصفهاني - مقاتل الطالبين ص ٤٩. ابن شهر آشوب - المناقب ج ٢ ص ١٧٥.

ويحتمل ان استشهاد الامام كان بين سنتي ٤٩ و ٥٠ للهجرة. وقد اقيمت في المدينة المنورة مآتم الحزن على ريحانة رسول الله ﷺ وعطل اهل المدينة - وكان اكثرهم من ابناء الانصار - اسواقهم واقاموا مجالس الحداد على هذه الفاجعة الكبرى^(١).

وطبقاً لما ذكره الطبري فان نساء بني هاشم اقن مجلس نياحة لمدة شهر باكملة وامتنعن عن الزينة عاماً بتمامه. واستناداً الى ما نقله الطبري ايضاً عن الامام الباقر عليه السلام: ان الناس بكوا على الحسن بن علي سبعة أيام ولم يفتحوا فيها اسواقهم^(٢). وذكر ايضاً ان جمعاً عظيماً من الناس شارك في دفن الامام المجتبى في البقيع وكان الزحام شديداً الى درجة لم يبق معها محل لسقوط الابرّة.

ويقول عمر بن بشير الهمداني: قُلت لأبي اسحاق: متى ذلّ الناس؟ قال حين مات الحسن، وادّعى زياد، وقُتل حجر بن عدي^(٣).

(١) الحاكم النيسابوري - المستدرک ج ٣ ص ١٧٣.

(٢) المنتخب من ذيل المذيل ص ٥١٤.

(٣) الاصفهاني - مقاتل الطالبين ص ٥٠.

الامام الحسين عليه السلام

قال الامام الحسين عليه السلام : «إنا اهل بيت النبوة
ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحط
الرحمة وبنا فتح الله وبنا ختم»^(١).

الامام الحسين عليه السلام هو ثالث أئمة الشيعة وقد ترك تأثيراً عميقاً في نفوسهم
بسبب استشهادهِ. كما هو حال أخيه عليه السلام محبوب رسول الله ﷺ وهو من ابرز
مصاديق: (اهل البيت، ذو القربى، سيد شباب اهل الجنة، اصحاب الكساء و...) .
وقال فيه الرسول الكريم ﷺ اجمل كلام له في الثناء «حسين مني وانا من
حسين». وهناك مصادر كثيرة جمعت ودوّنت الروايات التي تتحدث عن
فضائله^(٢).

وعلاوة على مشاركة الامام الحسين عليه السلام في حروب الجمل وصفين

(١) الفتوح ج ٥ ص ١٧.

(٢) ر.ك. الفيروزآبادي فضائل الخمسة في صحاح الستة.

والنهران ، فإنه قد وقف بثبات خلف امامة ابيه ، ووقف ايضاً الى جانب أخيه ، ودافع عن موقفه عندما صمم على الحرب ، وعندما صمم على الصلح .

وقد خصصنا فصلاً من كتاب التاريخ السياسي للإسلام لـ«رأي الامام الحسين عليه السلام بشأن الصلح»^(١) واثبتنا فيه عدم صحة ما اورده بعض المعاندين من معارضة رأي الحسين عليه السلام لموقف أخيه . واستناداً الى النصوص التاريخية الصريحة فإنه لم يكن ممثلاً لأخيه في الرأي من باب التبعية فقط ، بل حتى من حيث التحليل فانه كان يعتقد بنفس تحليل أخيه للأوضاع ايضاً^(٢) . ومن المواقف الاخرى للامام هو تصديده لمعاوية بسبب قتله لحجر بن عدي واصحابه . وكتب له كتاباً مطوّلاً يذكر فيه : انه لا يريد حربه ولا الخلاف عليه ، لكنه يخشى ان لا يرضى عنه الله في قعوده عن حرب معاوية . ثم اشار الى استشهاد حجر ووصفه بالشخص العابد الذي ينكر الظلم ، ويخالف البدع ولم يكن يخشى شيئاً ، وقرع معاوية على قتله ايّاه ، وكذلك طرح له الامام جملة من اخطائه منها ادعائه ان زياداً أخوه وشرح له جرائم زياد بحق المسلمين في العراق . وفي الختام هدده الامام بالقيامة والحساب والكتاب وانه لن ينجو من العذاب بسبب اذائه للناس وحبسهم وتعذيبهم ، واستقبح الامام فعله في اخذ البيعة ليزيد شارب الخمر اللاعب بالكلاب^(٣) .

وفي الحقيقة ان اكثر الاحداث اهمية في حياة الامام الحسين عليه السلام هي واقعة

(١) التاريخ السياسي للإسلام من سنة اربعين الى نهاية القرن الاول للهجرة .

(٢) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٢١ ، الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥١ ، الارشاد ص ٢٠٦ .

(٣) انساب الاشراف ترجمة معاوية ج ٢ ص ٧٤٤ حديث ٣٠٣ ، الاخبار الطوال ص ٢٢٤ ، الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٠ ، رجال الكشي ص ٤٨ ، دعائم الاسلام ج ٢ ص ١٢١ .

كربلاء التي كان لها اعمق الاثر في حياة الشيعة وخاصة في الجوانب الروحية والتاريخية لذا فانتا لا نطيل المكوث في هذه المقدمة وننطلق منها مباشرة لتبيان واقعة كربلاء.

الامام الحسين عليه السلام ومبايعة يزيد

بعد هلاك معاوية في شهر رجب من العام ٦٠ الهجري تربّع يزيد -الذي فرضت خلافته على المسلمين مسبقاً بالاكره- مكان ابيه في السلطة وصرف كل همّه الى اخذ البيعة من خصومه ومعارضيه البارزين في المدينة، لأنهم كانوا يعتبرون خطراً كامناً يهدّد حكومته^(١).

ولم يكن خبر موت معاوية قد بلغ اسماع اهل المدينة بعد، حتى كتب الى الوليد بن عتبة بن ابي سفيان واليه على المدينة يأمره بأخذ البيعة من الحسين بن علي عليه السلام وعبدالله بن الزبير ويشدد عليها تشديداً لا رخصة فيه. ولما وصله الكتاب استشار مروان فاشار عليه باحضارهما في نفس تلك الليلة واخذ البيعة منهما والا فيضرب اعناقهما قبل أن يعلن الخبر فيشب كل واحد منهما الى ناحية ويظهر الخلاف^(٢).

وبعد أن جاء الخبر، جمع الحسين نفراً من مواليه وغلماؤه ثم مشى نحو دار الامارة وامر فتيانه ان يجلسوا بالباب فان سمعوا صوته اقتحموا الدار.

وهناك اقرأه الوليد الكتاب فقال الحسين عليه السلام: ان مثلي لا يبايع سراً، فاذا

(١) الدينوري الاخبار الطوال ص ٢٢٧.

(٢) ابن الاعثم ج ٥ ص ١١.

جمعت الناس لذلك حضرت وكنت واحداً منهم.

فاقتنع الوليد بكلامه، ألا أن مروان حثّه على حبس الامام حتى يبايع. واشتد الكلام بين الحسين ومروان، ولما همّ الحسين بمغادرة دار الوليد قال له: «إنا اهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحط الرحمة، وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر، وقاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»^(١).

وفي هذا المجلس صرّح الامام بأولوية اهل البيت عليهم السلام بالخلافة استناداً الى آية التطهير^(٢).

وفي اليوم التالي كان ابن الزبير قد خرج من المدينة^(٣)، وفي الليلة التالية (في الثالث من شعبان عام ٦٠ للهجرة) مضى الحسين عليه السلام ايضاً نحو مكة ومعه عامّة من كان بالمدينة من اهل بيته الا اخاه محمد بن الحنفية فأنه أقام^(٤).

وكانت مكة اكبر قاعدة دينية في الاسلام وكانت دائماً محل تجمع الشخصيات الاسلامية الكبيرة. واتّصل الامام هناك بالشخصيات المختلفة ووضح لهم اسباب عدم مبايعته ليزيد.

ابتهج اهل الكوفة كثيراً عند سماع هذا الخبر، لأنهم كانوا يعدّون اللحظات انتظاراً لهذا اليوم، ولهذا فقد اجتمع جماعة من رؤسائهم ومن ضمنهم سليمان بن

(١) ابن الاثم ج ٥ ص ١٧.

(٢) ابن الاثم ج ٥ ص ٢٥.

(٣) الدينوري الاخبار الطوال ص ٢٢٨.

(٤) ابن الاثم ج ٥ ص ٣٧.

صُرِدَ ... فتحدثوا في هذا الاجتماع وطرحوا موضوع دعوة الامام الى العراق ولاجل حصول الاطمئنان الكامل والتوثق من هذه القضية اخذ سليمان بن صُرْد من الحاضرين عهداً بعدم نقض ما اتفقوا عليه^(١) ثم ارسلوا اليه كتاباً وفيه توافيع عدد من رؤساء الشيعة من امثال: سليمان والمسيّب بن نجبة وحبيب بن مظاهر ورفاعة بن شدّاد وعبدالله بن وال يدعونه فيه للقدوم الى الكوفة.

ولم يردّ الامام على هذه الكتب وما زالت تأتية الكتب الواحد تلو الآخر، حتى جاءه قيس بن مسهر الصيداوي وعبدالله بن وال نيابة عن الناس لمقابلته ودعوته الى الكوفة والتباحث معه حول هذا الموضوع. وظلت كتب اهل الكوفة تأتية بشكل متواصل حتى اتخذت القضية طابعاً لم يعد بالامكان السكوت حياله او تجاهله وعدم الاهتمام به^(٢).

وفي هذه الاثناء التقى بالامام في مكة هاني بن هاني وهو احد شخصيات الكوفة . وفي هذا اللقاء عرض على الامام استعداد اهل الكوفة وحتى اشرافها لاستقباله وكان ذلك بمثابة التأكيد على محتوى الكتب التي وصلتته.

وكان اول عمل قام به الامام هو ارسال مسلم، ولما تأهب مسلم للرحيل قال له: «إن رأيت الناس مجتمعين على بيعتي فعجل لي بالخبر حتى اعمل على حسب ذلك»^(٣).

وورد اول كتاب من مسلم بعد وصوله وهو يؤكد على ايجابية الموقف،

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٦١. ابن الاعثم ج ٥ ص ٤٦.

(٢) ابن الاعثم ج ٥ ص ٤٩.

(٣) ابن الاعثم ج ٥ ص ٥٣.

وجاء فيه: «بايعك اكثر من ٢٠ ألفاً من اهل الكوفة، عندما يصلك كتابي عجل بالمسير»^(١).

ان كتب اهل الكوفة وكلام مبعوثيهم وكتاب مسلم عن الموقف في الكوفة تشير باجمعها الى ان حركة قوية ضد السلطة الاموية على وشك الاندلاع. وفي الثامن من ذي الحجة وفي غمرة مناسك الحج عجل الامام بالمسير نحو الكوفة، لأنه كان يرى ان لحظة واحدة من التأخير يمكن أن تؤدّي الى قلب اوضاع الكوفة لصالح بني أمية.

وفي الطريق لحق الامام بعيرٍ مقبلة من اليمن وفيها هدايا مرسلة الى يزيد في الشام فأخذها وما عليها وقال لاصحاب الأبل من اراد منكم فليأت معنا الى العراق ومن اراد ان يفارقنا فليرحل^(٢).

ثم واصل مسيره نحو الكوفة فالتقاء الفرزدق الشاعر مقبلاً من العراق يريد مكة، فسأله عن الوضع في الكوفة فقال: «قلوب الناس معك وسيوفهم عليك».

ومضى الحسين عليه السلام حتى اذا صار «ببطن الرّمة» كتب الى اهل الكوفة يعلمهم بقرب وصوله^(٣) ثم بعث بالكتاب مع قيس بن مسهر الصيداوي، وقبل وصوله الى الكوفة اخذه حُصين بن غنيم وبعث به الى ابن زياد. ولكي لا يقع الكتاب بيد ولاة الامويين عمد الرجل الى قضم الكتاب وبلعه. وبعدها بعدة ايام استشهد في الكوفة.

(١) ابن الاثم، ج ٥ ص ١٥٠.

(٢) البلاذري، انساب الاشراف ج ٢ ص ١٦٤، تصحيح المحمودي. الدينوري الاخبار الطوال ص ٢٤٥.

(٣) الدينوري الاخبار الطوال ص ٢٤٧.

استمر الامام في طريقه حتى وصل منطقة زورد ولقي فيها زهير بن القين الذي كان الى حد تلك اللحظة عثمانى الرأي، وطلب منه النصرة. فتأثر بكلام الحسين، وتشجيع زوجته فقبل الدعوة والتحق بتلك القافلة المتوجهة الى كربلاء. ولما وصل الامام الى مكان يقال له ذات عرق لقيه شخص من بني اسد واخبره باستشهاد هاني ومسلم^(١).

وقد ورد في احدى الروايات التاريخية ان الامام قرر الرجوع في تلك اللحظة الا أن اخوة مسلم منعه، ولكن يستبعد أن تكون هذه الرواية صحيحة. ذلك لأن الامام وجميع من برفقته لا زالوا حتى ذلك الحين يحسبون للكوفة حسابها ويعلقون عليها املاً كبيراً، وكان التصور السائد لديهم هو: «والله ما انت بمسلم بن عقيل ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك اسرع»^(٢).

وفي منطقة زباله وصلت الى الامام رسالة مسلم التي كان قد طلب في آخر لحظات حياته من عمر بن سعد ارسالها الى الامام. وفي هذه الرسالة اوضح مسلم للامام بأن الكوفة قد اضحت بمثابة فخ ينتظر قدومه فعليه ان لا يقترب منها. ولم يمضِ طويل وقت حتى بلغه خبر استشهاد قيس بن مسهر^(٣) وعبدالله بن يقطر^(٤) اخو الامام من الرضاعة. وكان مجموع هذه المعلومات يشير الى أن كفة الظروف والموقف السياسي في الكوفة تميل لصالح الأمويين. وبناءً على هذه المستجدات، اشار الامام خلال اجتماع احتشد فيه عدد كبير ممن رافقه، الى هذه الاوضاع وقال

(١) ابن الاثم ج ٥ ص ١٢٠.

(٢) ابن الاثم ج ٥ ص ١٢٠.

(٣) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٤٨.

(٤) ضبط في بعض كتب التاريخ نفس المهموم قيس بن مسهر وعبدالله بن يقطر.

لهم:

«أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ خَذَلْنَا شَعِيتَنَا فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ الْإِنْصِرَافَ فَلْيَنْصِرِفْ»^(١).

وعند سماع الناس هذا الكلام انصرف عدد كبير من الناس ممن كانوا قد تبعوا الامام لأغراض ماديّة. وبقي معه نفر من اهل بيته وخاصة انصاره الذين رافقوه من المدينة او مكّة^(٢).

وبالنظر لطبيعة الظروف السياسية الخاصة في تلك الايام تيقّن الامام ان حركته المعارضة هذه ستُمنى بالفشل العسكري. ولكن من الواضح ان هذه الحرب غير المتكافئة بين الحسين بن رسول الله ﷺ والامويين كانت لها اسباب ودوافع معنوية أخرى لا يمكن فهمها او تحليلها بالمنظار السياسي المتعارف.

واستمر الامام في مسيره نحو الكوفة حتى بلغ منطقة شراة، فامضى فيها ليلته وواصل في اليوم التالي مسيره، وعند منتصف النهار لاحت له طلائع جيش الكوفة بقيادة الحر بن يزيد الرياحي. كان الحر قائداً عسكرياً، وكان في مهمته هذه يؤدي واجبه العسكري الموكل اليه فقط، ولا ينظر مطلقاً الى الجانب السياسي من الموضوع. ولهذا السبب فأنّه وقف وجميع من معه خلف الامام مأمّنين به لصلاة الظهر. وكانت مهمة الحر هي اخذ الامام الى الكوفة ومنعه من العودة. ولما انتهى الحسين عليه السلام من صلاته حوّل وجهه الى القوم ثم قال:

«أَنْتِي لَمْ آتِكُمْ حَتَّى أَتْنِي كِتَابَكُمْ، وَقَدِمْتَ عَلَيَّ رِسَالَكُمْ، فَانْ اعْطَيْتُمُونِي مَا

(١) البلاذري - انساب الاشراف ص ١٦٩.

(٢) ر. ك الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٤٨. البلاذري - انساب الاشراف ص ١٦٩. الطبري ج ٤ ص ٣٠٠.

اطمئنن اليه من عهودكم وموائيقكم دخلنا معكم مصركم، وان تكن الاخرى
انصرف من حيث أتيت»^(١).

وادعى الحرّ انه لا يعلم بهذه الكتب. ورفض الامام الذهاب الى الكوفة
وسلك طريق الحجاز^(٢). فاصطف الحر وفرسانه معترضاً طريقه. وبعد أخذ وردّ
اتفقا على سلوك طريق وسط لا تؤدي الى الكوفة ولا الى الحجاز، فالتزما طريقاً
تؤدي الى العُذَيْب^(٣).

وهنا عرض الطرماع بن عدي على الامام ان يسير نحو جبال طي لكنه ردّ
عليه هذا الاقتراح بسبب ما توافق عليه مع الحر^(٤). وحاول الامام في مسيره
التباعد عن الكوفة جهد المستطاع، لكن الحر كان يمنعه من ذلك حتى بلغوا قصر
بني مقاتل، ثم توجّهوا منها الى نينوى^(٥). وفي نينوى وصل الى الحر كتاب من ابن
زياد يأمره فيه أن يجمع بالامام، ولا يحلّه الا بالعراء على غير خُمُر ولا ماء^(٦).

وهنا جاء عدد من شيعة الكوفة، ورغم معارضة الحر لهم فانهم قد دخلوا
في عسكر الحسين^(٧). وكتب البلاذري ما يلي: طلب الامام من الحر السماح له

(١) الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٤٩، البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٧٠، ابن الاعثم ج ٥ ص ١٣٥.

(٢) الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٥٠.

(٣) نفس المصدر ص ٢٥٠، ابن الاعثم ج ٥ ص ١٤١، البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٧٠.

(٤) الطبري ج ٤ ص ٣٠٧، البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٧٣.

(٥) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٥١.

(٦) البلاذري - المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٦، الدينوري المصدر نفسه.

(٧) نفس المصدر السابق.

بالذهاب الى الشام ليضع يده بيد يزيد^(١).

لكن اكثر المؤرخين ضعفوا هذه الرواية، مضافاً الى ان كل الذي جرى ويجري الى تلك اللحظة انما كان بسبب عدم مبايعة الامام ليزيد، فلو كان عليه السلام مستعداً للبيعة لما وقعت تلك الحرب ولما أريقَت كل تلك الدماء.

وبينما كان الحر يساير الامام، عرض زهير بن القين على الامام قتال هؤلاء القوم فهم قلة وقتالهم أيسر، لكن الامام رفض هذا الاقتراح قائلاً: «إني اكره أن ابدأهم بالقتال»^(٢).

وأكره الامام على النزول هناك، فامر بحط اثقاله في كربلاء وكان ذلك يوم الاربعاء في الاول من المحرم او يوم الخميس الثاني منه. وقال الدينوري انه كان يوم الاربعاء^(٣).

وفي اليوم التالي بدأ جيش ابن زياد يتحشد في ذلك المكان تدريجياً. وكان ابن زياد يؤكد على وجوب ان تتلطح أيدي جميع القبائل بدم سبط النبي ﷺ ليحول بذلك دون قيامها في المستقبل بأيّ تحرّك محتمل بدافع الانتقام لدم الحسين عليه السلام. وبناءً على رواية ابن اعثم فقد سار من الكوفة ما يقارب ٢٢ ألف رجل. لكن رواية البلاذري^(٤) والدينوري^(٥) تشير الى أن الكثير منهم تخلّفوا في منتصف الطريق وفرّوا من جيش ابن زياد، لأن اكثرية اهل الكوفة لم تكن راغبة

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٥٣.

(٣) نفس المصدر ص ٢٥٣.

(٤) البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٧٩.

(٥) الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٥٤.

في قتال سبط الرسول، لذلك اصدر ابن زياد بياناً جاء فيه :

«أَيُّمَا رَجُلٍ وَجَدْنَاهُ بَعْدَ يَوْمِنَا هَذَا مُتَخَلِّفًا عَنِ الْعَسْكَرِ بَرِئْتُ مِنْهُ الذِّمَّةُ»^(١). وتحت تأثير مثل هذا التهديد توجَّهت هذه الجموع الى كربلاء.

وحتى عمر بن سعد بن ابي وقَّاص الذي كان متأهباً للرحيل الى بلاد فارس كوالٍ جديد على الري لقتال الديالمة المشركين، ورغم كراهيته الشديدة هو وبني زهرة^(٢) للمشاركة في دم الحسين عليه السلام فقد جاءه امر ابن زياد بالقضاء أولاً على الحسين ومن ثم الذهاب الى الري وتسلم منصب الولاية عليها. ولذا عُيِّن قائداً لجيش الكوفة. ومَرَّ الرجل بحالة من الصراع النفسي الداخلي المرير حول هذا الموضوع انتهت به الى اختيار ولاية الري في مقابل اراقة دم سبط رسول الله^(٣).

وكان أوّل عمل قام به ابن سعد بعد وصوله الى كربلاء هو ارسال مبعوث من قبله الى الامام ليستفسر منه عن سبب قدومه. فعرض عليه الامام جميع الرسائل التي وصلتته من اهل الكوفة وقال :

«ان كان اهل هذا المصر غير راغبين في استقبالي فاني راجع من حيث اتيت».

وكان ابن سعد يبحث عن طريق للتخلّص من هذا المأزق فبعث بكتاب الى ابن زياد جاء فيه: «قطع لي الحسين عهداً بالرجوع الى الحجاز او الذهاب الى أحد

(١) البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٧٨.

(٢) ابن سعد، مجلّة تراثنا العدد العاشر ص ١٧٨.

(٣) ابن الاثم ج ٥ ص ١٧٣.

الثغور الإسلامية والعيش فيها كانسان عادي . وفي هذا لك رضا وللامة صلاح»^(١).

وابدى ابن زياد رغبة في قبول رأي ابن سعد لكن الشمر جعله يعدل عن رأيه فكتب الى عمر بن سعد ما يلي: «لم ابعثك الى الحسين لتطاوله الايام، فان نزل الحسين واصحابه على الحكم فابعث بهم اليّ سلفاً، وان ابوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم مستحقون لذلك»^(٢).

فارسل عمر بن سعد بكتاب ابن زياد الى الحسين، فقال الحسين للرسول: «لا أجيب ابن زياد الى ذلك ابدأ فهل هو الا الموت فمرحباً به»^(٣).

وورد كتاب ابن زياد الى عمر بن سعد: «ان امنع الحسين واصحابه من الماء فلا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالتقي الزكي عثمان»^(٤).

وكتب له كتاباً آخر جاء فيه: «بلغني ان الحسين واصحابه حفروا الآبار وهم يشربون منها فاذا وصلك كتابي هذا امنعهم من ذلك وشدد عليهم في الماء جهد المستطاع»^(٥).

وفي الأيام الاخيرة التقى الامام بابن سعد عدّة مرّات، وجهد في اقناعه بالتخلي عن تنفيذ الجريمة التي امر بها، لكن هاجس ولاية الري -وكما تشير الروايات التاريخية- كان قد افقده صوابه.

(١) المفيد، الارشاد ص ٣٣٩ طبعة بصيرتي - قم.

(٢) ابن الاعثم ج ٥ ص ١٦٦، البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٨٣.

(٣) الدينوري. الاخبار الطوال ص ٢٥٤.

(٤) ر. ك. الدينوري ص ٢٥٥، البلاذري ج ٢ ص ١٨٠، فيما يخص تهمة ابن زياد بشأن عثمان راجع كتاب التاريخ السياسي للإسلام الى سنة اربعين للهجرة ص ٣٧٧.

(٥) ابن الاعثم ج ٥ ص ١٦٢، الطبري ج ٤ ص ٣١١.

وفي عصر التاسع من المحرم ابتداء جيش الكوفة القتال، فسألهم الامام تأخير الحرب الى غد، فأجابوه. وفي الليل خاطب الامام انصاره وكل من تبعه قائلاً لهم:

«إني قد اذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حلّ ليس عليكم منّي ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً وليأخذ كل منكم بيد رجل من اهل بيتي». فاعلن اصحابه استعدادهم للتضحية والفداء^(١).

وفي تلك الليلة امر الحسين اصحابه ان يحفروا وراء البيوت اخدوداً لثلاث يأتوا من ادبار البيوت فيدخلوها. وانقضت ليلة العاشر من المحرم. وفي الصباح الباكر كان الجيشان قد اصطفا في مقابل بعضهما استعداداً للقتال.

وعباً الحسين عليه السلام انصاره وهم خمسون رجلاً ممن كانت لديهم القدرة على الحرب واما العشرون الآخرون - كما ذكر ابن سعد^(٢) - فهم الذين انضموا اليه من جيش الكوفة. ثم وجه الحسين عليه السلام خطابه الى جيش الكوفة قائلاً:

«قد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وانكم لا تسلموني ولا تخذلونني، فان تمتم عليّ بيعتكم تصيبوا رشدكم، وانا الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسي مع انفسكم واهلي مع اهلكم فلكم في أسوة، وان لم تفعلوا ونقضتم عهدي ونقضتم بيعتي فلعمري ما هي لكم بنكير. لقد فعلتموها بأبي واخي وابن عمّي مسلم بن عقيل. عودوا الى رشدكم وانسبونني وانظروا هل يحق لكم قتلي وانا سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابن ابن عمه وهو اول

(١) ابن سعد، مجلة تراثنا - العدد العاشر ص ١٧٨، ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٨.

(٢) ابن سعد - تراثنا ص ١٧٨.

القوم اسلاماً واعمامي جعفر والحمزة والعباس. الم تسمعوا رسول الله يقول عني وعن اخي: «الحسن والحسين سيّدا شباب اهل الجنة»، وان لم تصدقوا فاسألوا جابر بن عبدالله الانصاري وابا سعيد الخدري وزيد بن ارقم، فهم احياء»^(١).

ولم يكن الحرب بن يزيد يتصور حتى ذلك الوقت ان هذه التحركات ستنتهي الى حرب جدّية مع سبط رسول الله ﷺ. ولكنه لما رأى ان القضية اضحت جادّة جاء الى ابن سعد وسأله: ألم يقنعك كلام الحسين؟ فاجابه ابن سعد: «لو كان بيدي لما قتلتته».

وبعد هذه الاحداث انحاز الحرب بن يزيد الى الحسين واعتذر له عما كان منه واختار طريق الشهادة، وكان اول شهيد من انصار الامام الأوفياء^(٢).

وكان نهج امير المؤمنين عليه السلام في جميع الوقائع العسكرية والمعارك أن لا يكون البادئ بالحرب، وها هو ذا ابنه الحسين عليه السلام يتأسى بنهج ابيه فلا يبادر بالحرب. وكان عمر بن سعد هو الذي اطلق اول سهم على جيش الحسين وقال للقوم: «اشهدوا لي عند الامير بأني أوّل من رمى سهماً على جيش الحسين»^(٣).

وشبّت الحرب، وكانت في أولها على شكل مبارزة فردية فكانت خسائر العدو اكثر بكثير من شهداء الحسين. فارعب هذا المشهد عمرو بن الحجاج فصاح:

(١) ابن سعد - مجلة تراثنا، العدد العاشر ص ١٨١، ر.ك. ابن الاثير ج ٤ ص ٦١.

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ٦٤.

(٣) الطبري ج ٤ ص ٣٢٦، ابن الاثم ج ٥ ص ١٨٣.

«إنكم تقاتلون شجعان العرب ولو لم ترموهم بالحجارة ليقتلونكم»^(١).

فحمل جيش الكوفة حملة واحدة على الامام واصحابه، واستشهد خلال عدّة معارك جميع انصار الحسين حتى لم يبق معه غير اهل بيته وثم استشهد جميع اهل بيته، وانتهت المعركة باستشهاد الامام مع ٧٠ رجلاً من اصحابه.

دور الانحراف الديني في واقعة كربلاء

لقد حصلت في المجتمع الاسلامي خلال الفترة الممتدة من وفاة النبي الاكرم ﷺ وحتى واقعة كربلاء تغييرات وانحرافات ثقافية جسيمة. وبالرغم من ان غو وانتشار هذه الانحرافات اتخذ طابعاً متدرّجاً، لكن الكثير من العلماء يعتقدون ان قواعدها الاولى قد أرسيت في السنوات الاولى التي تلت رحلة النبي ﷺ.

والانحرافات التي تهّمنا في هذا الصدد هي تلك الانحرافات التي استغلها الحكّام لاستغلال الناس وتبرير جورهم واستبدادهم.

وكان لبني أميّة دور فاعل في ايجاد ونشر هذه الانحرافات، وكانوا يستغلّونها دائماً للتغطية على تصرفاتهم المعادية والمخالفة للاسلام، لانهم لم يكونوا قادرين على صياغة شخصياتهم الجاهلية المتفرعة، واخراجها بشكل ينسجم مع الاسلام. واستخلاف يزيد هو احد الاحداث التاريخية التي اثبتت ان بني أمية لا يقيمون للاسلام اي وزن، وان تظاهروا به انما هو لمجرّد التغطية على وجههم القبيح، وتبرير تسلطهم على رقاب الناس واكراه الناس على قبولهم.

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٣١، ابن الاثير ج ٤ ص ٦٧.

وقد وصف الامام الحسين عليه السلام بني أمية بقوله: «إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ وَتَرَكُوا طَاعَةَ الرَّحْمَانِ وَظَهَرُوا الْفَسَادَ وَعَطَّلُوا الْحُدُودَ وَاسْتَأَثَرُوا بِالْفِيءِ»^(١).

ومن اجل تنفيذ مخططاتهم الشيطانية الفاسدة، عمدوا الى تحريف المفاهيم الاسلامية الاصلية وجعلوا يستغلونها في موارد غير مشروعة. وسنورد فيما يلي امثلة وغناذج لتلك المفاهيم التي امتدت ايديهم اليها بالتحريف، وكان لها دور مؤثر في وقوع حادثه كربلاء المأساوية مع اسناد ذلك بالشواهد التاريخية.

طاعة الائمة، ووجوب حفظ الجماعة، وحرمة نقض البيعة

تعتبر العبارات الثلاث هذه هي من اكثر الاصطلاحات تداولاً على السنة الكثير من الخلفاء، وربما يمكن القول بانها كانت تقيم دعائم خلافتهم وتضمن بقاءها واستمرارها. والمصطلحات الثلاثة المازة الذكر صحيحة باجمعها وتشتمل على مفاهيم اسلامية أساسية دينية وسياسية. وحتى من الناحية العقلية ايضاً فان استمرار المجتمع وحفظ الحياة الاجتماعية من الانهيار يقوم على هذه المبادئ الثلاثة المهمة.

صحيح ان طاعة الامام تحظى بأهمية بالغة، لأن طاعة الامام تعني اتباع النظام الحاكم، ولكن هل يجوز اطاعة اي امام ولو كان جائراً؟ ام ان الامام يجب أن يتمتع بمجمله من الشروط والصفات ومن ضمنها العدالة والتنفيذ الصحيح والدقيق للاحكام الاسلامية؟

(١) البلاذري - ج ٢ ص ١٧١، ابن الاعثم ج ٥ ص ١٤٤، الطبري ج ٤ ص ٣٠٤.

ومما يؤسف له ان عدم وجوب العدالة اصبح امرأ مقبولاً من الناحية العملية، بل من الناحية النظرية ايضاً ارتضاه عدد كبير من الناس.

والمحافظة على الجماعة تعني عدم اثاره الاضطرابات والفتن وعدم القيام بما من شأنه تفريق وحدة الصف، وزعزعة المجتمع، ولكن هل يمكن الصمت ازاء التسلط الاستبدادي والحاكم الفاسق؟ واذا ارتفع صوت بالاحتجاج ضد مثل هذه الحكومة، هل يجب اعتباره اخلاقاً بالنظام الاجتماعي وتفريقاً لوحدة الجماعة؟!

اما عدم نقض البيعة فقد اثني عليه الاسلام كثيراً باعتباره تمسكاً بالعهد، وبالغ في مذمة نقض العهد والبيعة، ولكن اذا كان المبايع مثل يزيد او البيعة المنقوضة مثل بيعته فهل يخلّ ذلك بالجماعة؟ بل ويتوسع في هذا المبدأ بحيث يُدان المعارض ويستنكر فعله ام يجب استثناء مثل هذه الموارد من المبدأ المذكور؟

وكما سبقت الاشارة فان خلفاء بني امية ومن بعدهم خلفاء بني العباس استغلوا هذه المفاهيم بشكلها المحرف -اي بمعنى الاستفادة من هذه المبادئ الثلاثة محذوفاً منها الشروط والضوابط التي وضعها الاسلام لها- وبهذا الشكل كانوا يدفعون الناس الى القبول بحكمهم.

فعندما اراد معاوية اخذ البيعة ليزيد ذهب الى المدينة لكي يكره المعارضين فيها على المبايعه ايضاً، وكانت عائشة من جملة المعارضين، لأن اخاها محمد بن ابي بكر قد قتل على يد معاوية، ولما عرض عليها موضوع البيعة خاطبها قائلاً:

«انني قد اخذت البيعة ليزيد من جميع المسلمين، فهل تُجيزين لي نقضها. فاعتبر تلك البيعة التي ثبتت كأنها في حكم العدم وان يخلع الناس عهودهم»؟

فقال له عائشة: «اني لا ارى ذلك ولكن عليك بالرفق والتأني»^(١).

وهذه الحالة-تيين لنا كيف ان عائشة قد لانت وتساهلت في مبدأ نقض البيعة وتركت معاوية لحاله. لأن مبدأ عدم نقض البيعة وبالشكل الذي استغلّه معاوية هو من نتاج افكار عائشة وامثالها.

يقول ابن اسحق: كنا نصلي (ظاهراً في المسجد الحرام) وكان شمر بن ذي الجوشن يصلي معنا ايضاً. وبعد الصلاة رفع يديه الى السماء وقال: اللهم انك تعلم اني رجل شريف فاعف عني. فقلت له: وكيف يعفو عنك وانت ممن اشترك في قتل سبط الرسول؟ فقال: وما عسانا ان نفعل؟ لقد امرنا أمراؤنا بفعل ذلك، وكان ينبغي علينا فعل ما أمروا به وان لا نعصي لهم أمراً، لأننا لو عصينا، لكنّا شرّاً من هذه الحمير السقاعات^(٢).

وقال ابن زياد لمسلم بن عقيل بعد القبض عليه:

«يا شاقُ خرجت على امامك وشققت عصا المسلمين؟»^(٣).

وقال شرطة عمرو بن سعيد بن العاص (والي مكة) للامام الحسين عليه السلام اثناء خروجه منها: «الا تتقي الله تخرج عن الجماعة وتفرّق بين هذه الامة»^(٤).

ويعلل عمرو بن الحجاج احد قادة جيش الكوفة تلك الجريمة ويقول مفتخراً:

(١) ابن الاثم - ج ٤ ص ٢٣٧، ابن قتيبة. المصدر السابق ج ١ ص ١٨٣.

(٢) ابن سعد ترائنا، العدد العاشر ص ١٩٧، ابن حجر، لسان الميزان ج ٣ ص ١٥٢ الحمير السقاعات.

(٣) ابن الاثم ج ٥ ص ٩٨.

(٤) الطبري ج ٤ ص ٢٨٩.

«إننا لم نعص امامنا ولم نفارق الجماعة»^(١).

وعندما كان يحث جيش الكوفة على القتال كان يقول لهم:

«الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا ترتابوا في قتل من مرق عن الدين وخالف

الامام»^(٢).

وكان رجل مثل عبدالله بن عمر - وهو من جملة فقهاء اهل السنة ومحدثيهم - يعتقد لو ان الناس بايعوا رجلاً فاسقاً وغير كفوء مثل يزيد، يجب عليه انه يقبل البيعة. ولهذا فقد قال لمعاوية بشأن بيعة يزيد:

«فاذا اجتمع الناس على ابنك يزيد لم أخالف»^(٣).

وكتب أناس من امثال عُمر بن عبد الرحمن بن عوف الى الامام الحسين عليه السلام ما يلي: «التزم الطاعة وتمسك بالجماعة واعتبرها واجبة عليك»^(٤).

الاعتقاد بالجبر

ان أحد المواضيع التي كان لها دور منحرف في تاريخ الاسلام خاصة في واقعة كربلاء هو الاعتقاد بالجبر، يقول ابو هلال العسكري: «ان معاوية كان هو المبتكر له»^(٥).

(١) نفس المصدر ص ٢٧٥.

(٢) الطبري - ج ٤ ص ٣٢١.

(٣) ابن سعد - مجلة تراثنا - العدد العاشر ص ١٦٧.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) ابو هلال العسكري - الاوائل - ج ٢ ص ١٢٥.

فقد قال عن بيعة يزيد:

وان أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للقضاء الخيرة من امرهم»^(١).

وقال عبيدالله بن زياد للامام السّجاد: «أولم يقتل الله علياً؟».

فقال له الامام: «كان لي أخ يقال له علي، اكبر منّي قتله الناس؟»^(٢).

ولمّا تعرّض عمر بن سعد للانتقاد والمذمة لمشاركته في قتل الامام الحسين عليه السلام قال: «كان ذلك قدراً من الله مقدّراً»^(٣).

وكان كعب الاحبار اليهودي المتظاهر بالاسلام يتملّق لبني أميّة ويقول رجماً بالغيب: «ان الخلافة لن تصير الى بني هاشم».

رغم ان الخلافة والحكومة صارت فيما بعد بيد العباسيين والعلويين وكلاهما من بني هاشم ونقلت نفس هذه النبوءة ايضاً عن عبدالله بن عمر انه قال:

«فاذا رأيت الهاشمي قد ملك فقد ذهب الزمان»^(٤).

وبناءً على هذه التحريفات لم يعتبر الكثير من المؤرخين والباحثين السّنة ثورة الامام الحسين عليه السلام - ثورة ضد الفساد، ووصفوها بأنّها تمرد غير شرعي لا أكثر^(٥).

(١) ابن قتيبة - المصدر السابق ج ١ ص ١٨٧ و ص ١٨٣.

(٢) ابن سعد - مجلة تراثنا - العدد العاشر ص ١٨٨.

(٣) ابن سعد الطّبقات الكبرى ج ٥ ص ١٤٨ ط بيروت.

(٤) ابن عساكر - ترجمة الامام الحسين من تاريخ دمشق ص ١٩٣.

(٥) تاريخ الاسلام - جامعة كامبردج ج ١ ص ٨١ النص الانجليزي. وراجع كتاب الشبراوي الاتحاف بحب الاشراف، ترجمة الحسين عليه السلام.

موقف أهل الكوفة من واقعة كربلاء

ورد في كتب التاريخ كما شاع بين الناس بما يشبه المثل ان اهل الكوفة اهل غدر وخيانة وقلماً تجدلهم وفاءً بالعهد، وقد اشرنا سابقاً الى نفسية اهل الكوفة وقلنا انهم كانوا عجولين وانهم يتعجلون دوماً في اتخاذ قراراتهم وغالباً ما كان ينتهي ذلك بضررهم وضرر حكامهم. فقد كانوا سريعي الغضب وسريعي الرضى يسارعون الى الاستسلام كما يسارعون الى التمرد، وهذه الصفات الى جانب بعضها كانت النفسية السائدة عند اولئك القوم. وسنتحدث فيما يلي عن موقفهم من حادثة كربلاء.

كان اهل الكوفة يتألفون من مجموعة من القبائل المختلفة التي كانت تركيبها عرضة للتغير والتبديل اثناء الادوار المختلفة للحكام. وكانت تلك التغيرات في تقسيمات القبائل تتم بما يتناسب ومصالح الحكام. وفي نفس الوقت كان الحكام يراعون رؤساء القبائل واشرافها لعلمهم بأن نفوذهم وسيطرتهم في كثير من الحالات اكثر واقوى من سيطرة ونفوذ الحكام والولاة.

وكان الشيعة يؤلفون جزءاً من سكان هذه المدينة. ورغم ان بعض القبائل اشتهر بالتشيع الا أنه لا يمكن القول ان القبيلة الفلانية كان جميع افرادها شيعة.

وهكذا فان الشيعة كانوا ينتشرون في القبائل ولم يكن فيما بينهم انسجام كامل، وكانت تحكمهم النزعات القبلية الخاصة إضافة الى تلك النفسية الكوفية التي تهيمن عليهم.

ولم يكن عدد الشيعة آنذاك كبيراً جداً، اذ ذكر ان حجر بن عدي عندما وقف في مسجد الكوفة بوجه زياد انضم اليه نصف او ثلث الحاضرين في المسجد.

لكن الكثير منهم كانوا يشايعون اولاد علي في المسائل السياسية فحسب فيصدق على هؤلاء الاشخاص كلمة التشيع السياسي اكثر من كلمة التشيع العقائدي. وبناءً على هذا لم يكن شيعة امير المؤمنين عليه السلام الحقيقيون كثيرون العدد والعدة.

لا شك ان اهل الكوفة استدعوا الامام الحسين عليه السلام ولم ينصروه، بل قد كان لهم دور مباشر في قتله. لكن علينا أن نرى من هم أولئك الناس؟ ومن الذين كتبوا الكتب ولماذا لم ينصروه؟ ...

لابد من الاشارة اولاً الى ان غط التفكير الشيعي في الكوفة قد احرز تقدماً مُلفتاً للنظر، فان اهل الكوفة لم يعارضوا الامويين فحسب بل وعارضوا بني العباس ايضاً لأنهم غصبوا حق آل علي في الحكم. ولهذا السبب نجد المؤرخين والمحدثين المرتبطين بالبلاط الاموي كانوا شديدي الكراهية لاهل الكوفة وكذلك الحال بالنسبة للعلماء المرتبطين بالسلطات العباسية فانهم كانوا ينظرون الى الكوفة بنفس تلك النظرة الحاقدة. والظلم الذي تعرضت له الشيعة لم يكن منحصراً بالظلم السياسي فحسب بل تعداه الى الناحية الفكرية والعقائدية اذ كان الشيعة يُتهمون دوماً بالكفر والانحراف عن الاسلام من قبل العلماء المأجورين. وهذا أمر لابد من ملاحظته والامعان فيه عند مطالعة ونقل الاحداث التاريخية، فان المؤرخين كانوا ينظرون الى الوقائع التاريخية من منظار معادٍ للتشيع وحاقدين على الشيعة. ومن خلال الالتفات الى هذه النقطة يتحقق لدينا ان مثل هؤلاء المؤرخين يحاولون دائماً وصف الشيعة بعدم الوفاء، ويلقون بجريمة عدم دفاع الكوفة عن الحسين عليه السلام في رقاب الشيعة. في الوقت الذي سيظهر على ضوء الملاحظات التالية ان أهل الكوفة كانوا لا يقوون على الدفاع عن الامام الحسين عليه السلام لعدم توفر المعنويات الكافية لذلك، فلو أنهم عزموا على التضحية الى حد الايثار لكان

بإمكانهم تغيير الاوضاع الى حدّ ما. هذه خلاصة رأينا في هذا الصدد
وسنستعرض فيما يلي مجموعة من الشواهد التي تثبت ذلك:

لقد كان بإمكان اهل الشام ان يتحمّلوا يزيداً بكل يسرٍ وسهولة، لكن هذا الامر كان في منتهى الصعوبة بالنسبة لاهل الكوفة، لذا فعندما استخلف يزيد شرع اهل الكوفة برفع لواء المعارضة، ونظراً لأن الكثير من اهل الكوفة لم يكن لديهم البديل المناسب ليزيد، فقد توجّهوا صوب الحسين بن علي عليه السلام. وفي هذا السياق نلاحظ انه عندما وجّهت الدعوة من قبل الشيعة فانها قد حظيت ليس فقط بدعم الناس العاديين ذوي القلوب الطيبة والنوايا الصافية -وهذا ما تتصف به الطبقة العامة من كلّ شعب- بل وحظيت كذلك بدعم رؤساء القبائل والجماعات الذين وجدوا مناصبهم مهددة بالخطر او الذين تأثروا بالاجواء الروحية والمعنوية التي سادت عامّة الناس فاظهروا تعاطفهم مع الثورة ودعمهم لها. فكان نتيجة ذلك ان ساد الكوفة جو كاذب من الدعم والتأييد للامام، وقد ساعد على اشاعة هذا الجو وضعية والي الكوفة آنذاك النعمان بن بشير اذ كان رجلاً هادئاً يؤثر العافية واستمر هذا الجو في الانتشار بسرعة وعلى نطاق واسع الى حين تسلّم ابن زياد ولاية الكوفة.

لكنّا لو امعنا النظر في خطبة الامام الحسين عليه السلام التي قال فيها:

«وما كانت كتبكم اليّ الا مكيدة لي وتقرباً الى ابن معاوية»^(١) لظهر امامنا احتمال آخر ايضاً بشأن الدعوة التي وجهها اليه اشراف الكوفة، وهو أنهم أثاروا مثل هذه الجو عن قصد، لكي يجبروا الامام الى العراق حتى يقتل بتلك الصورة

(١) البلاذري، ج ٢ ص ١٨٥، ابن الاثم ج ٥ ص ١٦٩.

المأساوية.

وعلى أيّ حال فقد كان القسم الأعظم من ذلك الجو إيجابياً، حتى ان مسلم حمل نفس الانطباع ايضاً بعد مشاهدته لأوضاع الكوفة وكتب الى الامام يستدعيه اليها على اساس ذلك الانطباع.

ضغط ابن زياد على اهل الكوفة

قلما تجد أناساً يجبرون على اعلان معارضتهم لأية سلطة او يبدون مقاومة لها فيما اذا كان على رأس تلك السلطة طاغوتاً متجبراً جائراً.

ففي عهد حكومة النعمان بن بشير الذي كان رجلاً متساهلاً ولا يتدخل كثيراً في امور الناس، كان اهل العراق يعبرون عن آرائهم ومعتقداتهم بحرية ومن جملة ذلك ميولهم نحو آل بيت النبي ﷺ، وعلى هذا الاساس اعلنوا مساندتهم لمسلم عند دخوله الكوفة. الا أن مجيء ابن زياد وجلسه محل النعمان قد غير الاوضاع في الكوفة رأساً على عقب.

لقد اربعت قسوة ابن زياد نسبة كبيرة من اهالي الكوفة، حيث رأى اولئك الملولون المتأرجحون الذين يتعجلون في قراراتهم ولا يثبتون على امر انفسهم، مهتدين من قبل ابن زياد ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل انهم انهاروا تماماً في ظل الشائعات التي تشير الى قرب وصول جيش الشام.

وقد اتسع نطاق هذا التراجع والتخاذل عندما تأكد اشراف الكوفة من ثبات واستقرار حكم بني أمية فانضموا الى ابن زياد ولم تكن عامة الناس يرون من مصلحتهم معارضة رؤساء قبائلهم كما حصل عند هجوم مسلم على دار ابن

زياد، اذ ان الاشراف هم الذين اوصلوا انصار مسلم الى اقل عدد ممكن عن طريق الترغيب والترهيب، واثبتوا بذلك مدى قدرتهم على التأثير في الناس^(١).

بل لو ان احد رؤساء القبائل اعلن معارضته فان افراد قبيلته ما كانوا يجروون على مساندته في مقابل استبداد ابن زياد. واذا كان هذا وضع المساندة والحماية القبلية الذي كان يعتبر الاكثر اهمية وتأثيراً في المجتمع العربي آنذاك، فماذا سيكون عليه حال مساندة الامام الحسين عليه السلام دينياً. فان هاني بن عروة، رئيس قبيلة بني مراد، كما ينقل عنه المؤرخون كان اذا اراد الخروج للحرب سار معه اربعة آلاف فارس، وثمانية آلاف راجل. ولو اضفنا اليهم قسماً من بني مراد من كندة لبلغ جيش هاني الثلاثين الفا. ورغم كل هذا فلما قبض عليه وسحبوه في سوق الكوفة - كما امر ابن زياد - ظل يستغيث ويندب قبيلته لكن احداً لم يفته ولم يلبّ نداءه^(٢). ومن ثم قُتل بعد ذلك ولم يتجرأ احد على الاعتراض.

وعندما أجبر الامام الحسين عليه السلام على النزول في كربلاء خطب ابن زياد بالناس وكلمهم بلغة الترغيب والترهيب وحثهم على المشاركة في قتل الامام قائلاً:

«فأيا رجلٍ وجدناه بعد يومنا هذا متخلفاً برئت منه الذمة»^(٣).

وهذا يعني انه هدد المتخلفين بالقتل.

وفي هذا السياق امر ابن زياد القعقاع بن سويد بملاحقة المتخلفين وتقديمهم

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٧٧.

(٢) المسعودي - مروج الذهب ج ٣ ص ٥٩.

(٣) البلاذري - المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٨، الدينوري - الاخبار الطول ص ٢٥٥.

اليه . فقبض هذا على رجل من قبيلة همدان كان قد جاء الى الكوفة في طلب ارث ابيه ، وقدمه اليه على انه متخلف فضربوا عنقه كما امر ابن زياد . ومنذ ذلك الحين ، كما يذكر بعض المؤرخين ، «لم يبقَ مُحْتَلَمٌ بالكوفة الاّ خرج الى العسكرو بالنخيلة»^(١).

وبدأت السيوف تتأهب لقتل الحسين عليه السلام بينما يمكن القول وبكل اطمئنان وثقة ان الخيار لو ترك للناس لما فعلوا هذه الفعلة ، عندها يمكننا ان ندرك بشكل افضل معنى مقولة الفرزدق في وصفه لأهل الكوفة : «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»^(٢).

او كما ورد في رواية أخرى أنّه قال :

«أنت احب الى الناس ، والقضاء في السماء ، والسيوف مع بني أميّة»^(٣).

ولم يكن بميسور الناس في ظل تلك الظروف عدم التوجه الى كربلاء لأن عدم الذهاب كان يعني القتل . ولم يكن امام الشيعة او غيرهم ممن لم يكونوا راغبين في الذهاب سوى طريقين لا ثالث لهما : اما الانضمام الى الامام او الابتعاد عن دائرة الصراع.

ولا ريب ان ما ذكرناه لا يعني اعذار الناس من جهة التكليف الديني .

(١) نفس المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٩٠ ، ابن الاثم ج ٥ ص ١٢٤ - ١٤٠ ، الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٤٥ .

(٣) ابن سعد - مجلة تراثنا - العدد العاشر ص ١٧١ ، ترجمة الحسين من تاريخ دمشق ص ٢٠٦ .

فرار الناس وانحيازهم الى معسكر الحسين

تفيد بعض الروايات القديمة جداً بأن اهل الكوفة كانوا يُرسلون بالتهديد والاكراه لمحاربة الامام الحسين عليه السلام، ولهذا السبب فقد فرّ الكثير منهم في وسط الطريق والتحقوا بمعسكر الامام الحسين.

فان الارقام المنقولة عن عدد جيش ابن زياد في كربلاء هي عادة الارقام المنقولة في اثناء تعبئة الجيش في النخلة، في حين ان الذين حضروا كربلاء من مجموع الجيش المرسل من الكوفة -وكما سيتضح فيما بعد- لا يتجاوز العشرة آلاف رجل بل ربما كان اقل من ذلك .

ولا يشكّل هذا الرقم سوى عدد ضئيل من سكان الكوفة الذين ينقل بعض المؤرخين انه كان يحضر في مسجدها وحده اربعون ألفاً^(١).

والذي يظهر لنا من مجموع النقاط السابقة ان الكثير من الناس كانوا قد اخفوا انفسهم في الكوفة، او هربوا من الجيش في منتصف الطريق.

كتب البلاذري بهذا الصدد: «وكان الرجل يبعث في الف فلا يصل الا في ثلاثمائة او اربعمائة واقل من ذلك كراهة منهم لهذا الوجه»^(٢).

وكتب الدينوري ايضاً: «ان ابن زياد كان اذا بعث قائداً وارسل معه عدداً كبيراً من الجنود الى كربلاء فانهم يصلون الى كربلاء ولم يبق منهم الا القليل كانوا يكرهون قتال الحسين فيرتدعون فيتخلفون»^(٣).

(١) التشيع في مسار التاريخ ص ١٦٠ «النص باللغة الانجليزية».

(٢) البلاذري انسان الاشراف ج ٢ ص ١٧٩.

(٣) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٥٤.

وكان أيضاً من اهل الكوفة من يحاول الانضمام الى الامام ، فرغم أنّ الامام لم يمض على وصوله الى كربلاء حتى استشهاده اكثر من ثمانية أيّام وان الكثير من الناس لم يكن يتصوّر ان القضية جاذّة الى هذا الحد. فهذا الحر بن يزيد مع منصبه العسكري لم يدرك وخامة الاوضاع حتى صباح العاشر من المحرم فأنحاز الى الامام. ولهذا السبب فان اكثر الشيعة وان كانوا قد عقدوا العزم على مساندة الامام فانهم لم يتعجلوا في الأمر، ولم يكن احد منهم يفكر في الانضمام الى الامام سوى نلّة قليلة من الرجال من جملتهم نافع بن هلال المرادي، وعمر بن خالد الصيداوي، وسعد من موالي عمر بن خالد، ومجمع بن عبدالله العائذي وهم من قبيلة مذحج وقد التحقوا بالامام^(١). ورغم كل ذلك فقد استطاع الانضمام اليه ايضاً قبيل حلول اليوم العاشر كل من مسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر. وكما التحق به -استناداً الى رواية ابن سعد- ٢٠ رجلاً صبيحة عاشوراء^(٢). وذكر ابن قتيبة انهم كانوا ٣٠ رجلاً^(٣).

يقول ابن سعد وهو من اقدم رواة التاريخ: «جعل الرجل والرجلان والثلاثة يتسللون الى الحسين من الكوفة».

وعمليات الهروب هذه هي التي دفعت ابن زياد الى البحث عن حلّ لها. فامر عمرو بن حريث ببحث الناس للاجتماع في النخيلة وهو معسكر الكوفة الشهير، والسيطرة على الجسر الذي يمر من خلاله طريق الكوفة الى كربلاء، ومنع

(١) البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ٧٢.

(٢) ابن سعد، تراثنا - العدد العاشر ص ١٧٨.

(٣) ابن قتيبة، الامامة والسياسة ج ٢ ص ٧.

الاشخاص الذين يحاولون التوجّه الى معسكر الحسين عليه السلام^(١). كما امر الحصين بن غير بمراقبة المنطقة الممتدة من القادسية وحتى قطّطانة، فلا يسمح بالمرور الا لمن يتأكد انه متّجه الى مكة، ويمنع اولئك الذين يريدون الوصول الى الحسين عليه السلام عن طريق الحجاز^(٢).

كما كتب الى واليه في البصرة ان ينصب الكمائن ويراقب جميع الطرق ويعتقل ممن يريد الذهاب من هذه الطرق نحو الحسين عليه السلام وامر كذلك بمراقبة جميع الطرق بين واقصة في طريق الشام وحتى طريق البصرة، ولا يدعون احداً يلج ولا أحداً يخرج منها^(٣).

لقد تمّت مراقبة الطرق والسيطرة على مراكز المواصلات بشكل دقيق، حتى ان سبعين رجلاً من قبيلة بني اسد كانوا يقيمون على مقربة من كربلاء، وكانوا قد عزموا على الانضمام الى معسكر الحسين بتشجيع من حبيب بن مظاهر، فتم ابعادهم من تلك المنطقة على يد أرصاد ابن زياد^(٤). وكان لهذه السيطرة اثرها الفاعل في عدم مساندة اهل الكوفة للامام. وبالإضافة الى هذا العامل كانت هناك ايضاً عوامل اخرى منها:

١ - كانت عدّة شخصيات متنقّذة من اهل الكوفة حبيسة سجون ابن زياد من ضمنهم المختار بن ابي عبيدة.

٢ - لقد مورس التهديد بوحشية وقسوة بالغة طالّت حتى غير المواليين لأيّ

(١) ابن سعد، ترائنا، العدد العاشر ص ١٧٨.

(٢) الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٤٣.

(٣) البلاذري - انساب الاشراف، ج ٢ ص ١٧٣، الطبري ج ٤ ص ٢٩٥.

(٤) البلاذري - المصد السابق - ج ٢ ص ١٨٠، ابن الاثم ج ٥ ص ١٦٠.

الفريقين فشمّلهم القتل والتعذيب فما بالك بمن يريد الانضمام الى جانب الحسين عليه السلام.

٣ - وكان الترغيب عاملاً آخر ذا اهمية بالغة ايضاً، فقد خطب ابن زياد يوماً بأهل الكوفة فقال: «ان يزيد بعث باربعة آلاف دينار ومائتي درهم لأقسامها بينكم ثم أوجّهكم الى كربلاء لمقاتلة عدوّه»^(١).

تعلق الناس بالعطاء

لما رأى الامام تصميم اهل الكوفة على قتله سألهم في خطابٍ له:

«يا هؤلاء اسمعوا يرحمكم الله ما لنا ولكم، ما هذا بكم يا اهل الكوفة؟ قالوا: خفنا العطاء. قال: ما عند الله من العطاء خير لكم»^(٢).

لكن احداً منهم لم يلتفت الى كلامه. فقد ظهر لنا من مجموع هذه الشواهد ان بعض الناس -ومنهم الاشراف والمرتبطون بهم- كانوا من الاجرام وسوء الخلق ما يمكن معه نعتهم باقبح الاوصاف والنعوت البذيئة. ورغم كل ذلك فقد كان في الكوفة -مع ما كان يسودها من اجواء الاستبداد والطغيان- اشخاص كثيرون يودّون الالتحاق بالامام فلا يستطيعون.

ومن الملفت للنظر هنا ان البلاذري قال: «كان سعد بن عبيدة يقول: الكثير من شيوخنا من اهل الكوفة كانوا يرفعون ايديهم فوق التلال بالدعاء ويقولون: اللهم انزل عليه نصرتك. فقليل لهم: يا اعداء الله الا تنزلون

(١) ابن الاثم ج ٥ ص ١٥٧.

(٢) ابن سعد. تراثنا - العدد العاشر ص ١٧٨.

تقويم سفر الامام الحسين عليه السلام الى العراق

نحاول فيما يلي وبغض النظر عن البعد الغيبي لحادثة كربلاء وهو ما سنأتي على شرحه في فصل آخر وضع تقييم سياسي ملخص لسفر الامام الحسين عليه السلام الى العراق. فهل كان للامام طريق آخر سوى الذهاب الى العراق أم لا؟ وهل كان من المحتمل إيجاد مركز للمعارضة ضد حكومة آل أمية، وبلورة ثورة تطيح بعرش يزيد؟

فنحن نواجه في كتب التاريخ سلسلة من الاعتراضات التي طرحت من قبل شخصيات متعددة تركز بأجمعها على نقطة واحدة، هي ان سفر الامام عليه السلام الى العراق لن يحقق اية فائدة ولا ينطوي على مصلحة. ففي اعقاب معارضة الامام لموضوع البيعة وتوجهه نحو مكة، كان احتمال السفر الى العراق مطروحاً. فهناك بعض الروايات تشير الى أن عبدالله بن مطيع حذر الامام من الذهاب الى الكوفة وهو لا زال في منتصف الطريق بين المدينة ومكة^(٢).

ولما دخل الامام مكة كان عدد المعترضين يتزايد بشكل ملحوظ. ونشير فيما يلي الى عدد من الشخصيات التي كانت تعارض ذهاب الامام الى الكوفة.

١ - عبدالله بن عباس؛ حيث اقترح على الامام صرف رأيه عن الذهاب الى العراق، والتوجه بدلاً من ذلك نحو جبال اليمين لأن هناك منطقة جبلية مناسبة للكر والفر هذا من جهة، ومن جهة اخرى فأن عدد شيعة ابيه كبير جداً هناك.

(١) البلاذري ج ٢ ص ٢٢٦.

(٢) ابن الاثم - ج ٥ ص ٣٧، الدينوري، الاخبار الطوال ص ٢٨٨.

لذلك فان المكان الوحيد الذي يضمن سلامة الامام هو ذلك المكان^(١).

٢ - محمد بن الحنفية ؛ وقد عرض نفس هذا الاقتراح حسب رواية ابن الاعثم^(٢).

٣ - عمرو بن عبدالرحمن بن هشام حيث قال: «الناس عبيد الدينار والدرهم وهما اليوم بيد الحكّام، فايك أن تذهب الى العراق»^(٣).

٤ - عبدالله بن عمر فقد كان يضع امام الحسين عليه السلام وبمتهى الرعب والخوف موضوع اراقة الدماء بين الامة^(٤).

٥ - عبدالله بن جعفر حيث كان يشير الى مقتل الامام في العراق ويقول: «إني اخاف ان يُطفأ نور الله وانت روح الهدى وامير المؤمنين، فلا تعجل الى العراق فاني اخذ لك الامان من يزيد»^(٥).

٦ - ابو سعيد الخدري، إذ يَحتمل انه قال له: «لا تخرج على امامك»^(٦).

٧ - مسور بن مخرمة ؛ كتب للامام: لا تغتر باهل العراق^(٧).

(١) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٢٤. ابن الاعثم ج ٥ ص ١١٣، الطبري ج ٤ ص ٢٨٧.

(٢) ابن الاعثم ج ٥ ص ٣٢.

(٣) البلاذري - المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦١، ابن الاعثم ج ٥ ص ١١٠، الطبري ج ٤ ص ٢٨٧.

(٤) ر. ك. البلاذري ج ٢ ص ١٦٣، ابن الاعثم ج ٥ ص ٣٩، ابن سعد، تراثنا العدد العاشر ص ١٦٦.

(٥) ابن الاعثم ج ٥ ص ١١٦، الطبري ج ٤ ص ٢٩١.

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) نفس المصدر السابق.

٨ - ابو واقد الليثي ، وقد قال للامام ما قاله مسوّر بن مخرمة^(١).

٩ - الفرزدق ، حيث قال للامام في منتصف الطريق بين مكّة والكوفة:
«قلوب الناس معك وسيوفهم عليك»^(٢).

ويلاحظ في كتب التاريخ الكثير من هذه الاعتراضات او النصائح المشفقة ،
ويحتمل ايضاً ان يكون الكثير من الرواة المغرضين هم الذين انتحلوا مثل هذه
القائمة الطويلة لغرض تخطئة موقف الامام عليه السلام.

الجواب على الاعتراضات

وقبل أن نذكر استدلال الامام نفسه بخصوص سفره الى العراق يجب اولاً
استعراض مقدمة توضّح لنا الارضية التي يقوم عليها ذلك الاستدلال.

ان تاريخ السياسة في الماضي والحاضر يعكس لنا حقيقة واضحة هي إنّ
كل شخص يسعى لتحقيق اهداف سياسية معينة لا يحققها غالباً من غير ان يواجه
اية موانع او عراقيل. فمن يسعّ لاستلام السلطة او اي هدف آخر سلبياً كان او
ايجابياً يتعامل دوماً مع الاحتمالات. ففي عالم السياسة يتعرض حتى اكثر الناس
نجاحاً وشعبية الى مخاطر مثل الاغتيال و... لذلك يجب أن لا نفكر تفكيراً مثالياً
ونتصوّر انه يجوز لنا التحرك فقط في الظرف الذي نرى فيه الوصول الى الهدف
بات قطعياً ولا يوجد هناك ايّ احتمال للخسارة او الفشل ، فان مثل هذا التصوّر لا
تؤيده الحقائق التاريخية مطلقاً، بل انها تعكس لنا سذاجة من يحمل مثل هذه

(١) نفس المصدر السابق ص ١٦٦.

(٢) البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٦٥.

الرؤى السياسية .

ولا يختلف الامر هنا ايضاً فيجب أن لا نتصور ان الامام كان مطمئن البال بشأن نجاحه في هذا السفر ولم يكن يتوقع ادنى احتمالٍ للفشل . فمن لا يقبل سفر الامام اساساً لا ينبغي له ان يذكر شاهداً تاريخياً بأن احتمال الفشل كان قائماً ، ومن يقبل بسفر الامام لا ينبغي له ان يتوهم بأن احتمال الفشل لم يكن قائماً مطلقاً . لان اهل الكوفة قد أختبروا قبل هذا ايضاً .

ومع اخذ هذا الامر بنظر الاعتبار ، يجب اولاً ان ندرس وضع الامام في تلك الظروف ثم ندخل في حساباتنا الشواهد التاريخية والاجراءات التي اتخذها الامام ونقيّم على اساسها مسألة هجرته الى العراق .

لقد كان الامام يأبى مصلحة يزيد والاقرار بحكومته ، وان أدّى ذلك الى استشهاده . وكان يسعى في نفس الوقت - فيما لو امكن - الى اشعال فتيل الثورة ضد يزيد وانقاذ حكومة المجتمع الاسلامي من مخالب بني أمية .

كانت هذه هي الحدود التي تحدد ملامح التفكير السياسي لدى الامام ، وكان على الامام اختيار طريقه ضمن هذا الاطار ، لي طرح على ضوء ذلك آراءه وردود فعله تجاه الاقتراحات والاعتراضات وحيث كان هذا الاطار لا يقبل التغيير ابداً . لذا فان اي اقتراح لا ينسجم معه بشكل من الاشكال يعتبر اقتراحاً مداناً ومرفوضاً من قبل الامام .

ومن جهة أخرى فان عالم السياسة آنذاك له اطاره الخاص ايضاً وتشكل الاحتمالات جزءاً منه ، اذ كان يُفترض على الامام ايضاً مطابقة نفسه معها ، بحيث لا يتعرض اطاره الخاص الى الانحراف والتغيير اثناء العمل ، ولا يسير في اتجاه

معاكس للحقائق الموجودة آنذاك.

ووفقاً للمتطلبات السياسية السائدة في ذلك العصر، لم يكن يزيد يسمح لرجل كالامام الحسين عليه السلام بعدم مبايعته ويتركه على قيد الحياة، لأن الحسين عليه السلام لم يكن بالشخص الذي لا يبالي بأمر يزيد، ويحيا حياته العادية كرجل غير مسؤول. لذا فان الخيار الوحيد امام يزيد هو قتل الامام في حالة عدم مبايعته. ومن ناحية أخرى فانه لم يكن لدى الشام بل ولا المدينة ومكة أو الحجاز واليمن و... المقومات والظروف الملائمة للمقاومة والدفاع امام يزيد، ومساندة ودعم الحسين عليه السلام والحيلولة دون قتله. وليس غير الكوفة منطقة تتوفر فيها امكانية الدفاع او المقاومة. ومع ان سوابق الكوفة وسلوك اهلها مع امير المؤمنين عليه السلام والامام الحسن عليه السلام في مواجهة الاعداء كان يضعف هذا الاحتمال، لكن تلّهب اهل الكوفة لقدم الامام اليهم، والوعود التي قطعوها بالتصدي لبني امية، ومساندة الامام، والرسائل والكتب التي انهالت على الامام من سادة الكوفة واشرافها وعامة اهلها كان يقضي على هذا الضعف. وكلما كان اصرار الناس على دعم الامام يزداد كلما ازدادت معه نسبة احتمال نجاح الامام في مقابل العدو، لكن احتمال الخطر والفشل لم يكن قد زال مائة بالمائة.

فلو لم يبادر الامام الى انتخاب هذا الطريق، ما الذي كان ينبغي له ان يفعله؟ هل كان يزيد بالشخص الذي يرضى ببقاء الامام حيّاً لو لم يبايع؟ وهل كان الامام بالشخص الذي يبايع يزيد ولا يبالي بالاوضاع الاحادية والمعادية للاسلام التي تحتاج المجتمع والامة الاسلامية ويقف ازاءها موقف المتفرّج ويعيش كشخص غير مسؤول لا يفكر سوى في حياته ومعيشته ومصالحه؟

ولو ان الامام لم يذهب الى الكوفة وبقي في مكة حتى قُتل فيها. ألم يكن

هؤلاء الاشخاص يقولون لماذا تجاهل الحسين كل هذه الكتب التي وردته من الكوفة ولم يستجب لاصرارهم ولم يلبّ دعوتهم ويذهب الى هناك لكي يأمن المخاطر في ظل فرسان الكوفة، وليحقق اهدافه السياسية بنجاح باهر؟

وامّا اعتراض المعارضين فقد كان يدور غالباً على عدم خروج الامام عليه السلام وهو ما كان يعني قبول حكومة يزيد من قبله، وهو امر لا يستسيغه الامام قطعاً.

بل إنّ الامان الذي كان عبدالله بن جعفر يريد اخذه له من يزيد، كان يوحي بهذا المعنى أيضاً. لأنّ أمان يزيد كان سيكون مشروطاً طبعاً بعدم خروج الامام، في حين ان الامام ما كان ليخضع مطلقاً لبيعة يزيد.

لنر الآن كيف يعلل الامام نفسه هذه المسألة وكيف تثبت الشواهد التاريخية ذلك.

إنّ من جملة النقاط التي اشار اليها الامام مرّات متعددة هي ان يزيد وعماله لم يكونوا يسمحون للامام بمواصلة حياته في مكة، وأنّه سيقتل على أيّة حال. ونشير فيما يلي الى عدّة موارد:

١ - قال الامام الحسين عليه السلام ردّاً على اعتراض ابن عباس: «لئن أقتل خارجاً منها بشبرين احبّ اليّ من أن أقتل خارجاً منها بشبر»^(١).

٢ - وقال ردّاً على اعتراض ابن عمر: «ان القوم لا يتركونني.. فلا يزالون حتى أبايع واني كاره فيقتلونني».

٣ - وقال ردّاً على اعتراض آخر ما يلي: «لو كنت في حجر هامة من هوام

(١) البلاذري - انساب الاشراف ج ٢ ص ١٦٤، ابن الاثم، ج ٥ ص ١١٣.

الارض لاستخرجوني وقتلوني»^(١).

٤ - وقال في موضع آخر لما سُئل عن سبب تعجيله: «لو لم أُعجل لأُخذت»^(٢).

٥ - وقال في موضع آخر ايضاً: «ان بني أمية اخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت»^(٣). هكذا كان الامام عليه السلام يدرك الامر، ولا يوجد شاهد واحد يدل على ان الامام ان لم يبايع يزيد بقي حياً.

واما الجانب الآخر من القضية وهو موضوع سفر الامام الى العراق، فانه حين قرر الخروج من مكة هل كان بإمكانه اختيار غير الكوفة؟ وما هو المكان الذي كان عليه انتخابه من الدولة الاسلامية؟ لقد بلغت الامام رسائل كثيرة من اهل العراق خلال الفترة التي اقامها في مكة. وكانت تلك الرسائل من الكثرة والقاطعية بحيث اصبحت فيما بعد سبباً رئيساً بالنسبة للامام للذهاب الى العراق.

وكان الامام يقول عندما يُسأل في مواضع متعددة عن سبب ذهابه الى الكوفة: ان رسائل اهل العراق هي السبب^(٤). فانه لدى اجابته على سؤال الحرّ وعمر بن سعد^(٥) وبحير بن شدّاد^(٦)، وعبدالله بن عمر^(٧)، بل في خطابه امام جيش

(١) ابن الاثم ج ٥ ص ١١٦.

(٢) الطبري - ج ٤ ص ٢٩٠.

(٣) ابن الاثم ج ٥ ص ١٢٤.

(٤) البلاذري - انساب الاشراف، ج ٢ ص ١٦٣ - ١٦٥.

(٥) البلاذري - انساب العرب ج ٢ ص ١٧٧، ابن الاثم ج ٥ ص ١٣٨.

(٦) ابن سعد، مجلة تراثنا، العدد العاشر ص ١٧٣.

(٧) نفس المصدر السابق ص ١٨١.

الكوفة صبيحة العاشر من المحرم^(١) كان يعلل مجيئه الى الكوفة بالكتب التي وردته من اهلها، وكان يقول دائماً في ردّه على اسئلة السائلين عن سبب ذهابه الى العراق: «خلفي مملوءة بالكتب»^(٢).

وعقب استلامه لكتاب مسلم الذي يدعوه فيه الى الحركة الفورية صوب الكوفة، عجل الامام بالخروج من مكّة وقطع المسافة الفاصلة بين مكة والكوفة باسرع ما يمكن. ولكن عندما بلغه خبر استشهاد مسلم^(٣) طرأ تغيير واضح على سرعة حركة القافلة، وكلما انقضى عليه زمن قلّت سرعة القافلة اكثر. ومع ذلك لم يثن ذلك الامام وانصاره مطلقاً عن مواصلة المسير صوب الكوفة. فرغم ان خبر استشهاد مسلم وهاني كان يقلل بالتدريج من تفاؤل الامام وثقته باهل الكوفة، لكن احتمال الانتصار في الكوفة لم يكن قد زال مائة بالمائة. وبعبارة أخرى ان قافلة الامام وان ترزعزع املها بالنصر العسكري كلّما اقتربت من الكوفة، لكن تقييم الامام للاوضاع ومشاوراته مع اصحابه بشأن الكوفة ومواصلة الحركة نحوها كان يشير الى امكانية بلوغ النصر.

اذ كانوا يقولون له: «ما انت بمسلم بن عقيل، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك اسرع». وكانوا يقصدون من هذا الكلام ان عدم شهرة مسلم و... ربما هي السبب في عدم استقطابه للناس كما ينبغي، الا ان شخصيتك لها جاذبية أخرى، وهذا الكلام لم يكن مستبعداً طبعاً بالنسبة لمنزلة الامام. واذا ما اخذنا بالحسبان كتب ودعوات اهل الكوفة له خلال عشر سنوات. ولهذا السبب واصل

(١) ابن عساكر المصدر السابق ص ١٩٢.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٠٩.

(٣) الطبري ج ٤ ص ٣٠.

الامام طريقه من خلال تقييم واحد. كما يستفاد ايضاً من رواية الفتوح بان كتاب الامام الى اهل الكوفة الذي ارسله مع قيس بن مسهر الصيداوي حول وجوب الالتزام بعهودهم انما كان بعد وصول خبر استشهاد مسلم بن عقيل.

ومع ان ارضية الشك بشأن الكوفة بدأت تتسع بصورة تدريجية في نظر جيش الامام الا أن اثرها في قرار العودة لم يتضح الا بعد التقاء الامام بجيش الحر. فقدوم الحر على رأس جيش لمواجهة الامام وبلوغ نبأ تحشد اربعة آلاف رجل من جيش العدو في القادسية، اضافة الى المعلومات السابقة الواصلة عن الكوفة، ومنها وصول آخر رسالة شفوية من مسلم بواسطة عمر بن سعد تؤكد على ضرورة انصراف الامام وعدم دخول الكوفة، كل هذه العوامل جعلت الامام يتيقن انه لم يعد هناك اي امل في الكوفة، ولن يجني من ذهابه اليها الا الهزيمة العسكرية والاستشهاد.

وفي هذه الحالة اتخذ الامام قراره بالعودة^(١). لكن الحر اعلن له انه مكلف من قبل والي الكوفة باخذ الامام وجيشه الى هناك ومنعه من العودة، ومنذ ذلك الحين اخذ الامام يكرر دائماً في لقاءاته بقيادة جيش العدو^(٢) ومبعوثيهم وحتى في خطابه الذي القاه على جيش الكوفة^(٣) قراره بالعودة فيقول:

«يا أيّها الناس اذا كرهتموني فدعوني انصرف عنكم الى مأمن من

(١) البلاذري، انساب الاشراف، ج ٢ ص ١٧٠، ابن الاعثم، ج ٥ ص ١٢٥، الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٢٥٠.

(٢) ر.ك. الطبري ج ٤ ص ٣١١، ابن الاعثم ج ٥ ص ١٥٥.

(٣) الطبري ج ٤ ص ٣٢٣.

وقد ذكر عدد من المؤرخين ان الامام وبعد ان اصبح محاصراً من قبل جيش الكوفة. طلب من عمر بن سعد القبول باحدى النقاط الثلاث التالية: «دعوني ارجع الى الحجاز، او اذهب الى الشام واضع يدي بيد يزيد او ان اذهب الى ثغور الدولة».

لكن هذه المعلومات عارية عن الصحة وانما اراد المؤرخون من خلالها سحق شخصية الامام الحسين عليه السلام المتميزة والانتقاص منه خدمة لاسيادهم واولياء نعمهم من الامويين والادلة على زيف هذه الرواية تتلخص فيما يلي:

١ - الرواية المذكورة اعلاه وكذلك التصريحات الاخرى تؤكد ان الامام لم يطرح موضوع السفر الى الشام، بل انه طرح فقط موضوع العودة الى الحجاز (مكة والمدينة).

٢ - ينقل البلاذري رواية تؤكد بصراحة: انه عرض على عمر بن سعد موضوع العودة الى المدينة فقط^(٢).

٣ - كما نقل بشكل موثق عن عقبة بن سميان انه قال: رافقت الامام الحسين عليه السلام في جميع المراحل، ولم افارقه لحظة واحدة، فلم اشاهد منه ولا في اشارة واحدة انه طرح ما هو شائع بين الناس «دعوني اذهب الى الشام واضع يدي بيد يزيد» بل انه قال فقط:

«دعوني ارجع الى المكان الذي اقبلت منه، او دعوني اذهب في هذه

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٢٣.

(٢) البلاذري، انساب الاشراف ج ٢ ص ١٨٢.

الارض العريضة حتى ننظر مايصير اليه امر الناس»^(١).

٤ - لو ان الامام كان مستعداً للمبايعة فان مشكلة يزيد التي اثيرت بسببها كل هذه الضجة ستحل وسيصبح بمقدور الحسين عليه السلام مواصلة حياته كشخص عادي.

عنصر الغيب في حادثة كربلاء

إنّ من جملة الامور التي كان لها نصيب لا يستهان به في البعد التاريخي لواقعة كربلاء هو عنصر الغيب، الامر الذي ادى الى بروز اختلافات في تحليل ودراسة هذه الواقعة، وجعلها تُطرح على شكل مقابلة بين امر عقائدي وقضية تاريخية.

والواقع هو أنّ علماءنا قد بحثوا هذا الموضوع بشكل كافٍ مع الاخذ بنظر الاعتبار شمولية علم الامام. اما شرح وتبيان هذه القضية من الوجهة التاريخية فهو لا يحتاج الى طرح هذه الادلة العقائدية لأن مثل هذا العمل لا يخرج المسألة من اطارها التاريخي فحسب، بل وسيهيء الارضية للاتهام بادخال الآراء والعقائد في كتابة التاريخ.

ونحن فيما يلي نبحث القضية خارج اطارها التاريخي، ونعتبره خاتمة لبحثنا هذا زيادة في الاطلاع، ونستعرض خلاله الروايات الدالة بصراحة على وعي الامام المسبق بهذه الحادثة قبل وقوعها. فقد نقل عن رسول الله ﷺ بعض الروايات يتفق عليها الكثير من الرواة والمحدثين من اهل السنة والشيعة.

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٥٤.

فقد ضم كتاب «سيرتنا وسنننا» الذي ألفه العلامة الاميني رحمته الله بين طياته الكثير من امثال هذه الروايات التي تبين وصف رسول الله هذه الحادثة، واستشهاد سبطه الحسين هناك وذلك قبل سنوات من وقوعها والتأثر الشديد لرسول الله ﷺ عند ذكره لها وبكائه وحزنه عليها. وقد نقل العلامة الاميني هذه الروايات غالباً من كتب التاريخ والحديث لاهل السنة.

واليك فيما يلي عدداً من هذه الروايات:

١ - جاء في رواية ان الحسين رأى في المنام انه شاهد رسول الله ﷺ وجماعة من الملائكة، فاحتضنه رسول الله ﷺ وقال له:

«يا حسين كأني عن قريب اراك مقتولاً مذبحاً بأرض كربلاء من عصابة من أمتي، وانت في ذلك عطشان لا تسقى، يا حسين ان اباك وأمك قد قدموا عليّ وهم اليك مشتاقون وان لك في الجنة درجات لن تنالها الا بالشهادة»^(١).

٢ - قال الحسين عليه السلام في مكة: «اني رأيت جدي في منامي وقد امرني بامر وانا ماضٍ لأمره»^(٢).

٣ - لما وصل عليه السلام الى كربلاء وسأل عن اسم المنطقة وقيل له اسمها «كربلاء» قال: «لقد مرّ ابي بهذا المكان عند مسيره الى صفين وأنا معه، فوقف وسأل عنه فاخبر باسمه، فقال: ها هنا محط ركابهم، وها هنا مهراق دمائهم، فُسئل عن ذلك فقال: ثقل لآل بيت محمدٍ ينزلون هاهنا»^(٣).

(١) ابن الاثم ج ٥ ص ٨.

(٢) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٥١.

(٣) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٢٥٣.

٤ - وفي صبيحة عاشوراء قال لاخته زينب: «يا اختاه اني رأيت جدّي في المنام وابي علياً وفاطمة أُمي واخي الحسن فقالوا انك رائح الينا عن قريب، وقد والله يا أختاه دنا الامر ما في ذلك لاشك»^(١).

كانت هذه نماذج من الروايات الدالة على علم الامام بواقعة كربلاء قبل استشهاده ومن الطبيعي ان الامام الحسين عليه السلام ليس هو الشخص الوحيد الذي لا يلجأ الى الغيب، بل ان النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يلجأ اليه ايضاً في حياته السياسية العادية سوى في حالات اثبات النبوة. وانهم كانوا في بقية المواقف يمارسون حياة عادية وفقاً لما تقتضيه الاحكام والاخلاق الاسلامية. وان اعتبار النبي صلى الله عليه وآله والائمة عليهم السلام أسوة انما يقوم على الوضع الموجود والتقييم الظاهري لا على اساس الغيب. لأن الاستناد الى الغيب ليس بالشيء الذي يقدر عليه الآخرون.

دور واقعة كربلاء في تكوين الشيعة

من المسلّم به ان واقعة كربلاء هي من الحوادث المصيرية واهم عامل في تكوين الشيعة على مدى التاريخ. وقد سبقت منّا الاشارة الى أن الاسس الفكرية للتشيع وخاصة اهم مسألة فيه (الامامة)، يمكن ملاحظتها في القرآن والسنة بشكل واضح. لكن انفصال تاريخ الشيعة عن بقية الفرق الاسلامية اتخذ طابعاً تدريجياً، وحصل بمرور الزمن، فحاکمية امير المؤمنين وسنته واسلوب تعامله مع القضايا والافكار الالهية والمعارف التي خلفها قد اوجدت انسجماً فكرياً بين الشيعة الى حد ما. وكان لدعم الامويين للنظام الفكري واسلوب الفهم عند الفرق الاسلامية الاخرى اثره في تعميق الفاصل الموجود بين الشيعة وبقية الفرق

(١) ابن الاثم - ج ٥ ص ١٧٥.

فحيل معاوية واساليبه الشيطانية لم تتح للمسلمين الفرصة لكي يفهموا ان بني امية يخفون تحت ستار الاسلام نفس تلك الشخصيات الجاهلية المعادية للانسانية، وانهم كانوا مولعين بالحياة الجاهلية والدفاع عن ثقافتها، ومع ذلك فإن المفكرين والعلماء في ذلك الوقت كانوا يدركون هذه القضية، لكن ابنه يزيد لم يكن يمتلك نفس تلك المهارة، فهو كان يطرح وبشكل صريح، في اشعاره واحاديثه اليومية، من هو وماذا يريد؟ ولهذا نراه ومنذ بداية مجيئه الى السلطة وتسلمه للخلافة تسبب في حدوث واقعة كربلاء التي استشهد فيها الحسين بن علي عليه السلام مع مجموعة من اهل بيته وانصاره. وصار انفصال تاريخ الشيعة عن سائر الفرق الاسلامية التي انضوت تحت غطاء الاسلام الاموي امراً قطعياً، ومنذ ذلك الحين اعلن المذهب الشيعي عن وجوده باعتباره فئة تتبع سنة وسيرة علي عليه السلام والائمة من بعده.

الامام السجّاد عليه السلام

يقول شمس الدين الذهبي: «وكان لعلي بن الحسين جلالة عجيبة وحق له والله ذلك فقد كان اهلاً للامامة العظمى لشرفه وسؤدده وعلمه وتألهه وكمال عقله»^(١).

علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليه السلام المعروف بالسّجاد هو رابع ائمة الشيعة، وكانت ولادته عام ٣٨ للهجرة على اشهر الاقوال، واستشهد عام ٩٤ بعدما دس له الوليد بن عبد الملك السم^(٢).

وبما ان ولادة الامام كانت سنة ٣٨ للهجرة فمن الواضح انه قد ادرك قسمًا من عهد الامام المجتبي وكذلك عهد ابيه، وهذا يعني انه شهد بأّم عينه السياسة التي اتّبعها معاوية في قمع الشيعة في العراق والمناطق الاخرى.

(١) سيرة اعلام النبلاء: ج ٤ ص ٣٩٨.

(٢) الشبراوي، الاتحاف بحب الاشراف ص ١٤٣.

الأن بعض الكتاب يعتقد أن ولادته حصلت في غير التاريخ المذكور وذلك استناداً إلى روايات منقولة عن واقعة الطف، يظهر منها أنه ولد عام ٤٨ للهجرة.

تشير هذه الروايات إلى أن عدداً من جنود جيش الكوفة هجموا على الإمام السجّاد - بعد انتهاء معركة عاشوراء الدامية، وسيطرة الجيش على خيام الحسين والبقية المتبقية من أهل بيته - ليقتله - وكان وقتها طريح فراش المرض - إلا أن البعض الآخر منهم منعهم من قتله، لأنه لا زال صغيراً ولم يبلغ الحلم.

واستناداً إلى رواية الطبري، فقد وصف حميد بن مسلم - الذي حضر في كربلاء شخصياً - هذه الحادثة المؤسفة بالصورة التالية:

«جاء شمر بن ذي الجوشن في رجال معه، وارادوا قتل علي بن الحسين، فمنعته منهم وقتل لهم أنه لا زال صبيّاً، حتى دفعته عنهم».

وروي كذلك:

«أن عبيد الله بن زياد لما نظر إلى علي بن الحسين قال لشرطي: انظر هل أدرك هذا ما يدرك الرجال؟ فكشف عنه فقال نعم. قال: انطلقوا به فاضربوا عنقه. فقال له عليّ: إن كان بينك وبين هؤلاء النسوة قرابة فابعث معهن رجلاً يحافظ عليهن، فقال له ابن زياد: تعال أنت فبعثه معهن.

واستناداً إلى رواية أخرى، فإن زينب عليها السلام هي التي منعت من قتل علي بن الحسين، إذ قالت لعبيد الله بن زياد: «إن قتلته فاقتلني معه»^(١).

وأشار الجاحظ أيضاً إلى هذه القضية ضمن اشارته إلى ممارسات الأمويين

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٣١.

الاجرامية فقال: «إنهم انتهكوا حرمة لما ارادوا تفحص علائم البلوغ لديه»^(١).

فان صحّت هذه الاخبار^(٢). فلا بد أن يكون عمر الامام اصغر من المشهور المتعارف لأن نهاية حد البلوغ هو ١٥ سنة بالتام، وبناءً على هذه الاخبار فلا بد ان الظروف كانت بالشكل الذي يقتضي سنّاً بهذه الحدود.

ورغم كون هذه الروايات المذكورة في مصادر متعددة الا ان هناك ادلة تطعن في مصداقيتها. والادلة هي كما يلي:

١ - المشهور عند المؤرخين وكتاب السيرة ان ولادته كانت في سنة ٣٨ للهجرة ومعنى هذا ان عمره في كربلاء كان ٢٣ عاماً. وقد نقل الطبري نفس هذا السن في كتابه (ذيل المذيل). كما ان تصريح بعض المؤرخين بانه عاش ٥٨ عاماً يثبت نفس هذه النقطة^(٣). واما الرواية التي تشير الى انه ولد عام ٣٣^(٤) - وخلافاً للمشهور اي عام ٣٨ - فهي دليل آخر على ولادة الامام في حياة امير المؤمنين عليه السلام.

٢ - ان مثل هذه الروايات لم تكن بعيدة عن انظار المؤرخين، بل انهم ادركوا وجودها منذ بداية عصر تدوين التاريخ الاسلامي وتعارفوا على نقل المشهور منها، كما انهم عرضوها للنقد والتحريض ايضاً من اجل ازالة التضاد والتناقض الموجود فيما بينها. فمحمد بن عمر الواقدي وهو من ابرز رواة التاريخ لدى اهل السنة، ينقل حديثاً عن الامام الصادق عليه السلام يشير الى ان الامام

(١) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ج ١٥ ص ٢٣١.

(٢) ر. ك. شهيد علي بن الحسين ص ٣٢.

(٣) المنتخب من ذيل المذيل. ص ٦٣٠.

(٤) ابن حبان - الثقات، ج ٥ ص ١٦٠.

السَّجَّادُ عليه السلام فارق الحياة وله من العمر ٥٨ عاماً. ثم يستنتج منه ما يلي:

«يدل هذا الحديث على ان علي بن الحسين عليه السلام كان حاضراً مع ابيه في كربلاء وكان يبلغ من العمر ٢٣ او ٢٤ عاماً، ولهذا فان الذين ذكروا انه كان صغيراً وغير بالغ اثناء واقعة كربلاء قد جانبوا الحقيقة. وكان سبب عدم مشاركته في المعركة هو المرض الذي انتابه في تلك الأيام، وليس صغر سنّه وعدم قدرته على الحرب. فكيف يمكن القبول بعدم بلوغه في كربلاء بينما ابنه محمد بن علي المعروف بالباقر عليه السلام كان قد ولد في تلك الاثناء. وبما ان أبا جعفر الباقر عليه السلام قد ادرك جابر بن عبدالله الانصاري الذي توفي عام ٧٨ للهجرة^(١) فعنى هذا ان ابا جعفر حين التقى جابراً كان في سن يؤهله لسماع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه ونقله عنه فيما بعد»^(٢).

ويقول ابن عنبه ايضاً:

«كان علي بن الحسين مريضاً في كربلاء ولهذا لم يشترك في المعركة وليس صحيحاً ما تصوره البعض من انه كان صغيراً».

وقال الزبير بن بكار ايضاً: «كان عمر علي بن الحسين في كربلاء ٢٣ عاماً»^(٣).

٣ - يتّضح من خلال كلام الامام السجاد مع عبيدالله بن زياد وحتى يزيد

(١) الفسوي - المعرفة والتاريخ ج ٢ ص ٣١٠، تاريخ دمشق ج ٥ ص ٢٥١ ب مخطوطة نقلًا عن هامش المعرفة والتاريخ.

(٢) ابن سعد - الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٢٢٢، الاربلي كشف الغمة ج ٢ ص ١٩١ ط تبريز.

(٣) ابن عنبه، عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب ص ١٩٣.

بن معاوية ان عمره لابد وان يكون فوق، أن يشكّ في بلوغه. وليس ذلك مما يتخلص منه نتيجة القول بإمامته، إذ لا توجد عندنا مشكلة بهذا الصدد. وأنما المشكلة هي في ان الظروف والاضاع التي دفعت يزيد للسماح له بالتحدث من على المنبر تنمّ بذاتها عن سن معقول لمثل هذا السماح. لأن من يُشكّ في بلوغه لا يمكن ان تتاح له مثل هذه الوضعية التي اتاحها له يزيد.

٤ - لقد وردت في التاريخ روايات كثيرة عن ولادة الامام الباقر عليه السلام، يستشف منها جميعاً بأنه حضر كربلاء وكان عمره آنذاك ٤ سنوات ولم يشك احد في صحة تلك الروايات ولا ريب ان قبول هذه الروايات يستدعي قبول الرأي المشهور في ولادة الامام السجّاد بفارق لا يتجاوز السنتين او الثلاث سنوات.

أم الامام السجاد عليه السلام

إنّ من جملة المسائل المختلف عليها والتي لا يخلو البحث فيها من فائدة هي الاسم والنسب الدقيق لأمّ الامام السجاد، وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها بعض الكتّاب في هذا المجال، إلاّ أنّه وللأسف لم يطرح لحد الآن رأي دقيق ومقبول بهذا الشأن. اما القصّة التي تشير الى ان أمه هي بنت يزيد جرد الثالث آخر ملوك ايران من سلسلة الساسانيين، فقد تعرضت في الآونة الاخيرة للكثير من النقد والتحقيق، والاسباب الكامنة وراء ذلك متعددة منها الخشية من ان يعوّل عليها اعداء الشيعة ويختلقون دوافع عاطفية وراء انتشار التشيع في ايران ويجعلون ذلك ناشئاً من العلاقة السببية بين أئمة الشيعة والعائلة المالكة في ايران آنذاك.

وقد جمع احد المحققين جميع -او معظم- الروايات الواردة في هذا الصدد وتناولها بالدراسة والتحميمص. هذا وقد اورد في موضوعه روايات معدودة تشير

الى أن أمّه ام ولد. ورغم الاختلافات الموجودة في مفاد هذه الروايات وعدم انسجام بعضها مع روايات الفتوحات وغيرها، الا أن هناك امراً مسلماً به هو أن لهذا الموضوع شهرته الواسعة وتداوله في أقدم نصوص الشيعة من امثال (واقعة صفين، ص ١٣) و(تاريخ يعقوبي) و(بصائر الدرجات) التي آلفت باجمعها في القرن الثالث. وقد بحثنا في مقالة مستقلة -رغم اعترافنا بوجود الشكوك و الغموض في اصل الموضوع- علاقة هذا الموضوع بانتشار التشيع في ايران. ونقدنا التوهم القائل بوجود علاقة بينهما وبشكل مناسب ومقنع.

امامة السّجاد عليه السلام

استناداً الى النصوص التي رواها كبار محدثي الشيعة في جوامع حديثهم فان الامام السجاد عليه السلام هو وصي ابيه الامام الحسين عليه السلام وخليفته من بعده، وقد نقل هذه النصوص الكليني وغيره من اساطين الشيعة والروايات المنقولة عن رسول الله ﷺ بخصوص اسماء الائمة الاثني عشر للشيعة تثبت هذا الموضوع.

وبغض النظر عن ذلك، فإن قبول المجتمع الشيعي للامام السجاد كإمام رابع ووصي للحسين بن علي عليه السلام، ومقبوليته العلمية من قبل الشيعة على مر التاريخ، يُعتبر بذاته دليلاً ناصحاً على صدق هذه الوصاية، وليس من شبهة في امامته سوى ما اعترى في ذلك المقطع الزمني بعض محبي اهل البيت من الشيعة نتيجة لتسمية محمد بن الحنفية بالامامة وهو ما ادى الى حصول انحراف بين اوساط الشيعة فيما بعد. وسنشير الى هذا الموضوع باختصار في الفصول اللاحقة. وبما ان نصوص الشيعة تشير الى لزوم وجود بعض الاشياء لدى الائمة مثل سيف ودرع رسول الله ﷺ فان وجودها لدى الامام السجاد عليه السلام قد ذكر بصراحة، حتى في مصادر

اهل السنة ايضاً^(١).

الشخصية العلمية والاخلاقية للامام السجاد عليه السلام

اصبحت القيم الدينية في عهد الامام السجاد عليه السلام عرضة للتغيير والتحريف على يد الامويين. فقد بلغ تطاول بني امية على اصول الحقوق الاجتماعية حدّاً لم يكن فيه سكان مركز من مراكز الاسلام الاولى والمهمة هو المدينة - المدينة التي ترعرعت في احضانها رسالة النبي، وازدهرت وابتعت في ظلالها الوارفة... المدينة التي دافع اهلها عن رسول الله ﷺ دفاعاً بطولياً وناصروه ضد طاغوت الكفر والعصيان - بمبايعة يزيد وقائد جيشه مسلم بن عقبة على انهم عبيد له، ووضحت احكام الاسلام العوبة بيد اشخاص مثل ابن زياد والحجاج وعبد الملك بن مروان. فقد خالف الحجاج - الذي كان يعتبر مقام عبد الملك افضل وارفع من مقام رسول الله ﷺ - ابسط قواعد الحقوق الاجتماعية في الاسلام وفرض الجزية على المسلمين وكان يسلم الناس لجلاديه على ادنى سوء ظن.

فعندما يكون وضع الحكومة على هذه الشاكلة، يصبح من الواضح الى اي مدى سيتدنّى مستوى التربية الدينية للناس وتتبعث القيم الجاهلية من جديد، فقد رفعت الجاهلية رأسها شامخة بعد أن قبرت بمذلة لتسود الساحة وتقضي على الثقافة الاسلامية الوليدة.

وفي ظل هكذا ظروف اجتماعية مريرة، شرع الامام السجاد عليه السلام بأهم عمل يهيئ الارضية لارتباط الناس بالله بواسطة الدعاء، فلا يعمل هذا فراغ الشخصية

(١) ابن سعد - الطبقات الكبرى. ج ١ ص ٤٨٦.

لدى الناس، ووضع بلسم الشفاء على الجراح العميقة التي أحدثها آل أمية وجلاوزتهم في كرامتهم وشخصيتهم، ووضع في متناول أيدي الناس خطأً ومنهاجاً يسرون عليه باتجاه القيم المعنوية، استطاعوا في ظله العثور على دوافع قوية للحياة والبقاء وابعاد كابوس اليأس والكآبة القاتل الذي يستولي على الناس عادة عند ازدياد الضغط والارهاب الاجتماعي واستعادة ذلك الشوق والحماس المفقود الذي يشكل العامل الاساس للحركة في الحياة. وبهذا الشكل بات الناس متأثرين بالمعنويات الرفيعة السامية للامام السَّجَاد عليه السلام وازداد تعلقهم بأسلوبه ومنهاجه وانخرط الكثير من طلبة العلم في سلك رواة حديثه فارتووا من زلال علمه المنبثق عن علوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وامير المؤمنين عليه السلام.

يقول محمد بن سعد وهو من كبار المؤرخين في وصف الامام:

«كان علي بن الحسين ثقة مأموناً كثير الحديث عالياً ربيعاً ورعاً»^(١).

وكتب الشافعي رسالة بشأن حجية الخبر الواحد قال فيها:

«وجدت علي بن الحسين وهو افقه اهل المدينة يعوّل على الخبر

الواحد»^(٢).

فابن شهاب الزهري على الرغم من ارتباطه بالامويين والحقد الذي اوجد شرخاً عميقاً بين الامويين والشيعة، كان من جملة العلماء المعاصرين الذين تلقوا العلم بولع شديد وكان يثني على الامام دائماً بعبارات التجليل والاحترام. وقد

(١) ابن ابي الحديد ج ١٥ ص ٢٧٤.

(٢) ابن سعد ج ٥ ص ٢٢٢.

كتب له الامام في احدى المرات رسالة نصحه فيها بضرورة اعادة النظر في^(١)
وضعه الحالي كآلة بيد السلطة الاموية. وحتى ان الامام وبَّحه لاستخفافه في احد
المرات بشخصية امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام^(٢).

إلا أنه مع ذلك كان روائياً لعلوم الامام السَّجَّاد، كما يشاهد من نقله عنه في
الكتب المختلفة^(٣) ولقد كان شديد الاعجاب باخلاق الامام السَّجَّاد وكثرة عبادته
اذ نقل انه: «كان الزهري اذا ذكر علي بن الحسين يبكي ويقول: زين
العابدين»^(٤).

كما حكي عنه أيضاً أنه كان يقول: «لم أدرك احداً من اهل هذا البيت افضل
من علي بن الحسين»^(٥).

«علي بن الحسين اعظم الناس منة علي»^(٦).

«ما رأيت احداً أفقه من علي بن الحسين»^(٧).

كما روي عن يحيى بن سعيد قوله: «علي بن الحسين افضل هاشمي رأيت
بالمدينة»^(٨).

(١) تحف العقول ص ٢٠٠.

(٢) ابن ابي الحديد ج ٤ ص ١٠٢.

(٣) ر. ك. ابن سعد ج ٨ ص ١٧٢، ابو نعيم، حلية الاولياء ج ٣ ص ١٤١، كشف الغمة ج ٢ ص ٨٦.

(٤) ابو نعيم، حلية الاولياء ج ٣ ص ١٣٥.

(٥) ابن الصَّبَّاح المالكي، الفصول المهمة ص ٢٠٣، الاربلي، كشف الغمة ج ٢ ص ٨٦.

(٦) ابن سعد - ج ٥ ص ٢١٤.

(٧) سير اعلام النبلاء، ج ٤ ص ٣٨٩، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١٢ ص ١٩ ب، سيد الاهل زين

العابدين، ص ٤٣.

(٨) الرازي، الجرح والتعديل ج ٦ ص ٢٧٨، البخاري التاريخ الكبير ج ٦ ص ٢٦٦.

ومن المحدثين، كان ابو حازم يقول: «ما رأيت هاشمياً افضل من علي بن الحسين ولا افقه منه»^(١).

وكفى بقول ابن ابي شيبة في فضل ومنزلة الامام السجاد عليه السلام عند اهل السنة بأن افضل سند هو «الزهري عن علي بن الحسين عن ابيه عن علي عليه السلام»^(٢)، وان كان الزهري موضع كلام.

ونقل عن الجاحظ أنه كان يقول: «الشيوعي والمعتزلي والخارجي والعامّة والخاصة ينظرون الى شخصية علي بن الحسين نظرة واحدة ولا يشك احد في منزلته وفضله على الآخرين»^(٣).

وسأتي منّا فيما بعد أن اهم سبب في شهرة الامام وحبّ الناس الشديد له هي عباراته وجمله الجذابة التي صاغها بقلب الدعاء الذي ينير القلوب ويعيد اليها النشاط والحيوية ويعمرها بالقيم المعنوية يقول سعيد بن المسيّب وهو من مشاهير المحدثين، في وصف شخصية الامام:

«ما رأيت افرع من علي بن الحسين»^(٤).

واشتهر الامام في عصره بالقاب: علي الخير، علي الاغر، علي العابد، و... ويقول مالك بن انس: «لم يكن في اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل علي بن

(١) سبط بن الجوزي، تذكرة الخواص ص ١٨٦، الاربلي ج ٢ ص ٨٠، العجلي تاريخ الثقات ص ٣٤٥.

(٢) الذهبي، سير اعلام النبلاء - ج ٤ ص ٣٩١، تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٣٠٥.

(٣) ابن عنبه، عمدة الطالب ص ١٩٣.

(٤) ابو نعيم، حلية الاولياء ج ٣ ص ١٤١، الاربلي، ج ٢ ص ٨٠، ابن حجر، تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٣٠٥، الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ٤ ص ٣٩١، في هامشه عن تاريخ دمشق ج ٢ ص ١٩.

الحسين»^(١).

ويصفه ابن ابي الحديد بقوله: «كان علي بن الحسين غاية في العبادة»^(٢).

وكان يكثر من الخضوع والخشوع بين يدي الله، ويمرّغ جبهته في التراب،
ويطيل في سجوده، فكانت آثار السجود ظاهرة على جبهته، وبسببها كان
يُسمى بـ«ذي الثغفات»^(٣).

واورد ابن حبان بشأنه «وكان من افاضل بني هاشم من فقهاء المدينة
وعُبادهم، يقال علي بن الحسين سيد العابدين في ذلك الزمان»^(٤).

وكتب ابو زهرة قائلاً: «فعليّ زين العابدين كان امام المدينة نبلاً
وعلماً»^(٥).

وكان القاصي والداني يتحدث عن زهده وعبادته فقد روي: «أنه اذا اراد
الوضوء اصفرّ لونه، ولما سُئل عن ذلك قال: أتدرون بين يدي من أريد ان
اقوم»^(٦).

يقول مالك: «احرم علي بن الحسين، ولما لبّى اغمي عليه وسقط من
فوق الجمل».

(١) ابن ابي الحديد - ج ١٥ ص ٢٧٣.

(٢) ابن ابي الحديد ج ١ ص ٢٧.

(٣) ر. ك. معجم الادباء، ج ١١ ص ١٠٣.

(٤) ابن حبان - الثقات ج ٥ ص ١٦٠.

(٥) الامام الصادق، ص ٢٢.

(٦) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ج ٢ ص ٥٥، الشبلنجي، نور الابصار ص ١٢٧، ابن سعد ج ٥ ص ٢١٦.

ويقول أيضاً: «بلغني انه كان يصلي حتى وفاته في اليوم واللييلة الف ركعة، وسمي زين العابدين لكثرة عبادته»^(١).

ولما طُلب الى خادمته وصفه قالت: «لم اجلب له طعاماً في نهار قط ولم ابسط له فراشاً في ليل قط»^(٢).

وبينا هو يصلي في احد الايام اذ ظهرت له افعى، فواصل الامام صلاته من غير ان يلتفت لها. ومَرّت من بين رجله ولم يتحرك من مكانه^(٣).

ولم يكن اسوة في العبادة فقط، بل وفي التفكر الذي تعدل ساعة منه عبادة سبعين سنة من عبادة الجن والانس.

نقل الزمخشري ان علي بن الحسين همّ بالوضوء فوضع يده في الماء ثم رفع رأسه فنظر الى السماء والقمر والكواكب ثم جعل يفكر في خلقها حتى اصبح واذن المؤذن ويده في الاناء»^(٤).

واصبح كذلك مثلاً يحتذى به في التصدق والاهتمام بالمساكين، وبعد شهادته عُرف ان مائة عائلة كانت تعيش من صدقاته ونفقاته^(٥). وكانت آثار حمل الطعام الى الفقراء واضحة على ظهره اثناء تغسيله^(٦).

(١) الذهبي، سير اعلام النبلاء ج ٤ ص ٣٩٢، ابن عساكر ١٢ / ٢١.

(٢) محمد علي دجيل، ائمتنا ج ١ ص ٢٦٥ عن المناقب ج ٢ ص ٢٥٥.

(٣) ابن ابي الحديد ج ١٠ ص ١٥٩.

(٤) ربيع الابرار ج ١ ص ١٢٨.

(٥) ابو نعيم، حلية الاولياء، ج ٣ ص ١٣٦، الاربلي، كشف الغمة، ج ٢ ص ٧٨، سير اعلام النبلاء، ج ٤ ص ٣٩٣.

(٦) ربيع الابرار ج ٣ ص ١٦٠ و ص ١٦٣.

وكان الناس ايضاً يكتّون له وافر الود والمحبة فقد روي ان قرّاء المدينة كانوا لا ينطلقون نحو مكّة لاداء مناسك الحج ما لم يغادر الامام المدينة اولاً، وكان عندما يتحرك ينطلق وراءه الف راكب^(١). وفي السفر كان يخفي نسبه عمّن يرافقه ويقول : «اكره أن آخذ برسول الله ما لا أعطي مثله»^(٢).

وكما روى جويرية بن اسماء قال: «ما أكل علي بن الحسين من قرابته من رسول الله درهماً»^(٣)

كانت هذه نبذة من فضائل الامام السجاد اللامتناهية.

الامام السجاد عليه السلام والشيعية

بعد واقعة كربلاء مرّ التشيع بأسوء ظروفه من ناحية الكم والكيف في بعده السياسي والعقائدي، وتحولت الكوفة من مركز مهم للميول الشيعية الى مركز خطير لقمع الشيعة. وقد استشهد في كربلاء كبار الشيعة المخلصين الذين جاءوا مع الامام الحسين عليه السلام من المدينة ومكّة او الذين التحقوا به من الكوفة.

ورغم ان عدداً كبيراً من الشيعة كان لا يزال في الكوفة، إلا انهم لم يتجرأوا على الاعلان عن وجودهم في ظل الظروف القاسية التي اوجدها ابن زياد هناك. وتعتبر حادثة كربلاء من الناحية النفسية هزيمة كبيرة واحباطاً نفسياً مريراً وساد المجتمع تصوّر بأن الشيعة قد ابعدوا، ولن يتاح لهم الظهور على الساحة السياسية كقوة مؤثرة. فقد استشهد في كربلاء عدد من اهل البيت وعلى رأسهم الامام

(١) الطوسي، اختيار معرفة الرجال. ص ١١٧. طبعة مشهد.

(٢) الزمخشري - ربيع الابرار - ج ٣ ص ٦٩.

(٣) الذهبي - سير اعلام النبلاء - ج ٤ ص ٣٩١.

الحسين عليه السلام، ولم يبقَ من ابناء الحسين عليه السلام إلا واحدٌ، ولم يكن له في تلك الظروف منزلة اجتماعية مهمة لا سيما وان الابن الاكبر للامام الحسين عليه السلام اي علي الاكبر قد استشهد مع ابيه.

وبعد تخلصه من قيود الاسر في المدينة وابتعاده عن العراق سلبت من حياة علي بن الحسين فرصة الاعلان عن وجوده، ويقول الاستاذ السيد جعفر مرتضى العاملي:

«تصور بنو امية من وجهة نظرهم السياسية بأنهم قد وضعوا نقطة الختام للحياة السياسية والاجتماعية لاهل بيت رسول الله حملة الاسلام الاصيل. فرغم أنهم كانوا يتعاملون مع الامور بدقّة سياسية وشيطنة خاصّة مستغلين الضعف الروحي والعقائدي للناس وكانوا غالباً ما يخرجون منها منتصرين، إلا أنهم غفلوا عن نقطة مهمّة وحساسة هي وجود الامام السّجاد. فهو وان كان يبدو شاباً يافعاً من ناحية السن وكان من السابق لأوانه لشاب مثله أن يخوض في النشاط السياسي ولم يكن له من الشهرة والنفوذ الاجتماعي ما يخشى منه، ولكنه من الناحية الروحية والشخصية كان ذا ابعاد سامية ورفيعة. فهو خلافاً لتوقعات المجتمع آنذاك شرع بنشاطه السياسي - الثقافي في المدينة. وكان عليه طبعاً الشروع من نقطة الصفر بسبب وضع الشيعة في تلك البرهة الزمنية واستقطاب الناس نحو اهل البيت، ذلك الينبوع الصافي الذي تنبثق عنه المعارف الاسلامية، وقد نجح في مسعاه هذا أيّما نجاح»^(١).

ولقد اثبت التاريخ مدى النجاح الذي حققه الامام السّجاد فهو قد اضفى

(١) دراسات وبحوث في التاريخ والاسلام - ج ١ ص ٦٠ الطبعة الاولى.

على الشيعة حياة جديدة، وهياً مستلزمات النشاطات اللاحقة للائمة من بعده كالامام الباقر عليه السلام والامام الصادق عليه السلام. ويشهد التاريخ على ان الامام استطاع -ومن خلال حركته ونشاطه المتواصل لمدة ٣٤ عاماً- ان يجتاز بالشيعة واحدة من احلك الفترات التي مرّوا بها، وهي الفترة التي امتازت بالقمع المتواصل للشيعة على يد الامويين والزييريين، وكان من اوضح معالم هذه الفترة هي ولاية الحجاج على العراق لمدة ٢٠ عاماً وتسلط عبدالملك بن مروان على جميع العالم الاسلامي والتي لا تميزها عن غيرها سوى قمع الشيعة، او قمع معارضي الامويين في اماكن أخرى كالخوارج او حركة عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث. فقد كان سماع كلمة كافر اهون على الحجاج من سماع كلمة شيعي.

العلاقة بين الامام والتوابين

في تلك الأيام قامت في العراق حركتان شيعيتان وانتهت كلتاها الى الفشل، وبقي الشيعة لسنوات طويلة عرضة لتهديد الامويين بالقتل والحبس والتعذيب. كانت احدهما حركة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي وعدد آخر من وجوه الشيعة في الكوفة. وقد ادعى ان زعيم التوابين اعترف بامامة علي بن الحسين عليه السلام^(١)، ولكن لم يعثر على دليل هذا الادعاء في المصادر الاولى. والمهم في هذا الامر هو أن التوابين كانوا عازمين على تسليم قيادة المجتمع الى اهل البيت -فما لو نجحوا في مسعاهم طبعاً- ولم يكن احدٌ من نسل فاطمة أليق بهذا الأمر من علي بن الحسين عليه السلام.

فمن جملة القضايا التي دعا التوابون الناس اليها هي قضية الدعوة العامة

(١) جعفري، تشيع در مسير تاريخ ص ٢٨٦. دفتر نشر فرهنگ اسلامي.

لاهل البيت. وبعبارة اخرى انهم جعلوا الدعوة الى اهل البيت على رأس برامجهم واهتماماتهم.

فكان عبيدالله بن عبدالله يحث الناس على الثورة فيقول لهم: «أنا ادعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء اهل بيته والى جهاد المحليين والمارقين فان قتلنا فما عند الله خير للابرار وان ظهرنا رددنا هذا الامر الى اهل بيت نبينا»^(١).

ولما اصطفوا لمقاتلة جيش الشام. اوضحوا اسباب ثورتهم بما يلي: «اننا لو انتصرنا فسنرد الامر الى اهل بيت نبينا الذين آتانا الله من قبلهم بالنعمة والكرامة»^(٢).

بدأت حركة التوابين تنشط بشكل سرّي بعد حادثة كربلاء الأليمة، ووصلت اوجها خلال السنتين ٦٤ و ٦٥ للهجرة، وازحت تشكّل تهديداً خطيراً لابن زياد واعوانه في واقعة كربلاء.

وقيادة هذه الحركة، وكما اشرنا سابقاً، كانت بيد احد صحابة رسول الله الذي اصبح فيما بعد من صحابة امير المؤمنين عليه السلام المقربين ايضاً، وهو سليمان بن صرد الخزاعي فقد اتفق هو وجماعة من اصحاب امير المؤمنين عليه السلام من وجهاء الشيعة وزعمائها على دعوة الشيعة في الكوفة الى الثورة على ابن زياد وقتله الحسين عليه السلام من اجل التكفير عن موقفهم المتخاذل في مناصرة الامام الحسين عليه السلام

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٣٣. وراجع كتاب ابن مسكويه، تجارب الامم ج ٢ ص ٩٧.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤٦٤، البلاذري ج ٥ ص ٢١٠، ابن الاثم ج ٦ ص ٨٢، ابن مسكويه تجارب الامم، ج ٢ ص ١٠٩.

وعدم مساندته والذود عنه في ثورته على الامويين.

وقد كانت الكوفة آنذاك قد سقطت بيد الزبيريين الذين يكتّون في باطنهم عداءً خفياً لاهل بيت الرسول ﷺ وخاصة الامام علي عليه السلام، ولكنهم كانوا ينظرون الى الموضوع من جانب آخر اذ كانوا يعتقدون ان كلاً من التوابين وابن زياد عدوّ لدود لهم، وان الصراع العسكري فيما بينهما سيؤدي الى اضعاف كلا الجانبين وانهاك قواهما ولذلك لم يخلقوا أية عقبة تحول دون ثورة التوابين، بل دفعوهم ايضاً نحو الاصطدام مع ابن زياد. وكان الدافع الاصلي لحركة التوابين منبثقاً من شعور عاطفي شديد منشؤه واقعة كربلاء الفجيعة، وما تثيره لديهم من تأنيب الضمير والشعور بالذلة والعار الناتج عن التقصير في مناصرة الامام الحسين عليه السلام وكانوا يعتقدون ان ذلك العار لا يزول الا بمحاربة قتلة سبط النبي ﷺ.

فقرروا ان يضخّوا بأنفسهم في هذا السبيل ليتمكنوا من خلال سحقهم للحياة الدنيا من سلوك الطريق المؤدية الى الحياة الابدية بنفس مطمئنة ورأس مرفوع وساحة مبرّاة من العيوب ومترّاة عن الذنوب، ولهذا كانوا ينادون عند تركهم الكوفة: «إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خروجنا»^(١).

وكان عددهم اربعة آلاف رجل. وان كان الذين بايعوا سليمان ضعفي او ثلاثة اضعاف هذا العدد الا أن عدم مشاركتهم يعود الى الموقف السلبي للمختار ابن ابي عبيدة تجاه سليمان اذ كان المختار يرى انه لا يمتلك الكفاءة والتجربة العسكرية الكافية وانه قد وضع اتباعه على حافة الفناء.

(١) الطبري - ج ٣ ص ٤٥٥.

ولهذا تخلف الكثير من الشيعة الذين بايعوا سليمان وعاهدوه على المقاتلة طلباً لنار الامام الحسين، وامتنعوا عن المشاركة في جيشه.

وكيفما كان فقد واجهوا العدو وشبّت بين الجانبين حرب طاحنة ادت الى هزيمة جيش سليمان، فقتلت الغالبية العظمى من جيشه، وكان من بين القتلى سليمان وعدد من قادة جيشه، ولم يرجع الى الكوفة الا عدد ضئيل منهم.

وكان من المقرر في بداية هذه الثورة ان يشارك فيها ايضاً شيعة البصرة والمدائن الى جانب سليمان، الا انهم لم يتمكنوا -وفقاً للروايات الصحيحة- من المشاركة فيها.

ويبدو ان سليمان واتباعه لم يكونوا يدركون الجوانب السياسية لهذه القضية كما كان يدركها المختار الثقفي او انهم كانوا تحت تأثير المشاعر العاطفية الحيّاشة التي لم تسمح لهم بالالتفات الى هذه الجوانب. ولهذا فانهم قاتلوا بكل شجاعة واخلص من اجل الوصول الى هدفهم في سحق عدوّهم، لكن ذلك ادى بهم الى الهزيمة.

وهذا يشبه الى حد بعيد ما واجهه المختار الثقفي في الكوفة بعد ذلك بفترة يسيرة، لكن امره انتهى به الى الفشل لأسباب اخرى من اهمّها الضغط الخارجي.

وبصورة عامة فان ثورة التوابين قامت على اداء كفّارة الذنب الذي ظلّ يعذبهم بشدة وكان هذا الشعور مستولياً عليهم الى درجة كبيرة بحيث ترك تأثيره حتى على الجوانب السياسية للقضية وهذا الوضع النفسي لم يكن ليسمح لهم بالحصول على تقييم صحيح ودقيق للجانب السياسي للثورة.

ويمكن ادراك هذه الحالة من خلال الارجيز التي كان يرددها جيش سليمان

اثناء القتال. فقد كان احدهم يردد في ميدان الحرب:

اليك ربّي تبثّ عن ذُنوبي وقد علاني في الوري مشيبي^(١)
وأخر كان يقول:

إرحم إلهي عبدك التّوّاب ولا تؤاخذهُ وقد أنابا^(٢)

علاقة الامام بالمختار

تضمنت ثورة المختار وعلاقته بالامام السجاد بعض المشاكل لا على الصعيد السياسي فقط، بل على الصعيد العقائدي ايضاً. فقد نقل عن المختار وبعد ان احرز بعض النجاح في استقطاب بعض الشيعة في الكوفة، انه استعان بالامام علي بن الحسين عليه السلام لمساعدته في مواصلة نشاطه، لكن هذه الاستعانة لم تلق ترحيباً واستقبلاً من الامام^(٣). وكان موقف الامام يتناسب الى حدٍ بعيد مع تجارب الامام منذ زمن امير المؤمنين عليه السلام الى زمن ابيه والى حركة التوايين في الكوفة، اذ كان من غير المنطقي في نظره، وفي ظل تلك الظروف الاستثنائية التي افقدته أية ثقة بالكوفة ان يعتمد الى القيام بعملٍ يؤدي الى فناء الشيعة الكامل هذه المرّة. اضاف الى ذلك ان ماهية حركة الامام في فترة امامته تعكس بوضوح ان مهمته الاساسية لا ترتبط بالسياسة بل كان في الكثير من المواقف يضع نفسه خارج اطار السياسة حتى انه كان يتحاشى ويحتاط كاملاً من اي عمل قد

(١) ابن الاثم ج ٦ ص ٨٣.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الطوسي - اختيار معرفة الرجال ص ١٢٦.

يتذرعون به ضده، لكي يتمكن وارث سلالة الاسلام المحمدية من اداء رسالته في سياق الزمن.

واما الاشكال على الصعيد العقائدي في القضية فقد نشأ عندما طلب المختار الاسناد والتأييد من محمد بن الحنفية. وقد لَبَّى ابن الحنفية طلب المختار -ولو بصورة غير رسمية- واشيع منذ ذلك الوقت بان امامة محمد بن الحنفية مقبولة بين شيعة العراق. ورغم ان هذه القضية غير يقينية، إلا أن فرقة اشتهرت فيما بعد اسماً او رسماً بالكيسانية وقد ابتدأت قصتها في زمن المختار.

وكان مرءٌ رسوخ بعض الاسس الفكرية للغلاة لدى جماعة من شيعة الكوفة هو المختار نفسه، اذ اشيع انه كان له الدور الفاعل في ظهور الغلاة فيما بعد، وهناك اسباب أخرى متعددة لا يسع المجال لذكرها تعرّضنا لها في مواضع أخرى ومع ان حول جميع هذه القضايا ومن بينها وجود فرقة باسم الكيسانية تعتقد بامامة او مهدوية محمد بن الحنفية يكتنفها الشك وتحيط بها هالة من الغموض والابهام، إلا أن هناك أدلة تشير الى أن الامام السجاد قد اتخذ موقفاً من الغلاة، وهذا ينم عن وجود انحراف لدى شيعة العراق كان يمنع الامام من مساندتهم او اقامة اية علاقة مباشرة معهم.

فقد قال الامام السّجاد في احدى المرّات مخاطباً جماعة من اهل العراق: «أَحْبُونَا حَبَّ الْإِسْلَامِ وَلَا تَرْفَعُونَا فَوْقَ حَدَّنَا»^(١).

ويقول ابو خالد الكابلي ايضاً سمعنا الامام السجاد يقول: «ان قوماً من

(١) ابو نعيم حلية الاولياء، ج ٣ ص ١٣٦، وراجع كتاب، سير اعلام النبلاء ج ٤ ص ٣٩٠، ابن سعد ج ٥ ص ٣١٤.

شيعةنا سيحبّونا حتى يقولوا فينا ما قالت اليهود في عُزير وما قالت النصارى في عيسى بن مريم فلا هم ممّا ولا نحن منهم»^(١).

وتفيد مصادر الشيعة أنّ محمد بن الحنفية لم يكن منحرفاً عن الاصول الاعتقادية للشيعة وانه كان يؤمن بعلي بن الحسين عليه السلام كامام وحجّة بينه وبين الله. اذا اعتقدنا بهذا اصبح من العسير جداً اثبات ان محمد بن الحنفية قد ادعى لنفسه امامة شيعة الكوفة. ولو فرض ثبوت ادعائه ذلك فانه لا بد من افتراض عدد من الافتراضات تقوم على انه اتخذ من نفسه وقاءً وغطاءً للامام السجاد عليه السلام لصيانته من الاخطار المحتملة من قبل بني اميّة. مع ان مثل هذا الافتراض لا يستند الى اي دليل سوى اعتقاده المجازم باهل البيت.

اما بالنسبة للمختار فقد نسبت اليه الكثير من التهم الباطلة الكاذبة، ولا يمكن التصديق بسهولة ان الامام السجاد اتهمه بالكذب اذ ينقل عنه انه قال: «المختار يكذب على الله ورسوله»^(٢)، بل ان الثابت لنا عكس ذلك، فعندما ارسل له المختار رأس عبيد الله بن زياد المجرم الاصلي والمسبب الاساس لمذبحة كربلاء الفجيعة، دعا له الامام وقال: «جزى الله المختار خيراً»^(٣).

وورد في ذلك انه: «لم يبق من بني هاشم احدٌ الاّ قام بخطبة في الثناء على المختار وجميل القول فيه»^(٤).

وروي ايضاً عن الامام الباقر عليه السلام انه قال: «لا تسبّوا المختار فانه قتل

(١) الطوسي - اختيار معرفة الرجال.

(٢) ابن سعد ج ٥ ص ٢١٣.

(٣) الطوسي - اختيار معرفة الرجال ص ١٢٧.

(٤) ابن سعد ج ٥ ص ٢٨٥.

قَتَلْنَا، وطلب ثارنا، وزوّج اراملنا، وقسّم فينا المال على العُسرة»^(١).

ولما سأله ابنه عن موقفه ازاء المختار اظهر له ايجابية الموقف^(٢).

وعلى اية حال لم تدم ثورة المختار طويلاً اذ سرعان ما أخذت عام ٦٧ للهجرة على يد الزيريين.

اما الحصيلة النهائية التي يمكن ان تستخلص من مجموع الدراسة التي تمّت حول شخصية المختار واتجاهه السياسي فيمكن القول:

رغم أن المختار كان من وجهة النظر الاعتقادية والمشاعر المذهبية شخصية مهذّبة وبريئة من التهم التي نسبت اليها والاكاذيب التي لفّقت ضدها، إلا أنه كان يميل الى التعامل السياسي في سلوكه الاجتماعي. فقد كان يتصور انه لو تمكن من اقناع احدى شخصيات اهل البيت لتزعّم حركة الثورة، فانه سيكون في مأمن من المؤامرات التي كان من المحتمل ان يدبّرها ضده اعداؤه خاصة الزيريين، ورغم ذلك فقد تسبب استناده واعتماده على شخصية محمد بن الحنفية في حصول مشاكل كثيرة له ويمكن القول ان سلوكه السياسي قد تغلّب على الجانب الديني من سلوكه.

ومع ان المختار احرز انتصارات سياسية باهرة لكن اعداءه خارج الكوفة وداخلها ممن قمعهم، اوجدوا في طريقه العديد من المعوّقات التي ادت اخيراً الى اسقاط ثورته التي صنعها وقادها بنفسه.

ومن ابرز خصائص حركته السياسية هو اعتماده المفرط على الموالي في

(١) الطوسي - اختيار معرفة الرجال ص ١٢٥

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٢٦.

الكوفة، والذين يشكل الايرانيون الغالبية العظمى منهم، بحيث ان النقل الاكبر في تحرك المختار ضد مجرمي كربلاء وقع على اكتافهم، وكان من الواضح أنه سيواجه مصاعب جمّة من جرّاء اتباعه لهذا النظام، ونتيجة لوجود التعصب الشديد بين العرب المنبثق من الايحاءات الشيطانية التي كان يقوم بها الامويون وبعض الحكّام والخلفاء الذين جعلوا رؤية المسلمين العرب وفهمهم وتقييمهم وسلوكهم تصبّ جميعاً في قالب توجّهاتهم الفكرية الخاصة. وان الاتكاء على الموالي قد اتاح لهم الفرصة ايضاً لادانته من وجهة نظر الطبقة العربية في المجتمع الاسلامي والتي كانت تشكل آنذاك اقوى فئة في المجتمع الاسلامي. ورغم كلّ هذه الظروف فقد استطاع وبالاتماد على هؤلاء الاشخاص الاستمرار لمُدّة اكثر من عام (٦٦-٦٧).

الامام السّجاد عليه السلام واصحابه

ان الانحراف الذي اشرنا اليه، وكذلك شبهة الامامة التي ظهرت واشيعت بين اهل الكوفة حول محمد بن الحنفية خلافاً لرغبته، قد جعل البعض منهم حائراً في معرفة الوصي الذي عينّه الحسين بن علي عليه السلام. فقد اقرّ القاسم بن عوف وهو احد اصحاب السّجاد عليه السلام بانه كان متردداً في بداية الامر بين علي بن الحسين عليه السلام ومحمد بن الحنفية^(١).

ومنهم كما يقول الكشي: ابو حمزة الثمالي وفرات بن الاحنف^(٢).

وهناك اختلاف حول سعيد بن المسيّب، فقد اعتبره البعض من اصحاب الامام السّجاد عليه السلام ولكنه ظاهراً كان يحكم وفقاً لفتاوى العامة. وورد في كتاب

(١) الطوسي - اختيار معرفة الرجال ص ١٢٤ ط. مشهد.

(٢) نفس المصدر السابق.

رجال الكشي ان موقف ابن المسيّب انما كان بهدف التخلص من مخالف الجور والقتل الاموي.

وعلى كلّ حال فانه كان يكنّ للامام احتراماً لا ينكر. وكان ينهل منه العلم والاخلاق، الاّ انه لم يشارك في تشييع جنازة الامام، واعترض عليه الناس بشدة^(١).

واما ما عدا هؤلاء فقد كانوا يعتبرون - وطبقاً لمصادر الشيعة - من اخلص الناس واكثرهم استقامة. فقد ورد في رواية ان اشخاصاً معدودين وقفوا الى جانب علي بن الحسين في الايام الاولى لامامته هم: سعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب ومحمد بن جبير بن مطعم ويحيى بن ام طويل وابو خالد الكابلي^(٢).

وكما ذكرنا سابقاً، فقد تعرض المجتمع الشيعي بعد واقعة كربلاء الدامية الى ضعف وتشتت شديد، ولم يكن احتمال سقوطه وانقراضه التاريخي بعيداً لا سيما وان البقية المتبقية من المجتمع الشيعي آنذاك تعرّضت للانشقاق والفرقة واصيبت نتيجة ذلك بالانحراف والضياع. وفي مثل هذه الظروف العصيبة المضطربة بدأ الامام السجاد ممارسة مهمته. فشرع اولاً بالاستناد الى احاديث رسول الله المروية عنه عليه السلام بواسطة امير المؤمنين والحسين عليهما السلام والتي تألفت منها ومن الاحاديث الاخرى المنقولة عن سائر ائمة الشيعة، سنّة النبي الموثقة المعتمدة من وجهة النظر الشيعية، بتجديد المنهاج الفقهي لدى الشيعة، وبلورة أسسه ونشر واشاعة نمط التفكير الشيعي لصيانتها من التمزق والانحراف ورفدها بحياة جديدة.

(١) نفس المصدر السابق ص ١١٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٥.

ورغم جهود الامام المتواصلة التي اّدت طبعاً الى بقاء الشيعة الاّ أنّ المدينة وبسبب الانحرافات الفكرية التي سادتها منذ صدر الاسلام، وما نتج عنها من اجواء متشائمة من الخط الفكري الشيعي، لم تكن مناخاً مناسباً لتنامي الشيعة كما قال السجاد عليه السلام: «ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبّنا»^(١).

موقف الامام من الامويين

كان اول موقف للامام مع ولاية بني امية بعد واقعة كربلاء هو موقفه من عبيدالله بن زياد في دار الامارة بالكوفة، اذ سأله ابن زياد في هذا اللقاء عن اسمه فاجابه الامام ان اسمه علي. فقال له ابن زياد: ألم يقتل الله عليّ بن الحسين في كربلاء؟ فأجابه عليه السلام: كان لي اخ يدعى علياً قتله الناس. فقال ابن زياد: بل قتله الله. فقال الامام: «الله يتوفى الانفس حين موتها»^(٢) كناية عن ان الله هو الذي يقبض ارواح الناس عند انتهاء آجالهم، لكن اهل الكوفة هم الذين قتلوه.

واراد ابن زياد قتله، لكن زينب ابنة اميرالمؤمنين تدخلت في الموضوع وحالت بينه وبين قتله^(٣).

وتحدّث معه يزيد ايضاً في الشام ووجه له اللوم والتقريع^(٤). ثم أتيحت للامام فرصة مؤاتية لارتقاء المنبر فاورد خطبة غرّاء عرّف بها الناس بنفسه ونسبه، وكان الامويون قد ضلّلوا اهل الشام بدعائياتهم ولم يتيحوا لهم معرفة اهل

(١) ابن ابي الحديد ج ٤ ص ١٠٤، وراجع كتاب البحار ج ٤٦، الغارات ص ٥٧٣.

(٢) الزمر / ٤٢.

(٣) الطبري - ج ٥ ص ٢٣١ ط غز الدين، المنتخب من ذيل المذيل ص ٦٣٠.

(٤) ابن عبد ربّه - العقد الفريد ج ٥ ص ١٣١.

بيت النبي كما ينبغي، فاطلعوا من خلال خطبة الامام على بعض الحقائق ولهذا السبب منعه يزيد من مواصلة الخطبة وانزله من على المنبر. ثم سعى يزيد الى حفظ ماء وجهه فالتقى بالذنب في قتل سيد الشهداء على ابن زياد، وارسل علي بن الحسين وبقية اسرى كربلاء الى المدينة بكل احترام.

وبعد واقعة كربلاء ثار اهل المدينة ضد الامويين ومهدوا الامور لواقعة الحرة وكانت تلك الثورة بقيادة عبدالله بن حنظلة المعروف بغسيل الملائكة، وكان الدافع من ورائها هو حياة اللعب والفسق والفجور التي كان يحياها يزيد وكانت تلك الثورة ذات طابعٍ معادٍ للامويين.

وقد اتخذ الامام في هذا الامر موقفاً محايداً وخرج من المدينة بصحبة عدد من افراد عائلته ولم يشارك في تلك الثورة بصفته زعيماً للشيعة، لأن اي تعاون له مع القائمين بالثورة كان سيجلب على الشيعة اشد الويلات والمخاطر، لان تلك الحركة كانت غير محسوبة النتائج ولم يكن لها موقف سياسي متين وواضح.

وعلاوة على هذا، فعندما طرد الناس الامويين من المدينة في بداية اندلاع الثورة، تقدم مروان بن الحكم الى الامام وطلب منه ايواء زوجته فاستجاب الامام لطلبه بمقتضى رجولته وعطفه الذي لا يبخل به حتى على الاعداء فأوى زوجة مروان وجعلها في مأمن من اذى الثوار.

وقد فسر الطبري فعل الامام هذا بوجود صداقة قديمة تربطه بمروان^(١). بينما يشير الاختلاف الفاحش في السن بينهما وكذا السلوكية العدوانية للامويين ازاء أب الامام وجده وكل بني هاشم، الى ان رأي الطبري هذا ليس سوى تهمة لا

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٤٥.

اساس لها من الصحة.

ولما قع مسلم بن عقبة المعروف بالمسرف ثورة اهل المدينة وارتكب اكثر الجرائم وحشية ودموية في العصر الاموي، عامل علي بن الحسين عليه السلام معاملة خاصة تتسم بالاحترام واللين وذلك بسبب عدم مشاركته في ثورة المدينة لكنّ المسرف كان يعزو احترامه وسلوكه هذا لتوصية شخصية من يزيد بشأن الامام فهو عندما طلب من اهل المدينة البيعة ليزيد على انهم عبيد له، اكتفى من الامام السجاد بتلك البيعة المتعارفة^(١).

وينبغي للتعرف الدقيق على الموقف السياسي والاجتماعي لكل واحد من الائمة من الاخذ بنظر الاعتبار الظروف الخاصة بكل عصر وواجب كل امام في تلك الفترة علاوة على الوضع السياسي العام السائد في المجتمع المعاصر لذلك الامام ومدى امكان المواجهة العسكرية والفرصة لاعداد الصفوف المقاتلة. وفوق ذلك في الاهمية ضرورة المحافظة على الاسلام الاصيل في مختلف الظروف وملاحظة عنصر الغيب، لأن مثل هذه الظروف وهي التي تحدد الخطوط الاساسية لسياسة ونمط حركة كل امام في مجتمعه.

ومن الطبيعي ان كل ظرف يقتضي عملاً خاصاً، وكل عاقل يدرك عدم امكانية اتباع سياق عمل واحد في الظروف المختلفة.

وفما يخص الامام السجاد عليه السلام فانه - كما اشرنا سابقاً - وجد نفسه في اجواء سياسية واجتماعية املت عليه صبّ كل اهتمامه على صياغة شكل جديد للمذهب الشيعي الذي لم يكن في ذلك الوقت على هيئة فئة معينة في المجتمع، ونشره

(١) ابن ابي الحديد ج ٣ ص ٢٥٩، ابن سعد ج ٥، الاربلي كشف الغمة ج ٢ ص ١٠٧.

والمحافظة عليه .

وفي ذلك الوقت كان الامام موضع سوء ظن من قبل الامويين ، وكانت ادنى حركة منه ستجلب له اسوء العواقب . وفي ظل هذه الظروف يكون طبيعياً من الامام ان يعتبر اية حركة لا تساوي تحمّل مثل هذه العواقب الوخيمة .

وكان من أهم المبادئ الدينية التي ساعدت الامام على المحافظة على نفسه وشيعته واتباعه من الاجراءات القمعية لاعدائه هو مبدأ التقية . فالتقية كانت بمثابة الدرع الذي صان وجود واستمرارية حياة الشيعة على مر التاريخ ، وقد كان أئمة الشيعة يؤكّدون على اتباعهم دوماً بضرورة رعايته والالتزام به بدقة . كما كان طبيعياً أن تنكر بعض الجماعات - التي لم تتعرض لاي ضغط سياسي ، فكانت تعمل بحرية مطلقة بل كانت تحظى بدعم السلطات الحاكمة ايضاً فلم تكن بحاجة الى النشاط الخفي (التقية) - مبدأ التقية بهدف اضعاف الشيعة ، رغم الوجود الصريح لهذا المبدأ في القرآن والسنة .

فقد ورد في رواية عن الامام السجاد عليه السلام انه قال : «من ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كمن ترك القرآن وجفاه الآ من كان في تقية . فقليل له : وما التقية؟ قال : يخاف جباراً عنيداً يخاف ان يفرط عليه أو يطغى»^(١).

ومبدأ التقية هذا وان كانت جذوره موجودة في القرآن . الا انّ أئمة اهل البيت كانوا كثيراً ما يؤكّدون على ضرورة مراعاته من الناحية الفقهية ، وكانوا اكثر الناس تقيّداً به . وكان الامام السجاد يعيش حقيقة في ظروف مضطربة تفرض عليه انتهاج سبيل التقية ، اذ لم يكن امامه سوى اختيار ذلك الطريق .

(١) ابن سعد - ج ٥ ص ٢١٤ ، ابو نعيم نفس المصدر ج ٢ ص ١٤٠ .

ورد في رواية ان رجلاً دخل على الامام السجاد وسأله : «يا ابن رسول الله كيف أنتم؟. فقال له: أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن؟ انما مثلنا في هذه الامة مثل بني اسرائيل كان يذبح ابناؤهم وتستحيا نساؤهم، الا وان هؤلاء يذبحون ابناؤنا ويستحيون نساءنا. زعمت العرب ان لهم فضلاً على العجم. فقالت العجم ؛ وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد منا عربياً. قالوا لهم صدقتم، وزعمت قريش الفضل على غيرها من العرب وقالت كان محمد منا. فان كان القوم صدقوا فلنا فضل على الناس لأننا ذرية محمد واهل بيته وخاصته وعترته لا يشاركونا في ذلك غيرنا. الا أنهم ظلمونا ولم يعطونا حقنا، فان كنت لا تعلم فهكذا نحن».

يقول الراوي كان الامام يتحدث وكأنه يريد أن يُسمع من حوله^(١).

وفي العبارة اعلاه شبه وضع اهل البيت في آل أمية بوضع بني اسرائيل في آل فرعون. وهذا خير توضيح للأوضاع المزرية التي تعرض لها هو واهل بيته وانصاره. والذي يسترعي الانتباه هنا هو ان الامام وفي مثل هذه الظروف العصيبة اتخذ نفس نمط الاستدلال الذي اتبعه امير المؤمنين عليه السلام في مواجهة قريش حيث يشير هناك الى ان قريش غلبت خصومها بالاستدلال بقرباتها من رسول الله واخذت الخلافة لنفسها، وبناء على هذا الاستدلال فينبغي ان يكون امير المؤمنين علي عليه السلام احق الناس باستلام زمام امور الدولة الاسلامية الواسعة. وهكذا كان الامام يسعى الى اثبات احقية اهل البيت بمقام الخلافة وانه لا يغض النظر عن هذا الحق في احلك الظروف.

(١) ابن سعد - ج ٥ ص ٢١٨، الطبري - المنتخب من ذيل المذيل ص ٦٣١، وقد نسبت الرواية اعلاه في امالي الشيخ الطوسي ص ٩٤ البحار ج ٤٦ ص ٢٦٠ الى الامام الباقر عليه السلام.

ولما حدثت واقعة الحرة وقتل فيها عدد كبير من صحابة رسول الله وابنائهم، وهوجمت الكعبة واضرمت فيها النيران على يد مسلم بن عقبة وخليفته من بعده الحصين بن نمير، ولم يكن خلاها من يجروء على الاعتراض على هذه الاعمال المعادية للاسلام. وفيما اصبح سبُّ امير المؤمنين عليه السلام من فوق المنابر سنّة جارية، اذا تركها الخطيب رفع الناس اصواتهم بالاعتراض... في ظل تلك الاوضاع لم يكن لدى الامام سوى عدد محدود من الصحابة المقربين، كما لم يكن بإمكانه القيام بعمل فاعل وراذع، ولذا فانه رأى انّ الوضع يُحتم عليه تجميع الشيعة من جديد بعد تعرّضهم للتشتت وتربية جماعة من الصحابة على الاسلام الاصيل وتزويدهم بالعلوم والمعارف الاسلامية الاصيلية والحقيقية، وتجديد بناء المجتمع الشيعي في الفرصة المناسبة لكي ينقذ بعمله هذا الاسلام الاصيل من النسيان في خضم الاحداث التاريخية، ولهذا فقد كان ينصح الانصار الذين يأتون اليه من اقاصي البلاد بالصبر، ويوصيهم بالتحمل، وينهاهم عن اشتهار السلاح الذي لم يكن يثمر شيئاً سوى الموت^(١).

استفادته من سلاح الدعاء

عندما أصيب المجتمع الاسلامي بالانحراف وغلب عليه حب الرفاه والميل الى الدنيا وطغت عليه مظاهر الفساد السياسي والاخلاقي والاجتماعي، واستولت عليه حالة من الكبت وسرت في اوصاله سريان السرطان فلم يبق للمجتمع منفذاً للتنفّس، استفاد الامام السجاد عليه السلام من الدعاء لطرح بعض المعتقدات والمباني الثقافية الاسلامية فأوجد لدى الناس مرة أخرى اندفاعاً وحركة نحو

(١) ابن سعد ج ٥ ص ٢١٦ ب.

العبادة والتوجه الى الله. ومع ان الهدف الرئيس من تلك الادعية هو العبادة، الا أن التمعن في العبارات الواردة بين طياتها يمكن ان تدلنا على المفاهيم السياسية التي يقصدها الامام.

فالصحيفة السجادية التي تشتمل على اكثر من خمسين دعاءً، لا تشكل في الحقيقة الا بعضاً من ادعية الامام السجاد عليه السلام. فهناك مجاميع أخرى من الادعية اعدت بصورة كتب بلغ تعدادها مع الصحيفة المشهورة ستة كتب يحتوي بعضها على اكثر من ١٨٠ دعاءً^(١).

وهذه الادعية غير موجودة لدى الشيعة فقط بل هي متداولة ايضاً على ألسنة اهل السنة^(٢). وهذا ما يشير الى ان ادعية الامام السجاد عليه السلام قد نفذت حينذاك الى اعماق ذلك المجتمع وقد استفاد منها كلا الفريقين باعتبارها طريقاً يؤدّي الى الله وحلقة وصل بين المخلوق والخالق.

وهناك تعبير غالباً ما يتكرر وجوده بين تلك الادعية وقلها تجد دعاءً يخلو منه هو «الصلاة على محمد وآل محمد» وقد استخدمت هذه العبارة في وقت أصبحت تسمية الاشخاص باسم علي امراً مستهجناً من قبل حكام بني أمية، وجريمة يُعاقب عليها. وتعرض الناس تحت هذه الذريعة للتهديد والملاحقة، وكأن الامر ما كان ليستقيم لسلطين آل أمية الا بسبب علي امير المؤمنين عليه السلام^(٣)، وهنا تتضح قيمة هذه العبارة والهدف من تكرارها. وهناك تعابير مثل: محمد وآله الطيبين الطاهرين الاخيار الانجبيين، وهي من الامثلة التي تكررت مرّات

(١) آقا بركز طهراني - الذريعة ج ١٥ ص ٢٠.

(٢) ابن ابي الحديد ج ١١ ص ١٦٢ وج ٦ ص ١٨٦ وج ٥ ص ١١٣.

(٣) ابن ابي الحديد ج ١٣ ص ٢٢٠، البلاذري - انساب الاشراف ج ١ ص ١٨٤.

متعددة في تلك الادعية .

ان تأكيد الامام على قضية محمد وآله امرٌ فرضه الله في الصلاة عليهم، ويحظى باهميّة بالغة في تبيان عقائد الشيعة. وقبل التطرق الى نقل مضامين من ادعية الامام الواردة في الصحيفة السجادية، نرى من المناسب هنا ايراد حديث عنه في تحكيم آصرة محمد وآله، فقد ورد عنه انه قال: «ان الله فرض على العالم الصلاة على رسول الله وقرننا به، فمن صلى على رسول الله ولم يصلّ علينا لقي الله تعالى وقد بتر الصلاة عليه وترك اوامره»^(١).

ومن جملة المضامين السياسية - الدينية التي وردت في الصحيفة هي مسألة الامامة التي طرحت على شكل مفهوم اسلامي يشتمل بالاضافة الى احقية واولوية اهل البيت في تولّي قيادة المجتمع الاسلامي على جوانب الهية من قبيل العصمة والاستفادة من علوم الانبياء وخاصة النبي الاعظم. ونورد فيما يلي مقاطع منها:

«رَبِّ صَلِّ عَلَى اطَائِبِ اهل بيته الذين اخترتهم لأمرك وجعلتهم خزنة علمك وحفظة دينك، وخلفاءك في ارضك وحججك على عبادك وطهّرتهم من الرجس والدنس تطهيراً بارادتك وجعلتهم الوسيلة اليك والمسلك الى جنّتك»^(٢).

وورد في ادعية أخرى. «اللّهم ان هذا المقام لخلفائك واصفيائك، ومواضع امنائك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها قد ابتزّوها حتى عاد

(١) تاريخ جرجان ص ١٨٨.

(٢) نفس المصدر الدعاء ٤٧ الفقرة ٥٦.

صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مُبتَرِّزين. اللهم العن اعداءهم من الأولين والآخرين، ومن رضي بفعالهم واشياعهم واتباعهم»^(١).

«وصلّ اللهم على خيرتك من خلقك محمد وعترته الصفوة من بريتك الطاهرين واجعلنا لهم سامعين ومطيعين كما امرت»^(٢).

«اللهم انك أيدت دينك في كلّ أوانٍ بامامٍ اقمته علماً لعبادك ومناراً في بلادك بعد أن اوصلت حبله بحبلك وجعلته الذريعة الى رضوانك وافترضت طاعته وحذرت معصيته وامرت بامتثال اوامره والانتهاء عند نهيه ولا يتقدمه متقدّم ولا يتأخر عنه متأخر فهو عصمة اللانذنين وكهف المؤمنين وعروة المتمسّكين وبهاء العالمين واقم به كتابك وحدودك وشرائعك وسنن رسولك صلوات الله عليه وآله واحي به ما اماته الظالمون من معالم دينك واجل به صداء الجور عن طريقتك وابن به الضّراء من سبيلك وازل به الناكبين عن صراطك وامحق به بُغاة قصدك عوجا واجعلنا له سامعين مطيعين وفي رضاه ساعين»^(٣).

يتضح جلياً من خلال العبارات السالفة ان الامام كان يبذل جهوداً حثيثة لنشر مبدأ الاعتقاد بالامامة بمفهومه الشيعي على اعتباره اهم مسألة في المسائل الاعتقادية الاسلامية ونظير هذا الثناء على اهل البيت يُلاحظ بكثرة في نهج البلاغة ايضاً.

(١) نفس المصدر السابق - الدعاء ٤٨ الفقرة ٩.

(٢) الصحيفة السجادية ، الدعاء ٣٤ الفقرة ٥.

(٣) الصحيفة السجادية - الدعاء ٤٧.

وهنا ينبغي الإشارة الى ان احدى الوظائف العظيمة الالهية بالنسبة للائمة الاطهار هي تقديم انفسهم للناس بصفتهم ائمة منصّبين من قبل الله . وهي الوظيفة التي اداها امير المؤمنين عليه السلام وبينها في رحبة مسجد الكوفة من خلال طرحه لحديث الغدير وفي قالب كلمة اهل البيت كما اشير الى ذلك سابقاً . وبالإضافة الى ذلك فان الظلم الذي نزل بحق اهل البيت عليه السلام وغمرهم بين الناس كان يقتضي تقديم اهل بيت رسول الله ﷺ الحقيقيين الى الناس ، حتى لا يتكرر ما حصل في الشام وفي المناطق الاخرى من العالم الاسلامي حينما قال اهل الشام للسفاح انهم لا يعلمون اهل بيت رسول الله ﷺ سوى بني امية . فعندها اخذ الامام السجاد عليه السلام الى الشام ، يبيّن للناس ما ينبغي لهم معرفته في هذا الصدد سواء في الخطبة - كما هو معروف - او من خلال احاديثه المباشرة مع الناس .

فها هو ابن الاعثم راوي هذا الحديث ينقله لنا كما يلي: ^(١) «أدخلوا حرم رسول الله الى دمشق من الباب المسمى بـ«التوماء» ووضعوه في المكان الذي يوضع فيه الاسرى قريباً من باب المسجد وعندها اقترب منهم شيخ وقال: الحمد لله الذي قتلكم وأراح الناس منكم وسلّط امير المؤمنين عليكم .

فقال له الامام السجاد: يا شيخ هل قرأت القرآن؟

قال: نعم قرأته .

قال: هل قرأت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾؟

قال: نعم قرأتها .

(١) ابن الاعثم - ج ٥ ص ٢٤٢ .

قال: يا شيخ نحن القربى. يا شيخ وهل قرأت آية ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّةٌ﴾
في سورة بني اسرائيل؟

قال: نعم قرأتها.

قال: يا شيخ فنحن ذوو القربى. وهل قرأت: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾؟

قال: نعم قرأتها.

قال: يا شيخ فنحن ذوو القربى، وهل قرأت هذه الآية: ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

قال: نعم قرأتها.

قال: يا شيخ فنحن اهل البيت الذين خَصَّهم الله بآية التطهير.

فسكت الشيخ ساعة وظلّ نادماً وقال: اللهم اني اعوذ بك مما قلت وما سبق مني من بغضهم، اللهم اني ابرأ اليك من اعداء محمد وآل محمد».

وبالاضافة الى ما طرحه الامام في هذه الادعية من مواضع سياسية، فانه قد حاول فيها ايضاً تبيان العقائد الاسلامية الصحيحة في قالب هذه الادعية مثل باب التوحيد وما شابه ذلك. فحينما تناهى الى سماعه ان جماعة يشبهون الله بالمخلوقات، جاء الى قبر النبي ﷺ غاضباً وقرأ دعاءً بين فيه المفهوم الاصيل للتوحيد وردّ عقيدة التشبيه^(١).

ففي المجتمع الذي عمل بنو امية على انحطاطه، وجعلوا من الاسلام العزيز

(١) الاربلي - كشف الغمة - ج ٢ ص ٨٩ ط تبريز.

ألعوبة في أيديهم ووسيلة لتحقيق أغراضهم الخبيثة وتمشية أهوائهم الدنيئة، اضحى ترثم الامام السجاد بتلك الادعية وبكاؤه المتواصل درساً تربوياً وهزّة عنيفة للناس المخذوعة والمستغفلة في ذلك العصر. وكما كان الامام كثير الحزن والبكاء على واقعة كربلاء وما تثيره ذكراها لديه من لواعج وشجون وكان يقول:

«لقد بكى يعقوب على يوسف وهو لا يعلم أحى هو ام ميت حتى ابيضت عيناه، فكيف لا ابكي وقد رأيت اجساد ١٦ من خيرة آل بيت الرسول تقطع اوصالهم»^(١).

الامام السجاد عليه السلام واستقطاب الموالي

من جملة المساعي ذات الطابع الديني - السياسي التي بذلها السجاد في تلك الايام هي الالتفات الى طبقة تعرضت ومنذ عهد الخليفة الثاني فصاعداً الى اقصى الضغوط الاجتماعية وخاصة في العصر الاموي، اذ كانت من اشد الطبقات التي عانت الحرمان في القرون الاولى من انبثاق المجتمع الاسلامي فقد كان العبيد بما في ذلك الرجال والنساء الايرانيون منهم والروميون والمصريون والسودانيون يتحملون اشد صنوف العمل قسوة ويتلقون من اسيادهم اقبح انواع الاهانة والاحتقار^(٢).

فكان الامام السجاد كجده امير المؤمنين - الذي استقطب بسلوكه الاسلامي بعضاً من موالي العراق - يسعى لرفع المنزلة الاجتماعية لهذه الطبقة المسحوقة وعندما اعتق الامام احد إمائته وعقد عليها عابه عبد الملك بن مروان على ذلك

(١) ر. ك - الطبري - ج ٥ ص ٢١٢ ط عز الدين بيروت.

(٢) ذكرنا هذا الموضوع في كتاب «التاريخ السياسي للإسلام الى سنة اربعين للهجرة».

وقال له: ما الذي دفعك لمثل هذا العمل؟ فاجابه الامام السجاد محتجاً بالآية الشريفة: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»^(١) وهو يشير بذلك الى زواج النبي ﷺ من صفية وبنّته الى ما فعله النبي ﷺ حيث عقد لابنة عمته زينب على زيد بن حارثة الذي كان عبداً^(٢) وبهذا يكون الامام قد احيا من جديد السيرة الحسنة التي كانت على عهد رسول الله واندرست في العهد الاموي نتيجة للاحتقار الذي لحق بالعبيد.

كتب سيد الاهل يقول:

«كان الامام السجاد يشتري العبيد من غير حاجة له فيهم وانما كان يشتريهم ليعتقهم وقد قيل انه اعتق ما يقارب المائة الف عبد. وكان العبيد الذين يعلمون ذلك يجعلون انفسهم دائماً امام ناظره ليشتريهم ويعتقهم. وكان الامام السجاد عليه السلام يعتقهم في اليوم والشهر من السنة. وسرعان ما امتلأت المدينة بجماعات كبيرة من الموالي المعتوقين من الرجال والنساء وكانوا باجمعهم من مواليه»^(٣).

وكتب العلامة السيد محسن الأمين:

«كان الامام السجاد يعتق في نهاية كل شهر رمضان عشرين منهم، ولم يحتفظ بايٍّ منهم على حالة الرق اكثر من عام، وكان يضع الاموال في ايديهم بعد عتقهم حتى لا يحتاجوا الى الناس»^(٤).

(١) سورة الاحزاب: ٢١.

(٢) ابن سعد - ج ٥ ص ٢٤، ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٧ ص ١٤٠.

(٣) سيد الاهل. زين العابدين ص ٤٧.

(٤) اعيان الشيعة - ج ٤ ص ٤٦٨.

وخلال فترة السنة التي يقضيها هؤلاء كخدم في داره يطلعون عن كذب على شخصيته العلمية والاخلاقية ويتعرفون على تقواه. وكان من الطبيعي ان تتعلق قلوب الكثير منهم بشخصيته ونمط تفكيره وسلوكه.

وفي احد الايام كان الامام السجاد عليه السلام خارجاً من المسجد فسبّه رجل، فهجم عليه الموالي لتأديبه، فنعهم الامام عن ذلك وقال: «ما خفي عليه من سرنا فوق ما يقول». فاستحى الرجل وصار فيما بعد ممن شمله عطف الامام^(١).

وروى الطبري عن عبدالله بن محمد بن عمر: «كان هشام بن اسماعيل (والي المدينة) يسيء جوارنا، ولقي منه علي بن الحسين عليه السلام اذىً شديداً. فلما عزل امر به الوليد ان يوقف للناس، فقال ما اخاف الا من علي بن الحسين. فرّ به علي بن الحسين وقد اوقف عند دار مروان فسلم عليه. وكان علي بن الحسين قد تقدّم الى خاصته ان لا يعرض له احد بكلمة. فلما مرّ ناداه هشام: الله اعلم حيث يجعل رسالته».

ان سلوكية الامام السجاد هذه هي التي غرست عظمته وجلاله في قلوب الناس وجعلتهم يحترمونه الى حد الخضوع حتى امام الخلفاء الذين اوجدوا لهم اُبّهة كاذبة بين الناس.

فقد روي ان هشام بن عبدالملك عندما حج اجتهد ان يستلم الحجر فلم يقدر فجاء علي بن الحسين فوقف له الناس وتتحّوا حتى استلمه فقال اهل الشام لهشام: من هذا؟ فقال: لا اعرفه، فقال الفرزدق: ولكني اعرفه؟ هذا علي بن الحسين، وارث جيل قصيدة في مدحه قال فيها:

(١) الشيرازي، الاتحاف ص ١٣٧، الاربلي، كشف الغمة ج ٢ ص ١٠٢.

يا سائلي اين حلّ الجود والكرم
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
هذا ابن خير عباد الله كلّهم
هذا الذي احمد المختار والده
لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه
هذا عليّ رسول الله والده
هذا الذي عمّه الطيار جعفر والـ
هذا ابن سيّدة النسوان فاطمة
اذا رآته قريش قال قائلها
يكاد يمسكه عرفان راحته
وليس قولك من هذا بضائره
ينما الى ذروة العز التي قصرت
يُغضي حياءً ويُغضي من مهابته
يشق ثوب الدجى عن نور غرته
ما قال «لا» قط الا في تشهده
مشتقة من رسول الله نبعته
حمال اثقال اقوام اذا فدحوا
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
الله فضله قدماً وشرفه
من جدّه دان فضل الانبياء له
عمّ البرية بالاحسان فانقشعت
كلتا يديه غياث عمّ نفعهما

عندي بيان اذا طلابه قدموا
والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا التقى النقي الطاهر العلم
صلى عليه إلهي ما جرى قلم
لخرّ يلثم منه ما وطأ القدم
امست بنور هداه تهتدي الامم
مقتول حمزة ليث حبّه قسم
وابن الوصي الذي في سيفه يقم
الى مكارم هذا ينتهي الكرم
ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم
العرب تعرف من انكرت والعجم
عن نيلها عرب الاسلام والعجم
فلا يكلم الا حين يبتسم
كالشمس تنجاب عن اشراقها الظلم
لولا التشهد كانت «لاء» نعم
طابت عناصره والخيم والشيّم
خُلو الشمائل تحلو عنده نعم
بجدّه انبياء الله قد خُتموا
جرى بذاك له في لوحه القلم
وفضل أمته دانت له الامم
عنها العماية والاملاق والظلم
يستوكفان ولا يعرفهما عدم

سهل الخليفة لا تخشى بواده
لا يخلف الوعد ميموناً نقيبته
من معشر حبّهم دين وبغضهم
يُستدفع السوء والبلوى بحبّهم
مقدّم بعد ذكر الله ذكرهم
ان عُدّ اهل التقى كانوا ائمتهم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم
هم الغيوث اذا ما ازمة ازمت
يابى لهم ان يحل الذمّ ساحتهم
لا يقبض العسر بسطاً من اكفهم
اي القبائل ليست في رقابهم
من يعرف الله يعرف اولية ذا
بيوتهم في قريش يُستضاء بها
فجده في قريش في ارومتها
بدّر له شاهدُ والشعبُ من أحدٍ
وخبيرٌ وحنينٌ يشهدان له
مواطن قد علت في كلّ نائبة

يزيده الخصلتان الحلم والكرم
رحب الفناء أريب حين يعترم
كفر وقربهم منجى ومعتصم
ويستزاد به الاحسان والنعْم
في كل فرض ومختوم به الكلم
او قيل من خير اهل الارض؟ قيل هم
ولا يداينهم قوم وان كرموا
والأسد اسد الشرى والبأس محتدّم
خيم كريم وايدٍ بالندى هضم
سيّان ذلك ان اثروا وان عدموا
لأولية هذا او له نعم
فالدين من بيت هذا نالت الامم
في النائبات وعند الحكم ان حكموا
محمد وعليّ بعده علم
والخندقان ويوم الفتح قد علموا
وفي قريظة يوم صيلم قتم
على الصحابة لم اكنم كما كنتموا

الامام الباقر عليه السلام

محمد بن المنكدر: «ما رأيت احداً يفضل على
علي بن الحسين حتى رأيت ابنه محمداً اردت
يوماً ان اعظه فوعظني»^(١).

الامام الخامس للشيعة هو محمد بن علي بن الحسين عليه السلام المعروف بالباقر.
ولد سنة ٥٨ للهجرة^(٢). فقد روى عنه اليعقوبي انه قال: «قُتِلَ جَدِّي الحسين ولي
اربع سنين واني لاذكر مقتله وما نالنا في ذلك الوقت»^(٣).

ذكر اليعقوبي سنة شهادته انها كانت في عام ١١٧ للهجرة الا ان اكثر
الروايات تشير الى انها كانت عام ١١٤^(٤). سمّه ابراهيم بن الوليد بن عبدالملك

(١) تهذيب التهذيب، ج ٩ ص ٣٥٢.

(٢) كشف الغمة ج ٢ ص ١١٨ طبعة تبريز وراجع كتاب بحار الانوار ج ٤٦ ص ٢١٧.

(٣) اليعقوبي - ج ٢ ص ٣٢٠.

(٤) الفسوي، المعرفة والتاريخ ج ٣ ص ٣٤٦، تاريخ ابي زرعة الدمشقي ج ١ ص ٢٩٥.

فاستشهد ودُفن في البقيع^(١) في المدينة المنورة.

ذكرت الأدلة على امامته مفضلاً في كتب الشيعة^(٢). وكان نقش خاتمه الذي يعبر عادة عن شعار الأئمة في مواجهتهم لمشاكل عصرهم: «العزة لله جميعاً»^(٣).

اشتهر خامس أئمة الشيعة بلقب «الباقر» وقد فسره جابر بن يزيد الجعفي بقوله: «لأنه بقر العلم بقرأ أي شقه واظهره اظهراً».

ويقول اليعقوبي: «كان سُمي الباقر لأنه بقر العلم»^(٤).

ويقول محمد بن مكرم أيضاً في معنى كلمة الباقر ما يلي: «التبقر التوسع في العلم والمال وكان يقال محمد بن علي بن الحسين بن علي الباقر رضوان الله عليهم لأنه بقر العلم وعرف اصله واستنبط فرعه»^(٥).

وروى جابر بن عبدالله الانصاري رواية في فضل الامام الباقر عليه السلام، يقول عنها ابن شهر آشوب ان جميع فقهاء المدينة والعراق نقلوها^(٦). يقول جابر في هذه الرواية:

«قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: انك ستبقى حتى ترى رجلاً من ولدي اشبهه الناس بي اسمه على اسمي اذا رأيته لم يخل عليك فاقراه مني السلام».

(١) الفصول المهمة، ص ٢٢١.

(٢) اثبات الهداة، ج ٥ ص ٢٦٣، اثبات الوصية ص ١٤٢، بحار الانوار ج ٤٦، الكافي ج ١ ص ٣٠٥.

(٣) الكافي ج ٢ ص ٤٧٣، حلية الاولياء ج ٣ ص ١٨٦، تاريخ جرجان ص ٤١٩ «القوة لله جميعاً».

(٤) علل الشرائع ج ١ ص ٢٣٣.

(٥) لسان العرب، آخر كلمة باقر.

(٦) ر. ك - بحار الانوار ج ٤٦، ص ٢٩٤.

وفي تاريخ يعقوبي جاءت بقية هذه الرواية كما يلي:

«فلما كبر سن جابر وخاف الموت جعل يقول: يا باقر يا باقر اين أنت حتى رآه فوق عليه يقبل يديه ورجليه ويقول: بابي وأمي شبيهه ابيه رسول الله ﷺ ان أباك يقرؤك السلام»^(١).

ونقلت هذه الرواية ايضاً عن الامام الصادق عليه السلام وأشار فيها الى ان كلمة الباقر فضيلة اختصت بأبيه^(٢).

وقد أدى نقل هذه الرواية عن رسول الله ﷺ الى شهرة الامام الباقر عليه السلام بهذا اللقب ثم كشفت هذه الكلمة عن وجهها العملي حينما اضحى مجلس الامام موطئاً لاجتماع واستفادة عدد كبير من المحدثين والرواة من اهل السنة.

ولما كان زيد بن علي عند هشام وصف هشام الباقر «بالبقرة» استهزاء وتكياً بزيد، فرد عليه زيد قائلاً: «سماه رسول الله ﷺ باقر العلم وانت تسميه البقرة لقد اختلفتما اذن»^(٣).

المكانة العلمية للامام الباقر عليه السلام

لا شك ان الكثير من علماء السنة يعتقدون ان الامام الباقر عليه السلام قد حاز على شهرة عالمية في زمانه، وكان مجلسه يغصُّ دوماً بالوافدين من مختلف ارجاء واصقاع الارض الاسلامية. وكانت مكانته العلمية بصفته رجلاً عالماً وفقياً

(١) يعقوبي ج ٢ ص ٣٢٠، و. ر. ك. الطبري، المنتخب من ذيل المذيل ص ٤٢.

(٢) الاختصاص ص ٦٢.

(٣) ابن قتيبة، عيون الاخبار ج ٢ ص ٢١٢.

وخاصّة باعتباراه حاملاً لعلوم اهل البيت، تستهوي الكثيرين للاستفادة من مجلسه والاستعانة به لحل العضلات العلمية والفقهية التي تواجههم. وقد فتن بشخصيته في ذلك الوقت اهل العراق الذين كان يشكل الشيعة نسبة كبيرة منهم^(١).

وكان الوافدون عليه يبدون خضوعاً واجلالاً كبيراً لشخصيته العلمية بحيث كان عبدالله بن عطاء المكي يقول: «ما رأيت العلماء عند احدٍ قط اصغر منهم عند ابي جعفر ولقد رأيت الحكم بن عُيينة مع جلالته في القوم بين يديه كأنته صبيّاً بين يدي معلّمه»^(٢).

ومن المؤكد ان شهرة الامام العلمية على حد وصف ابن عتبة له بقوله: «كان واسع العلم ووافر الحلم» هي اكبر من أن يتحدث عنها احد^(٣).

ولم تكن تلك الشهرة مقتصرة في زمنه على الحجاز كما يُعبّر عنها ابن ابي الحديد: «كان سيّد فقهاء الحجاز»^(٤)، بل انها امتدت وانتشرت على نطاق واسع في العراق وخراسان ايضاً، كما يقول الراوي: «رأيت ابا جعفر عليه السلام وحوله اهل خراسان يسألونه عن مناسك الحج»^(٥).

ويقول الذهبي عن الامام الباقر عليه السلام: «كان احدٌ من جمع بين العلم والعمل

(١) الشيخ المفيد الارشاد ص ٢٨٢، بحار الانوار ج ٤٦، كشف الغمة، ج ٢ ص ١٢٦.

(٢) المفيد، الارشاد ص ٢٨٠، حلية الاولياء ج ٣ ص ١٨٠، كشف الغمة ج ٢ ص ١١٧.

(٣) ابن عتبة عمدة الطالب ص ١٩٥.

(٤) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٥ ص ٧٧.

(٥) الكليني الكافي، ج ٦ ص ٢٦٦، بحار الانوار ج ٤٦ ص ٣٥٧.

والسؤدد والشرف والثقة والرزانة وكان اهلاً للخلافة»^(١).

وكتب الاستاذ ابو زهرة عن المرجعية العامة للامام ما يلي: «كان محمد الباقر عليه السلام وريثة الامام السجاد في امامة اهله ونيل الهداية ولذا كان مقصد العلماء من كل البلاد الاسلامية وما زار احد المدينة الا عرج على بيت محمد الباقر يأخذ منه».

وكتب ايضاً: «كان يقصده من ائمة الفقه والحديث كثيرون»^(٢).

وَقُل ايضاً عن عيون الاخبار: «قد أخذ عنه اهل الفقه ظاهر الحلال والحرام»^(٣).

كان شأنه ايضاً شأن ابيه السجاد عليه السلام الذي كان يتمتع بشهرة علمية عظيمة بين الناس ويحظى باحترام الخاص والعام. يقول محمد بن المنكدر وهو من اعلام محدّثي اهل السنّة عن عظمة الامام الباقر عليه السلام: «ما رأيت احداً يفضل علي بن الحسين حتى رأيت ابنه محمداً»^(٤).

اننى عليه الكثير من علماء الاسلام الكبار، وامتدحوا مقامه العلمي ومكانته الفقهية بكلمات وعبارات جميلة، وقد جمعها الاستاذ اسد حيدر في كتابه^(٥).

(١) الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ٤ ص ٤٠٢.

(٢) ابو زهرة، الامام الصادق ص ٢٢ دار الفكر العربي - بيروت.

(٣) حياة الامام الباقر عليه السلام - ج ١ ص ١٣٩.

(٤) الشبراوي، الاتحاف ص ١٤٥.

(٥) اسد حيدر، الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ٢ ص ٤٣٥.

وقد أدّت كثرة رواياته في الفقه والعقائد والعلوم الاسلامية الاخرى الى أن يروي عنه عدا رواة الشيعة الكثير من محدّثي اهل السنّة، من اشهرهم ابو حنيفة الذي لم يكن يقبل اكثر الاحاديث الواردة عن طريق اهل السنّة، لذلك فقد روى الكثير من الروايات المنقولة عن اهل البيت وخاصة عن الامام الباقر^(١).

وكما ذكر الذهبي فقد نقل عنه الاحاديث سوى ابي حنيفة، عمر بن دينار والاعمش والاوزاعي وابن جريج وقرة بن خالد^(٢).

ولما رآه ابو اسحاق وراى مكانته الرفيعة قال واصفاً إيّاه: «لم أر مثله قط»^(٣).

وقال عنه ابو زرعة كذلك: «ان ابا جعفر اكبر العلماء»^(٤).

ويمكن القول بكل جرأة ان سند اغلب روايات الشيعة ينتهي بعد أمير المؤمنين^(عليه السلام) بالامامين الباقر والصادق^(عليهما السلام). وسبب ذلك يعود الى الظرف السياسي الخاص للمجتمع آنذاك والذي اتاح لهذين الامامين اكثر من غيرها فرصة نشر علوم آل محمد^(صلى الله عليه وآله وسلم).

ولذلك فان محافل احاديث الشيعة تنقل اكثر رواياتها عن هذين الامامين.

ولذلك قيل: «لم يظهر من ولد الحسن والحسين من العلوم ما ظهر منه

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ١٢٧. راجع كتاب جامع مسانيد الامام الاعظم ابو حنيفة.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٢٤.

(٣) اسد حيدر الامام الصادق والمذاهب الاربعة ج ٢ ص ٤٤٥ اعيان الشيعة ج ٤ قسم ٢ ص ٢٠.

(٤) ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب ج ٣ ص ٢٧.

في التفسير والكلام والاحكام والحلال والحرام»^(١).

وهذا هو السبب في شهرتهم الواسعة في مجتمع ذلك العصر والعصور اللاحقة بصفتهم علماء فقه ورواة حديث رسول الله ﷺ. وكان ابو زهرة من جملة الشخصيات الكثيرة التي كانت تتردد على مجلسه وتأخذ عنه العلوم والمعارف، وقد ذكر ان سفيان الثوري وسفيان بن عيينة (محدث مكة) وابا حنيفة كانوا يحضرون مجلسه ايضاً^(٢).

سأل الابرش الكلبي هشام بن عبد الملك: «من هذا الذي احتوشه اهل العراق يسألونه؟ قال: هذا نبي الكوفة وهو يزعم أنه ابن رسول الله وباقر العلم ومفسر القرآن»^(٣).

وجاء في موضع آخر ان هشاماً وصفه بـ«المفتون به اهل العراق»^(٤).

ومع كل هذا الثناء والتمجيد الذي قاله العلماء بحقه كم يكون غير منصف من يقول: «ليس يروي عن الباقر من يُحتجُّ به»^(٥).

ان الدافع من وراء كل هذه التصريحات الباطلة بشأن الائمة الاطهار، هو انقباض الكثير من المحدثين غير الشيعة اذ يعتبرون كل من يبدي اي اهتمام بأهل البيت وعلومهم قد فَقَدَ صلاحيته العلمية في رأيهم وان لم يكن شيعياً. ولا ندري كيف يعتبر ابن سعد كل اولئك المحدثين من اهل السنة الذين رووا في كتبهم

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٢٧ بحار الانوار ج ٤٦ ص ٢٩٤.

(٢) ابو زهرة الامام الصادق ص ٢٢.

(٣) الكافي ج ٨ ص ١٢٠، بحار الانوار ج ٤٦ ص ٣٥٥.

(٤) الشبلنجي، نور الابصار ص ١٤٣، سير اعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٠٥.

(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ٣٢٤.

الروايات والاحاديث عن الامام الباقر، من الذين لا يُحتجّ بهم. فكان عليه أن يستثني منهم على اقل تقدير الاوزاعي^(١) أو الآخرين الذين ذكرهم ابن حجر في كتاب (تهذيب التهذيب).

الامام والاختلافات الفقهية بين الفرق الاسلامية

كانت الفترة الممتدة بين عام (٩٤ - ١١٤) هي الفترة التي بدأت واتسعت فيها المشارب الفقهية، وبلغت فيها رواية الحديث المتعلقة بالتفسير ذروتها. فنشط في هذه الفترة من علماء اهل السنّة مثلاً الزهري ومكحول وقتادة وهشام بن عروة في مجال نقل الاحاديث وتقديم الفتاوى. وكان ارتباط بعض العلماء من امثال: الزهري وابراهيم النخعي وابي الزناد ورجاء بن حية بالسلطات الاموية الحاكمة، يستدعي احياء السنة الحقيقية لرسول الله ﷺ بعيداً عن شوائب التحريف العمدي للخلفاء والعلماء المرتبطين بهم. فقد كتب الامام الباقر عليه السلام كتاباً الى سعد الخير يشكو له فيه من علماء السوء وجاء فيه: «فاعرف اشباه الأحرار والرهبان الذين ساروا بكتمان الكتاب وتحريفه فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين»^(٢).

ولو امعنا النظر في كثرة الاحاديث المنقولة في هذه الفترة، واشتهار علم الفقه بين المحدثين في ذلك العصر، لأمكننا القول بأن علم الفقه لدى اهل السنّة قد دخل اساساً في مرحلة التدوين منذ هذه المرحلة فصاعداً فقد انكمشت التحولات السياسية بعد واقعة كربلاء، وانكسار شوكة ابن الزبير والقضاء عليه، وبعد استتباب الامور لحكم بني امية، مما حدا بالكثير من العلماء الى هجر الساحة

(١) راجع كتاب ابن حبان الثقات. نهاية اسم محمد بن علي الباقر عليه السلام.

(٢) الكليني، الروضة ص ٧٧ طبعة الاسلامي.

السياسية والانخراط في حلقات الدرس والحديث، وإيجاد حل للاختلاف الموجود بين الروايات وتقديم الفتاوى الفقهية للناس. ففي عام ١٠٠ للهجرة أصدر عمر بن عبدالعزيز لأول مرة أمراً إلى أبي بكر بن حزم يوصيه فيه بتدوين الاحاديث^(١).

وهذا خير شاهد على ان الحركة الثقافية عند اهل السنة قد بدأت في القرن الثاني بينما بدأت عند الشيعة على عهد الامام الباقر عليه السلام. وذلك ما كان يتطلب اتخاذ المواقف الحازمة لغرض نشر الآراء الفقهية لاهل البيت في مقابل الانحرافات التي انغrust ولأسباب مختلفة في احاديث اهل السنة. ومع ان ملامح الفقه الشيعي كانت الى ذلك العهد قد توضحت في نطاق محدود وضمن اطار الاذان والتقية وصلاة الميت، إلا انه قد تقدم خطوات مهمة في ظل وجود الامام الباقر، ونشطت بين الشيعة حركة ثقافية تلفت الانتباه، وفي تلك المرحلة بالذات بدأ الشيعة تدوين ثقافتهم بما فيها الفقه والتفسير والاخلاق.

لم يكن الفقه والحديث قبل ذلك يلقي اية رعاية او اهتمام في المجتمع الاسلامي. فالصراعات السياسية ونمط التفكير المادي الجاح الذي استحوذ على جهاز الحكم افضى الى اغفال اساس الدين بين الناس وخاصة الفقه. وقد كان المنع من تدوين الحديث بأمر الخليفين الاول والثاني من العوامل الاساسية في انزواء الفقه الذي كان يستند ٨٠٪ منه على اقل تقدير على الاحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ينقل الذهبي عن أبي بكر انه قال:

«فلا تحدّثوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فمن سألكم فقولوا: بينا وبينكم

(١) عبدالرزاق، المصنف ج ٩ ص ٣٣٧، الدارمي، السنن ج ١ ص ١٢٦، البغدادى، تقييد العلم، ص ١٠٥

كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه»^(١).

وقال عمر ايضاً في هذا الصدد: «اقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ وانا شريككم»^(٢).

وحكي عن معاوية ايضاً قوله:

«عليكم من الحديث بما كان في عهد عمر فإنّه كان قد اخاف الناس في الحديث عن رسول الله ﷺ»^(٣).

وقد بلغ جهل الناس ذروته عند بدء الفتوحات الاسلامية فانشغال الولاة والناس وانهماكهم في قضايا الفتوحات والمسائل العسكرية والشؤون المالية. كان قد منعهم من الاهتمام بالنشاطات العلمية والتربية الدينية. فعندما قال ابن عباس في اخر شهر رمضان بالبصرة التي كانت احد المراكز الاصلية للفتوحات، وهو يخطب على المنبر: «اخرجوا صدقة صومكم» لم يفهم الناس معنى كلامه. لذا قال ابن عباس: «من كان من اهل المدينة حاضراً فليقم ويوضّح لهم معنى صدقة الصوم فإنهم لا يعلمون من زكاة الفطرة الواجبة شيئاً»^(٤).

وفي زمن بني امية ازداد ذلك الجهل شدة، كما ذكر الدكتور علي حسن:

«في اثناء عصر بني امية الذين كانوا لا يهتمون كثيراً بامور الدين كان الشعب في الواقع قليل الفهم والمعرفة للفقهاء ومسائل الدين ولم يكن يعرف من هذه

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٧.

(٣) الذهبي تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٧.

(٤) ابن حزم، الاحكام في اصول الاحكام، ج ٢ ص ١٣١.

الشؤون الآهل المدينة وحدهم»^(١).

ورود في مصادر اخرى ايضاً ان الناس لم يكونوا يعرفون كيفية الصلاة والحج طوال فترة النصف الثاني من القرن الهجري الاول^(٢).

وكان انس بن مالك يتأمل في زمانه ويقول: «ما أعرف شيئاً مما كان على عهد رسول الله؟ قيل الصلاة. قال: اليس صنعتُم ما صنعتُم فيها؟»^(٣).

وكل هذا يدل على نسيان الفقه بين عامّة الناس، وهو من اهم الاسباب التي دفعت الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام الى الاهتمام بالفقه، بهدف احيائه بين الناس، وصيانتهم من التحريف الذي كان يحصل بالتأکید في تدوينه واعادة كتابته.

وكان الامام الباقر عليه السلام هو الممثل عن مذهب اهل البيت ومن اوائل الواضعين لاسس الفقه والتفسير من وجهة نظر المذهب الشيعي. اذ يعتبر هذا المذهب ان السبيل الوحيد لنيل العلوم الاسلامية الاصلية يتم فقط عن طريق اهل البيت الذين هم باب علم رسول الله، ولذا قال حضرته لسلمة بن كهيل، والحكم بن عتيبة: «شَرِّقَا او غَرِّبَا فلا تجدان علماً صحيحاً الا شيئاً خرج من عندنا»^(٤).

وكان يقول ايضاً: «فليذهب الحسن -يعني البصري- يميناً وشمالاً، فوالله ما يوجد العلم الا ههنا»^(٥).

(١) نظرة عامّة في تاريخ الفقه الاسلامي، ص ١١٠.

(٢) كشف القناع في حجية الاجماع، ص ٥٦.

(٣) ضحى الاسلام، ج ١ ص ٣٨٦، نقلاً عن البخاري والترمذي.

(٤) الكشي ص ٢١٠ / الكافي، ج ١ ص ٣٩٩ / الصّفّار، بصائر الدرجات ص ٩.

(٥) الكافي، ج ١ ص ٥١، وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٢.

وكان يقول كذلك: «فليذهب الناس حيث شاؤوا فوالله ليس الامر الآ هيهنا - وَاشار الى بيته -»^(١).

وبصفته ممثلاً عن اهل البيت فإنه كان يسعى خلال مناقشاته الى نشر الآراء الفقهية لأهل البيت وتحديد مواضع الانحراف عند اهل السُّنة وكشفها للناس. وكان الامام معروفاً بأنه الميزان لتحديد الصحيح من السقيم حتى بين اكابر علماء عصره، ولهذا نجدهم كثيراً ما كانوا يعرضون عليه معتقداتهم ليتأكدوا من صحتها او سقمها. فها هو ابو زُهرة ينقل احدى المناقشات بين ابي حنيفة والامام، ويكتب بعدها: «ومن هذا الخبر تتبين إمامة الباقر للعلماء يحضرون اليه ويحاسبهم على ما يبلغه عنهم او يبدر منهم وكأنه الرئيس يحاكم رؤوسيه ليحملهم على الجادة وهم يقبلون طائعين تلك الرياسة»^(٢).

وفي احد المرات جاء عبدالله بن معمر (عمير) الليثي الى الامام الباقر عليه السلام وسأله: «أصحيح ما يقال عنك انك تقول بحليّة المتعة؟ فقال له الامام: «أحلّها الله في كتابه وسنّها رسول الله وعمل بها اصحابه».

فقال له عبد الله: لكن عمر نهى عنها. فأجابه الامام: فأنت على قول صاحبك وانا على قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»^(٣).

وكما لاحظنا فالامام يستدل وفقاً لكتاب الله وسنة نبيّه وينبري لمواجهة من يستدلّون بغيرهما. والرواية الآتية تعكس لنا هذا المسار الذي سار عليه

(١) الكافي ج ١ ص ٣٩٩ / الصّفّار، بصائر الدرجات ص ١٢.

(٢) ابو زهرة، الامام الصادق، ص ٢٤.

(٣) كشف الغمّة، ج ٢ ص ٣٦٢ / بحار الانوار، ج ٤٦ ص ٣٥٦ / راجع كتاب الميزان ج ٣ ص ٣٨٩.

الامام:

يروي مجول بن ابراهيم عن قيس بن الربيع قال: «سألت ابا اسحاق عن المسح على الخُفَّين قال: كنت ارى الناس يمسخون على الخُفَّين حتى رأيت رجلاً من بني هاشم وكان محمد بن علي بن الحسين وسألته عن المسح على الخُفَّين فقال: «لم يكن امير المؤمنين عليه السلام يمسح عليهما (وكان يقول): سبق الكتاب المسح على الخُفَّين^(١). ثم يواصل ابو اسحق كلامه: منذ ان نُهاني الامام لم امسح بعدها على الخُفَّين».

يقول قيس بن الربيع: «وانا ايضاً منذ سمعت هذه المسألة من ابي اسحق، لم امسح بعدها على الخُفَّين».

إنَّ قُوَّة استدلال الامام بالكتاب والسُّنة لم تقنع ابا اسحق وحده بل واقنعت معه ايضاً قيس بن الربيع.

وعندما حرّف نافع مولى عمر حديثاً ورواه بشكل خاطئ لغرض الاستدلال على حكمٍ ما، كشف الامام عن ذلك التحريف وروى الحديث بشكله الصحيح^(٢).

كما وقف اصحاب الامام الباقر عليه السلام ايضاً في مقابل الاستدلالات الواهية لأبي حنيفة فيما يخص القضايا الفقهية وأدانوه من الناحية الفقهية^(٣).

(١) اسد حيدر، الامام الصادق والمذاهب الاربعة ج ٢ ص ٤٥٢.

(٢) دعائم الاسلام، ج ٢ ص ٢٦٠ / مستدرک الوسائل، ج ١٥ ص ٢٨٦.

(٣) دعائم الاسلام، ج ١ ص ٩٥ / مستدرک الوسائل، ج ١٥ ص ٢٨٧.

وعارض الامام الباقر عليه السلام بشدة استدلال اصحاب القياس ^(١)، وتصدى لهم بشدة من بعده ولده الامام الصادق عليه السلام. واتخذ الباقر عليه السلام مواقف حازمة ضد سائر الفرق الاسلامية المنحرفة، وكان يسعى خلال هذه المواجهة الى تحديد وعزل المعتقدات الصحيحة لاهل البيت في المجالات المختلفة عن بقية الفرق. وكان موقف الامام ازاء فرقة المرجئة حساساً وحازماً. إذ كانت هذه الفرقة تعتقد ان الايمان اعتقاد باطني ليس الاً ولا يؤثر فيه العمل خيراً كان او شراً، وكانوا يزيلون بالتدريج قيمة العمل الصالح من اذهان الناس. وقد قال الامام عنهم مرة: «اللهم العن المرجئة فانهم اعداؤنا في الدنيا والآخرة» ^(٢).

وكان للامام موقفه من الخوارج الذين كانت لهم تلك الأيام صولات، حيث وصفهم بالمتنسكين الجهلة واصحاب الديانة القشرية والمتعصبين في معتقداتهم وقال عنهم: «ان الخوارج ضيقوا على أنفسهم بجهالتهم ان الدين اوسع من ذلك» ^(٣).

تصديهِ للأفكار اليهودية

ان من جملة الجماعات الخطيرة التي تغلغت في المجتمع الاسلامي آنذاك، وكانت تخلف آثاراً عميقة في ثقافته هم اليهود. فبعض احبار اليهود ممن اعتنقوا الاسلام ظاهراً وغيرهم ممن بقوا على دينهم كانوا منتشرين في ارجاء مختلفة من الوطن الاسلامي، وكان ترجع اليهم وتأخذ من علومهم جماعة من السذج

(١) المفيد، المجالس، ص ٣٩. طبعة النجف/ وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٦.

(٢) الكليني، الكافي، ج ٨ ص ٢٧٦ / بحار الانوار ج ٤٦ ص ٢٩١.

(٣) الطوسي، التهذيب، ج ١ ص ٢٤١ / من لا يحضره الفقيه ج ١ ص ٨٣.

والمغفلين. وقد ظهرت تأثيرات هؤلاء على الثقافة الاسلامية بصورة أحاديث موضوعة تسمى بالاسرائيليات ، يختص القسم الاعظم منها بالتفسير وسرد تاريخ الانبياء السابقين. وكان من جملة العلماء المسلمين الذين ادخلوا هذه الاحاديث الموضوعة في مؤلفاتهم هو الطبري المفسر المعروف الذي حصل على اكثر رواياته بشأن تفسير القرآن عن هذا الطريق.

وقد تركت المساعي العلمية اليهودية في داخل المجتمع الاسلامي تأثيرات مقلقة في المسائل الفقهية والكلامية ايضاً، وهذه القضية على درجة من الوضوح في التاريخ بحيث لا يبقى معها ابهام او ترديد^(١).

وكانت قضية مواجهة اليهود والسموم التي ينفثونها في الثقافة الاسلامية، قضية تستأثر بقسم مهم من برنامج عمل الأئمة الأطهار عليهم السلام. وتفنيد الأحاديث الموضوعة والمملقة من قبل اليهود الخونة بشأن الانبياء الربانيين والمواضيع التي تחדش الصورة الملائكية لانبياء الله، هو من جملة الاهتمامات التي تلاحظ بوضوح في سلوك الأئمة الأطهار، نشير فيما يأتي الى مثالين منها:

١ - جاء رجلان الى النبي داود عليه السلام يختصمان في قضية وطلبا منه الفصل فيها اشارت اليه الآيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة (ص)، حيث تشير الآيتان المذكورتان الى أن احد الرجلين كانت له ٩٩ نعجة وللآخر نعجة واحدة. فاشتكى ذو النعجة الواحدة من ذي التسعة وتسعين نعجة بأنه كان ينوي غصب نعجته. فحكم بينهما داود عليه السلام بدون الاستماع الى اقوال الشخص الآخر اذ قال: «لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه».

(١) السيد الروحاني، بحوث مع اهل السنة والسلفية، ص ٥٠.

وفي هذا الصدد وضع اليهود احاديث ونشروها بين المسلمين تشير الى ان هذه القصة كناية عن زواج داود بزوجة «اوريا». اذ يستفاد من تلك الاحاديث الموضوعية ان النبي داود كان على سطح الدار يتابع حمامة، فأطل من هناك على دار «اوريا» ورأى زوجته فتعلق بها قلبه. ولكي يحقق النبي داود غرضه فقد جعل «اوريا» في خط المواجهة من المعركة فقتل وتزوج داود امرأته، وان الله تعالى قد اشار من خلال هذه الآيات الى تلك القصة بصورة رمزية.

فكم تسيء هذه الروايات الموضوعية الى النبي داود بصفته نبياً من انبياء الله. ان هذه الاحاديث التي نشرت في العصر الاسلامي الاول على يد اشخاص امثال: (كعب الاحبار) و (عبد الله بن سلام) قد جوهت من قبل الامام علي بن ابي طالب عليه السلام اذ قال:

«لا أوتى برجل يزعم ان داود تزوج امرأة أوريا الآجلدته حدّاً للنبوّة وحداً للاسلام»^(١).

وواجه الإمام الرضا عليه السلام ايضاً الاحاديث المسماة بالاسرائيليات واشكل عليها^(٢).

٢- كان اليهود الذين عاشوا في المجتمع الاسلامي -سواء منهم من اسلموا في الظاهر ومن بقوا على دينهم- يسعون الى اقناع المسلمين بأفضلية بيت المقدس -الذي كان قبلة لليهود- على الكعبة. فوضعوا في هذا الصدد احاديث ونشروها بين المسلمين على نطاق واسع. ومن جملة ذلك ما نقله زرارة فيما يلي:

(١) الطبرسي، مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٧٢.

(٢) تفسير الصافي، ج ٤ ص ٢٩٥.

«كنت قاعداً الى جنب ابي جعفر عليه السلام وهو مستقبل الكعبة. فقال: اما إن النظر اليها عبادة. فجاءه رجل من بُجيلة يقال له عاصم بن عمر فقال له: ان كعب الاحبار يقول ان الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة. فقال له ابو جعفر عليه السلام: فما تقول فيما قال كعب؟ قال الرجل: صدق كعب. فقال له الباقر عليه السلام كذبت وكذب كعب الاحبار معك ثم قال وهو غاضب:

«ما خلق الله عز وجل بقعة في الأرض احب اليه منها»^(١).

وسار أئمة الشيعة الآخرون على نفس المنوال ايضاً فيما بعد واطلقوا بعض العبارات مثل: «لا تشبهوا باليهود»^(٢) من اجل قطع تلك الصلة الثقافية التي ظهرت الى الوجود بين المسلمين واليهود والتي كادت ان تؤدي الى حرف الثقافة الاسلامية الأصيلة والغنيّة، هذا في الوقت الذي كان فيه رواة الفرق الاسلامية الاخرى يستقبلون تلك الأحاديث بكل سذاجة ويصنّفونها في الابواب المختلفة لكتبهم ويلوّنون بها ثقافتهم. لكن التابعين لاهل البيت تمسكوا بتوصياتهم، وكانوا على حذر من تلك الأفكار الضالّة فابتعدوا عنها وبقوا في مأمنٍ منها.

التراث الثقافي للامام الباقر

ان نظرة عابرة على اسانيد الفقه والتفسير لدى الشيعة تجعلنا ندرك ان جزءاً كبيراً من الروايات في مجال الفقه والاخلاق والتفسير عند الشيعة قد نُقلت عن الامام الباقر عليه السلام. فكتاب وسائل الشيعة وكتب التفسير مثل البرهان للعلامة البحراني، والصافي للمحقق فيض الكاشاني تشتمل على كثير من الروايات المبيّنة

(١) الكليني، الكافي، ج ٤ ص ٢٣٩ / بحار الانوار، ج ٤٦، ص ٣٥٤.

(٢) وسائل الشيعة - ج ٣ ص ٥٧١.

للمسائل الفقهية والموضحة للآيات القرآنية واسباب نزولها قد نقلت عنه عليه السلام بكثرة.

وبالإضافة الى ما ذكر سابقاً فهناك الكثير من الأخبار التاريخية بشأن امير المؤمنين عليه السلام وحرب صفين نقلت عنه ايضاً^(١). ورويت عنه كذلك احاديث وحكم باهرة وذات معاني عميقة في مجال الاخلاق. وله ايضاً جمل قصار في منتهى الجمال والروعة منبثقة عن روح العصمة والكمال الباطني للامام عليه السلام. وعن هذه الابعاد كتب ابو زهرة ما يلي: «وكان رضي الله عنه مفسراً للقرآن ومفسراً للفقه الاسلامي مدركاً حكمة الأوامر والنواهي فاهماً كل الفهم لمراميها»^(٢).

وكتب عن الأفكار والجمل الأخلاقية للامام عليه السلام ما يلي: «ولكمال نفسه ونور قلبه وقوة مداركه انطقه الله تعالى بالحكم الرائعة وزويت عنه عبارات في الاخلاق الشخصية والاجتماعية ما لو نُظِم في سلوك لتكوّن منه مذهب خلق سام»^(٣).

ومن الامثلة على الدروس الاخلاقية العملية للامام هي معارضته للتنسك والتحجّر، فهو كان يعارض بالممارسة العملية رأي تلك الفئة التي تتصور ان الورع في الاسلام يتمثل بترك جميع النعم الدنيوية. يقول الحكم بن عتيبة:

«دخلتُ على ابي جعفر وهو في بيت منجد وعليه قيصر رطب وملحفة مصبوغة قد أثر الصبغ على عاتقه فجعلت انظر الى البيت وأنظر في هيئته. فقال

(١) راجع كتاب ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ٢ ص ٢١٢-٢٢٩-٢٣٤-٢٨٦ و ج ٣ ص ٣٢٤.

(٢) ابو زهرة، الامام الصادق، ص ٢٤.

(٣) ابو زهرة، الامام الصادق، ص ٢٤.

لي: يا حكم ما تقول في هذا؟ فقلت: ما عسيت ان اقول وانا أراه عليك فأماً عندنا فأتماً يفعلهُ الشبابُ المَرهُقُ».

فقال لي: «يا حكم ﴿من حرّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ وهذا مما اخرج الله لعباده. فأماً هذا البيت الذي ترى فهو بيت المرأة وانا قريب العهد بالعرس وبيتي البيت الذي تعرف»^(١).

وكان البعض يتصور ان السعي من اجل المعيشة والذي يتجسّد في النشاط من اجل حياة افضل امرٌ غير صحيح. فان محمد بن المنكدر وهو احد حفاظ القرآن الكريم في عصر الإمام الباقر عليه السلام كان يُثني على الامام فيقول:

«اردت ان اعظه فوعظني. سألوهُ: وكيف؟ قال: خرجت يوماً من المدينة الى الصحراء في ساعة حارّة فلقيني ابو جعفر محمد بن علي وكان رجلاً بادناً ثقيلاً وهو متكئ على غلامين اسودين او موليين فقلت في نفسي: سبحان الله شيخ من اشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا أما لاعظنيّ فدنوت منه فسلمت عليه فردّ عليّ السلام بنهر وهو يتصبّب عرقاً. فقلت له: اصلحك الله شيخ من اشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا أرايت لو جاء اهلك وأنت على هذه الحالة ما كنت تصنع؟ فقال: لو جاءني الموت وانا على هذه الحالة جاءني وانا في طاعة الله عزوجل اكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وانما كنت اخاف لو جاءني الموت وانا على معصية من معاصي الله. فقلت: صدقت يرحمك الله اردت أن اعظك فوعظتني».

(١) الكافي، ج ٦ ص ٤٤٦ / بحار الانوار ج ٤٦ ص ٢٩٢.

واما في مجال التفسير خاصة فللامام الباقر عليه السلام شهرة واسعة بين اهل السنة
ايضاً لما نقلوه عنه من روايات كثيرة في هذا الشأن، ولهذا السبب قالوا عن
شخصيته العلمية:

«لم يظهر على احد من ولد الحسن والحسين من العلوم ما ظهر منه في
التفسير والكلام والفُتيا والاحكام والحلال والحرام»^(١).

ومدح مالك بن أعين الجُهني الامام الباقر عليه السلام بالايات الشعرية الاتية:

اذا طلب الناس عِلْمَ الْقُرْآنِ كانت قريش عليه عِيالاً
وان فاه فيه ابن بنتِ النبي تلقت يداه فروعاً طوالاً^(٢)

اما فيما يخص المسائل الكلامية فقد نقل الامام الباقر عليه السلام ايضاً الكثير من
خطب امير المؤمنين عليه السلام في توحيد الله وصفاته^(٣). وكان له دور كذلك في تبيان
الكثير من المسائل الكلامية الدقيقة التي يختلف بشأنها الشيعة واهل السنة
وتلاحظ مثل هذه الروايات في كتاب اصول الكافي بكثرة.

ونسب ابن النديم في (الفهرست) الى الامام الباقر عليه السلام كتاباً في التفسير وقال
هذا الكتاب نقله ابو الجارود زياد بن منذر عن الامام^(٤).

(١) ابن شهر آشوب ج ٣ ص ٣٢٧/ بحار الانوار ج ٤٦ ص ٢٩٤.

(٢) الاتحاف بحب الاشراف، ص ١٤٤/ كشف الغمة، ج ٢ ص ١٢٣/ ابن عنية عمدة الطالب، ص ١٩٥/
الفصول المهمة ص ٢١٠/ سير اعلام النبلاء، ج ٤٠٤/ الشبلنجي، نور الابصار ص ١٤٣.

(٣) راجع كتاب: القرشي، الامام الباقر ج ١ ص ١٩٠.

(٤) راجع كتاب: تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام ص ٣٢٧/ ورد تفسير ابي الجارود في تفسير القمي،
وطبعاً كانت طرق تفسير ابي الجارود موضع اشكال بالنسبة للمحققين/ راجع كتاب الذريعة في آخر اسم
تفسير ابي الجارود.

وقد أدّت الجهود الحثيثة التي بذلها الامام الباقر عليه السلام ومن بعده الامام الصادق عليه السلام الى ان يدخل الفقه الشيعي القائم على احاديث رسول الله صلى الله عليه وآله والاهام الغيبي الملقى على قلوب الائمة الاطهار عليهم السلام الى مرحلة التدوين قبل اهل السنة، وهذا ما حدا بمصطفى عبدالرزاق الى القول:

«ومن المعقول ان يكون الشروع الى تدوين الفقه كان اسرع الى الشيعة لانّ اعتقادهم العصمة في أئمتهم او ما يشبه العصمة كان حرياً الى تدوين أقضيّتهم وفتاويهم»^(١).

فهذا هو التراث الفقهي للنبي صلى الله عليه وآله قد وصلنا عن طريق اهل بيت العصمة بشكل مستقل. واهل السنة عندما ينقلون الاحاديث عن الامام الباقر عليه السلام يوصلون سندها عادة الى أبيه الى آبائه الى رسول الله صلى الله عليه وآله. لكن الشيعة وبسبب اعتقادهم بعصمة هذا الامام والائمة الآخرين فهم لا يحتاجون في مثل هذه الحالة الى ذكر سند الحديث. سئل الامام الباقر عليه السلام عن الاحاديث التي ينقلها عن النبي بلا سند قال:

«اذا حدّث بالحديث ولم أسنده فسندي فيه الى زين العابدين عن ابيه الحسين الشهيد عن ابيه علي بن ابي طالب عن رسول الله عن جبرائيل عن الله تعالى»^(٢).

وقد بذل الامام الباقر عليه السلام ايضاً - شأنه في ذلك شأن بقية ائمة الشيعة - جهوداً كبيرة لبيان اهمية ومكانة اهل البيت من الوجهة الدينية، وقد ورد في

(١) تمهيد تاريخ الفقه الاسلامي ص ٢٠٣.

(٢) الشيخ المفيد، الامالي، ص ٤٢ / الطبرسي اعلام الوري ص ٢٦٤.

رواية نقلت عنه في هذا الجانب أنّه قال: «آل محمد ابواب الله وسبيله والدعاة الى الجنّة والقادة اليها»^(١).

وروي عنه ايضاً انه قال: «كل شيء لم يخرج من هذا البيت فهو وبال»^(٢).

وفي الحقيقة انه كان يروي علوم النبي ﷺ التي وردت عن طريق علي عليه السلام الى الناس وذلك في زمن كان فيه اشخاص مثل مكحول^(٣) يمتلئ رعباً عندما يروي حديثاً عن امير المؤمنين عليه السلام ولا يتجرأ على ذكر اسمه بل يكتنيه بأبي زينب. ولهذا فالشيعة هم الوارث الوحيد لاحاديث رسول الله ﷺ والدليل على ذلك هو ان هذا الارث يستند باجمعه الى القرآن وهذا هو ما اشار اليه الامام الباقر عليه السلام بقوله: «اذا حدّثكم بشيء فاسألوني عن كتاب الله»^(٤).

فترات الامام الباقر عليه السلام هو الذي ادى الى حفظ وصيانة الشيعة من التحريفات التي استهدف منها حرف الدين والقضاء عليه بسبب عدم تدوين الحديث وغيره من الدوافع الاخرى، فالامام الباقر هو الذي استدلّ بحديث «عليّ اقصاكم» والذي نُقل عن النبي بطرق متعددة لاقتناع احد علماء اهل السنّة بقبول احكام قضاء الامام علي عليه السلام وابطال عقيدة ذلك العالم القائمة على جواز العمل بالاحكام القضائية للآخرين^(٥). وكذلك اعلن حضرته في بعض المواقف عن بطلان

(١) تفسير العياشي ج ١ ص ٨٦ / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٩.

(٢) الاختصاص ص ٣١.

(٣) عده ابن ابي الحديد من مبغضي امير المؤمنين عليه السلام في حاشية ص ١٢٨ من الاختصاص.

(٤) الميزان، ج ٣ ص ١٧٦، نقلاً عن الكافي.

(٥) الطوسي، التهذيب، ج ٦ ص ٢٢٠ / الكليني، فروع الكافي ج ٧ ص ٤٠٨ / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٨-٩.

العلوم التي نقلت عن طريق بعض الصحابة، بحيث قال في إحدى المرات بعد تقسيمه الاحكام الى احكام اسلامية وأخرى جاهلية:

«اشهدكم على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض باحكام الجاهلية»^(١).

اوضاع ومكانة الشيعة وفقاً لرأى الامام

تزامن عهد الامام الباقر عليه السلام مع الضغوط المتواصلة لخلفاء بني امية وولاتهم على الشيعة في العراق حيث كان العراق هو المركز الاصلي للشيعة ولذلك قيل عن الامام الباقر عليه السلام: المفتون به اهل العراق^(٢) وامام اهل العراق^(٣) او من هذا الذي احتوشه اهل العراق يسألونه^(٤).

وكان الشيعة يتصلون بالامام في كل عام اثناء موسم الحج. وكانت تلك الاتصالات تتم عادة في مكة او عند عودة الحجاج من بيت الله الحرام ومروورهم بالمدينة. وعن هذا يقول الامام الرضا عليه السلام: ٢

«مع ما فيه (الحج) من التفقه ونقل اخبار الائمة عليهم السلام»^(٥).

وهناك مسألة واجهت الامام وشيعته في تلك الأيام هي مشكلة الغلاة الذين كان عددهم يتزايد يوماً بعد يوم. فقد كان هؤلاء يستغلون روايات الامام وينسبون اليه احاديث اخرى موضوعة وغرضهم من ذلك هو اكتساب الصبغة

(١) الكليني، ج ٧ ص ٤٠٧ / التهذيب ج ٦ ص ٢١٧.

(٢) الارشاد، ص ٢٨٢.

(٣) اعيان الشيعة ج ٤ قسم ٢ ص ٤٣.

(٤) الكافي ج ٨ ص ١٢٠.

(٥) وسائل الشيعة، ج ٨ ص ٨.

والهوية الشيعية وجر الشيعة وراءهم بهدف تحقيق غاياتهم. وقد ازداد نشاط هؤلاء الانتهازيين عندما كان الامام في المدينة على وجه الخصوص، ولما طردهم الامام وابعدهم عن محيطه بادر اصحاب الامام الى طردهم ايضاً. وكفروا كلا من المغيرة بن سعيد وبيان بن سميان اللذين كانا من مشاهير الغلاة وقادتهم. وقد نظم ابو هريرة العجلي شعراً بهذا الصدد يقول فيه:

أبا جعفر انت الامام نُحِبُّه ونرضى الذي ترضى به ونُتَابِعُ

أَتَقْنَا رجال يحملون عليكم أحاديث قد ضاقت بهن الاضالعُ

أحاديثُ أفشاها المغيرة عنكمُ وشر الامور المحدثات البدائع^(١)

هذه الاشعار تعكس جهود الغلاة في نشر الاحاديث الملققة باسم الائمة لغرض استقطاب شيعة العراق. فهؤلاء كانوا يعتقدون ان التمسك بطاعة الامام يعفيهم من اداء واجباتهم الاسلامية، وان معرفة الامام تكفي وحدها لبلوغ الفلاح وتحقيق المقاصد الاسلامية المقدسة وفي المقابل كان الامام الباقر عليه السلام يؤكد مراراً وتكراراً على وجوب الاتكاء على العمل الصالح.

وكانت احاديث الامام التي سنورها فيما يلي بمثابة الاجراء المضاد لمواقف الغلاة ومعتقداتهم التافهة، وربما يكون الدافع وراء طرح مثل هذه الاحاديث هو ابطال مفعول افكار الغلاة بين الشيعة: «ان شيعتنا من اطاع الله»^(٢).

«شيعتنا اهل الورع والاجتهاد واهل الوفاء والامانة واهل الزهد والعبادة واصحاب الاحدى وخمسين ركعة في اليوم واللييلة القائمون بالليل

(١) وسائل الشيعة، ج ٨ ص ٨.

(٢) الفصول المهمة ص ٢١٣.

والصائمون بالنهار يزكّون اموالهم ويحجّون البيت ويجتنبون كل محرّم»^(١).

وتشير الروايات الاخرى الواردة في هذا الصدد الى تأمر بعض الغلاة بما اضطر الامام الباقر هنا الى التصدي لهم بشدّة. يقول علي بن محمد النوفلي:

«جاء المغيرة بن سعد الى الامام الباقر عليه السلام وقال له: اخبر الناس اني اعلم الغيب وانا اطعمك العراق. فزجره ابو جعفر زجراً شديداً واسمعه ما كره فانصرف عنه. فاتى ابا هاشم بن محمد بن الحنفية رحمه الله فقال له مثل ذلك، فوثب عليه فضربه ضرباً شديداً اشرف به على الموت»^(٢).

المشكلة الاخرى التي بقيت ملازمة لاهل العراق هي عدم امكانية وثوق الامام بمعتقدهم ومدى اخلاصهم. فرغم جميع ما كانوا يُبدونه من حبّ وموالة وما كان يبدو عليهم من رغبة عميقة في استقبال احاديث اهل البيت ونشرها، الاّ ان اعلان الوفاء ذلك لم يكن من اليسير الاطمينان اليه لأسباب متعددة يتعلق بعضها بالسوابق التاريخية لاهل الكوفة والعراق. فقد نُقل عن بريد العجلي أنّه قال للامام: «يُقال إنّ لاصحابنا بالكوفة جماعة كثيرة فلو امرتهم لاطاعوك واتّبعوك».

فقال له الامام: يجيء احدكم إلى كيس أخيه فيأخذ منه حاجته؟

قلت. لا.

قال الامام: بدمائهم ابخل»^(٣).

(١) صفات الشيعة ص ١٦٣.

(٢) ابن ابي الحديد، ج ٨ ص ١٢١.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٣ ص ٤٢٥.

ومن جهة أخرى كانت المصلحة تفرض على الامام التزام التقية رغم الضغط الشديد والكبت القاتل الذي كان يفرض على الشيعة في العراق وما كانوا ينتظرونه من قدوم الامام الى العراق واعلان الثورة ولهذا السبب اعتراهم بعض الشك في امامته، كما ان عدم حصولهم على المعلومات الكافية عن امامته، جعلهم في حالة شك بينه وبين اخيه زيد، وهذا ما افضى الى حصول انشقاقات بين الشيعة. ومع ان الامام توفي قبل سبع سنوات من ثورة اخيه زيد في الكوفة الآن جذور الميل الى زيد كانت قد نمت في ذلك العهد بين عدد من الشيعة. وعلى الرغم من جميع هذه المصاعب، إلا أن الاختلافات الداخلية نادراً ما كانت تهددهم وكان السر في ذلك هو توجهاتهم ومسارهم المعاكس لمصالح بني امية.

وقد كان تخفيف الضغط السياسي الموجه ضدهم يتناسب طردياً مع اتساع نشاط الغلاة بحيث تجذرت في زمن الامام الصادق عليه السلام حتى عادت هي القضية الرئيسة لدى الشيعة، ولم تخف وطأة الضغوط التي كانت تمارس ضد الشيعة طوال فترة الخلافة الاموية إلا في عهد حكومة عمر بن عبدالعزيز التي استمرت لمدة عامين .

والحديث التالي: «من بلي من شيعتنا بلاء فصبر كتب الله له اجر الف شهيد». يعكس مدى الضغوط التي كانت تمارس ضد الشيعة، ومدى الجهود التي كان الامام يبذلها لاقناعهم بالتحمل والتزام الصبر. وقد نقلت عن الامام الباقر عليه السلام رواية يحلل فيها الاوضاع السياسية للشيعة وانواع الضغوط التي كان الخلفاء يمارسونها ضدهم من بداية الخلافة الى عهده. نورد فيما يلي نص تلك الرواية على امل ان تتكون لدينا فكرة عن رأي الامام بهذا الصدد:

«ما لقينا من ظلم قريش ايانا وتظاهروا علينا وما لقي شيعتنا

ومحبّونا من الناس، ان رسول الله ﷺ قبض وقد اخبر أنّا اولى الناس بالناس
فتمالأت قريش حتى اخرجت الامر عن معدنه واحتجّت على الانصار بحقنا
وحجّتنا ثم تداولتها قريش واحدٌ بعد واحدٍ حتى رجعت الينا فنكثت بيعتنا
ونصبت الحرب لنا ولم يزل صاحب الامر في صعود وكثود حتى قُتل فبويع
الحسن عليه السلام ابنه وعوهده ثم عُدر به.. ثم بايع الحسين من اهل العراق عشرون
الفاً ثم غدروا به، ثم لم نزل اهل البيت نستذل ونستضام ونقصى ونُمتهن
ونُحرم ونُقتل ونُخاف ولا نأمن على دماننا ودماء اوليائنا ووجد الكاذبون
الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به الى اوليائهم وقُضاة السوء
وعمال السوء في كلّ بلدة فحدثوهم بالاحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا
عنا ما لم نقله ولم نفعله ليبغضونا الى الناس وكان عظم ذلك وكبر في زمن
معاوية بعد موت الحسن فقتلت شيعتنا في كل بلدة وقُطعت الايدي والارجل
على الظلّة وكان من يُذكر بحبنا والانقطاع الينا سُجن ونُهب ماله او هُدمت
داره ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد الى زمان عبيدالله بن زياد قاتل
الحسين عليه السلام ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة واخذهم بكل ظنّة وتهمة حتى أن
الرجل ليُقال له زنديقٌ او كافرٌ احب اليه أن يُقال له شيعة علي حتى صار
الرجل يُذكر بالخير ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً يُحدث باحاديث عظيمة عجيبة
من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها ولا
كانت ولا وقعت وهو يحسب انها حقٌ لكثرة من رواها ممن لم يعرف بكذب ولا
بقلة ورع»^(١).

تظهر الرواية السالفة اسلوب تحليل ائمة الشيعة للاوضاع السياسية في تلك

(١) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١١ ص ٤٤/ ابو زهرة الامام الصادق، ص ١١١.

الحقبة الزمنية وتتضمن ايضاً اشارة الى تشدد الخلفاء الامويين ضد الشيعة الذين كانوا يكثرون في العراق بالخصوص. بديهي أنّ الشيعة كان لهم وجود في مكّة والمدينة أيضاً الاّ انهم كانوا اقل بكثير من شيعة العراق. وكان من جملتهم ابن ميمون الذي سأله الامام يوماً: كم انتم بمكّة؟

قال: نحن اربعة. فقال له: انكم نور في ظلمات الارض^(١). (يحتمل ان هذا العدد كان يمثل الشيعة المخلصين).

ولم يكن الكثير من الشيعة قد بلغ درجات عالية في التشيع بل كان عدد منهم يرغب في الاستفادة من علوم اهل البيت الى جانب احاديث اهل السنّة. ولذا اعتبروا في كتب الرجال جزءاً من اصحاب الامام الباقر عليه السلام. وأمّا ما ورد في رجال الطوسي بشأن اصحاب الامام وان عددهم كان ٤٦٧ رجلاً، فلم يكن ذلك يمثل الاّ الاشخاص الذين كانت علاقتهم به اقوى، والاّ فقد ورد في كتب السنّة اشخاص كثيرون جداً نقلوا الاحاديث عن الامام الباقر عليه السلام لكنهم لا يُعدّون من اصحابه. وكان عدد الشيعة السياسيين - وهم الذين كانوا يوالون ويُناصرون اهل البيت لا بسبب ايمانهم بامامة ائمة الشيعة، بل بسبب افضلية الشخصية الانسانية والسياسية لاهل البيت - كثيراً جداً في العراق، الاّ ان احداً لم يكن يعتمد عليهم او يثق بهم في مجال تفجير حركة سياسية او ثورة مع ادنى احتمال في النصر. وما كلام بُريد العجلي مع الامام، والذي مرّ ذكره في الصفحات السابقة الاّ تعبيراً عن هذه الحقيقة.

وقد اشتهر من بين اصحاب الامام عددٌ يسير منهم ونقلت عن طريقهم اكثر

(١) رجال الكشي، ص ٣٤٦.

من نصف احاديثه الموجودة حالياً في جوامع احاديث الشيعة.

فرزارة بن اعين، ومعروف بن خربوذ، وبُريد بن معاوية العجلي وابي بصير الاسدي وفُضيل بن يسار ومحمد بن مسلم، كانوا من جملة من حظي بصحبة الامام الصادق عليه السلام وهم موثقون من قبل علماء الشيعة^(١).

اما زرارة، فقد قال بحقه الامام الصادق عليه السلام: «رحم الله زرارة بن اعين، ولولا زرارة لاندurst اثار النبوة واحاديث ابي»^(٢).

وحصل اشخاص مثل محمد بن مسلم على معرفة عميقة بالامام، فلم يأخذ علمه الا عن الامام الباقر عليه السلام ثم عن الامام الصادق عليه السلام، فكان يقول عن نفسه: «ما شجر في قلبي شيء قط الا سألت عنه ابا جعفر عليه السلام حتى سألته عن ثلاثين الف حديث، وسألت ابا عبدالله عليه السلام سنة عشر الف حديث»^(٣).

حتى ان بعض الشيعة اعتبره (اي محمد بن مسلم) افقه الشيعة^(٤).

وكان جابر بن يزيد الجعفي احد الشيعة المعروفين ايضاً، وكان عندما يروي حديثاً عن الامام الباقر عليه السلام يقول:

«حدّثني وصي الاوصياء ووارث علم الانبياء محمد بن علي بن الحسين»^(٥).

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٣٨ رجال الكشي.

(٢) رجال الكشي ص ٩٠ / المفيد، الاختصاص ص ٦٦.

(٣) الاختصاص ص ٢٠١ / رجال الكشي ص ١٠٩.

(٤) الاختصاص ص ٢٠٣.

(٥) الارشاد ص ٢٨ / حلية الأولياء ج ٣ ص ١٨٣.

وهذه الكلمات نفسها كان يرددها مالك الاشر النخعي على مسامع الناس حينما كان يتحدث عن امير المؤمنين عليه السلام، فكان يقول: «ايها الناس هذا وصيُّ الاوصياء ووراث علم الانبياء»^(١).

وقد اعتبره ابو حنيفة شخصية فريدة فقال عنه: «ليس عندي في الكوفة في بابيه اكبر منه»^(٢).

وكان حمران بن اعين وعبدالله بن شريك من اصحاب الامام الذين يقل نظيرهم^(٣).

وقال الصادق عليه السلام بشأن اصحاب ابيه من حملة حديثه: «ما اجد احداً احيا ذكرنا واحاديث ابي عليه السلام الا زرارة وابو بصير المرادي ومحمد بن مسلم وبُريد ابن معاوية ولولا هؤلاء ما كان احد يستنبط هُدًى، هؤلاء حُفاظ الدين وأمناء ابي عليه السلام على حاله وحرامه وهم السابقون اليانا في الدنيا والآخرة»^(٤).

الامام والقضايا السياسية

اعتبر الشيعة الزيدية قيام الامام بالسيف احد اصول مذهبهم في الامامة، فالشخص العلوي في نظر الزيدية انما يُعتبر اماماً اذا قام بالسيف والا لم يكن كذلك. ولو التفتنا الى نتيجة هذه العقيدة لدى الزيدية لم نجد سوى عدد محدود من الثورات المسلحة التي باءت بالفشل وقام بها كل من محمد ذو النفس الزكية

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ١٧٩. طبعة دار صادر.

(٢) المناقب للمكي، ج ٢ ص ١٨ نقلاً عن ابي زهرة، الامام ابو حنيفة ص ٧٢.

(٣) بحار الانوار ج ٤٦ ص ٣٤٣.

(٤) المفيد، الاختصاص ص ٦٦.

واخوه ابراهيم والحسين بن علي المعروف بشهيد فُخَّ وغيرها من الثورات التي قامت في انحاء مختلفة من العالم الاسلامي. ولم تحرز اي من هذه الثورات نجاحاً ملحوظاً سوى ثورة طبرستان التي يُشكَّ في انتهاء قادتها الى الزيدية او الى الامامية (والاحتمال الاقوى انهم كانوا زيدية) فكانت نتيجة ذلك هي:

اولاً: انهم لم يتبعوا الاوصياء الذين اصطفاهم الله اي الائمة الاطهار عليهم السلام بل اتبعوا كل علوي حمل السيف.

ثانياً: انهم من الناحية الثقافية في الفقه والتفسير والكلام لم يكن لهم ما للشيعنة من ثقافة متسعة ومتراصة ومنظمة. ففي بابي التفسير والفقه كانوا ياخذون برأي ابي حنيفة غالباً وقلدوا في علم الكلام المعتزلة. وقد اعتبروا بنحو عام من فرق وشعب اهل السنة.

وقد أدت الاعمال والنشاطات التي قام بها ائمة الشيعة وخاصة الامامين الباقر والصادق عليهما السلام الى ايجاد ثقافة خاصة وغنية للمذهب الشيعي الذي عرف فيما بعد بالمذهب الجعفري وان كانت شهرته بالمذهب الباقرى لم تكن بعيدة عن الصواب ايضاً.

هذا المذهب الفكري الذي يعرض علوم اهل البيت بشكل منظم وفي جميع المجالات كان ثمرة الجهود المتواصلة التي استمرت ٥٥ عاماً (من عام ٤٨-٩٤) لهذين الامامين.

ان اختيار مثل هذا الموقف في ظل الاوضاع السياسية التي كانت سائدة آنذاك والتي تميّزت بشدة القمع التي كانت تمارسها السلطة الاموية ومن بعدها السلطة العباسية من اجل بقاء حكومتها ضد كل معارضة لم يكن من الممكن أن

يقترن بمشاركة في الخطوات السياسية المهمة، اذ ليس من الصحيح المشاركة دوماً وفي كل الاحوال والظروف في التحركات السياسية بالغاً ما بلغ الثمن، حتى ان كان ثمن ذلك هو الاغضاء عن تبيان المعارف الحقّة واغلاق الطريق أمام الامة الى الابد. ولذا اتخذ ائمة الشيعة في هذه البرهة موقفاً يقوم على بيان المعارف الدينية الحقيقية وكان نشاطهم الاساس يتمثل في تدوين الثقافة الدينية وهذا ما نشاهد ونلمس نتائجه اليوم بشكل واضح.

ولا يعني هذا ان ائمة الشيعة لم يتخذوا ايّ موقف ازاء غطرسة الحكّام المتسلطين. فجميع الشيعة وحتى الامويين كانوا يدركون جيداً ان قادة الشيعة يطالبون بالخلافة، وانهم كانوا -كما تشير الروايات التي نقلناها عن الامام الباقر- يرون الخلافة حقاً لهم ولآبائهم وأن قريشاً اخذتها منهم عنوة. ولهذا كان الشيعة يمتنعون من التعاون مع الحكّام الا في بعض الحالات الاستثنائية التي يسمح فيها بذلك لاسباب خاصة لكن هذه المسألة لم تتخذ دوماً طابع المواجهة العلنية المسلحة او المشاركة المستمرة في الثورات. وبناء على هذا فان المعارضة والدعوة الى عدم التعاون والمواجهة السلبية كانت من المواقف الواضحة والبارزة للامام.

جاء عقبة بن بشير الاسدي وكان من الشيعة الى الامام الباقر عليه السلام، و اشار الى مكانته وعلو منزلته في قبيلته قائلاً: «كان لقبيلتنا عريف^(١) مات ويريدون تعريفي عليهم، فما ترى في ذلك؟ فقال له الامام:

تَمَنُّ عَلَيْنَا بِحَسْبِكَ اِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ بِالْإِيمَانِ مَنْ كَانَ النَّاسُ سَمَوْهُ وَضِيعاً إِذَا كَانَ مُؤْمِناً، وَوَضَعَ بِالْكَفْرِ مَنْ كَانَ يَسْمُونَهُ شَرِيفاً إِذَا كَانَ كَافِراً.

(١) رجال الكشي ص ٢٠٤.

فليس لاحد فضل الا بتقوى الله. اما قولك ان قومي كان لهم عريف فهلك فأرادوا أن يعرّفوني عليهم. فان كنت تكره الجنة وتبغضها فتعرّف على قومك يأخذ السلطان بامرئ مسلم يسفك دمه فتشركهم في دمه عسى ان لا تنال من دنياهم شيء»^(١).

تبين لنا هذه الرواية كيف ان الامام كان يمنع شيعته من تسلّم اي عمل او منصب لدى الحكومة ولو كان بدرجة عريف وهي درجة تافهة لا اهمية لها ويعلل ذلك بجور الحكّام على الرعية، ويعتبر مثل ذلك العمل مشاركة لهم في ارتكاب ذلك الذنب.

وكان الامام الباقر عليه السلام يحثّ الناس بصورة مختلفة على الاعتراض على تصرفات الحكّام ونصيحتهم، وقد وردت عنه عليه السلام رواية جاء فيها: «من مشى الى سلطانٍ جائر فأمره بتقوى الله ووعظه وخوّفه كان له مثل اجر الثقلين من الجن والانس ومثل اجورهم»^(٢).

وكانت التقية درعاً هاماً وواقعياً بيد الشيعة يصونون به انفسهم في الفترات المظلمة للحكم الاموي والعباسي وقد روى الباقر عليه السلام عن ابيه انه قال: «ان التقية ديني ودين آبائي ولا دين لمن لا تقية له»^(٣).

اما بشأن ادعاء الامامة من قبل اهل البيت، فهناك ادلة وشواهد تاريخية كثيرة تؤكدها بجلاء ووضوح، وهي قضية واضحة للناس، والجميع يعلم أن ائمة

(١) قال ابن الاثير: العرفاء جمع عريف وهو القيم بامور القبيلة او الجماعة من الناس يلي امورهم ويتعرّف الامير منه احوالهم لسان العرب.

(٢) المفيد، الاختصاص، ص ٢٦١.

(٣) دعائم الاسلام، ج ١ ص ٩٥.

الشيعة يعتبرون الامامة حقاً لهم لا ينافسهم فيها غيرهم. واما من الناحية النظرية فقد اكد الامام الباقر وبقية الائمة على عدم مشروعية عمل السلطات الحاكمة آنذاك، وانهم يطرحون امام الناس وجوب اقامة الحكومة الحقّة في المجتمع الاسلامي:

«وكذلك يا محمد (بن مسلم) من اصبح من هذه الامة لا إمام له من الله عزوجل ظاهر عادل اصبح ضالاً تائهاً وان مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق، واعلم يا محمد ان ائمة الجور واتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلّوا واضلّوا فاعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد»^(١).

والنتيجة الطبيعية لمثل هذه الكلمات هي سوق الناس نحو اهل البيت وتنبيههم الى الجور الذي يمارسه الولاة بحق ابناء الامة. كما أنّ تأكيدات الامام المتكررة على كون الامامة مع الصوم والصلاة والحج والزكاة تشكّل الاحكام الاساسية الخمسة في الاسلام، ترجع في الحقيقة الى هذا الامر. ثم يقول في نهاية الحديث مؤكداً على امر الولاية: «ولم يُنَادَ بشيء كما نوذي بالولاية فأخذ الناس بأربع وتركوا الولاية»^(٢).

وقد روي ان الامام الباقر دخل يوماً على هشام بن عبدالمك و لم يسلم عليه بالخلافة وامرة المؤمنين، فغضب هشام و اشار الى من حوله ليعتفوا الامام، ثم قال: «لا يزال الرجل منكم شق عصا المسلمين ودعا الى نفسه».

وبعد ان فرغ هشام من توبيخ الامام وأمر الناس بلومه التفت الامام نحو

(١) الكافي، ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) الكافي ج ١، ص ١٨٣.

الناس وقال:

«إيها الناس اين تذهبون واين يراد بكم، بنا هُدي اولكم وبنا ختم آخركم
فان يكن لكم ملكٌ معجل فان لنا ملكاً مؤجلاً وليس بعد ملكنا ملك، لأننا اهل بيت
العاقبة، يقول الله: ﴿والعاقبة للمتقين﴾».

فاصدر هشام امراً بحبس الامام، وتأثر من كان في السجن بشخصية الامام
فعلم هشام بذلك فأمر بارجاعه الى المدينة^(١).

وفي عهد الامام الباقر^(عليه السلام) كان بنو امية عامّة يضيقون الخناق على اهل
البيت ولم يكن ذلك التضيق الا بسبب ادعائهم الامامة والزعامة الدينية السياسية
واعتبارهم بني امية غاصبين لها. وقد ذكرت المصادر التاريخية - التي لا نعلم مدى
صحتها ودقتها - ان عمر بن عبدالعزيز هو الخليفة الوحيد من بين آل امية الذي
كان تعامله مع اهل البيت جيداً نسبياً.

وانطلاقاً من هذا يروي اهل السنة عن الامام الباقر^(عليه السلام) انه قال: «عمر بن
عبدالعزیز نجيب بني امية»^(٢).

وورد كذلك في مصادر الشيعة ان عمر بن عبدالعزيز كان يدفع عطاء اهل
البيت من بيت المال^(٣)، كما أرجع فدك لبني هاشم^(٤).

وفي العهد الاموي كانت اشد الضغوط وطأة على اهل البيت هي تلك التي

(١) ائمتنا، ج ٢ ص ٣٥٨ قلاً عن الكافي ج ١ ص ٤٧٨ / المناقب، ج ٢ ص ٢٨٠.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ١١٩.

(٣) الحميري، قرب الاسناد، ص ١٧٢.

(٤) الخصال، ج ١ ص ٥١ / ر.ك. امالي الطوسي ص ٨٠ / السيوطي، تاريخ الخلفاء ص ٢٣٢.

مارسها ضدهم هشام بن عبد الملك، وكانت اهانتة وكلماته النابية هي التي دفعت زيد بن علي الى الثورة عليه في الكوفة (عام ١٣١). ففي لقاء حصل بين هشام وزيد تناول هشام بالاهانة على الامام الباقر عليه السلام، وقال عنه باستهزاء «البقرة»، فغضب زيد من هذا السلوك الوقح وقال له: «سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الباقر وانت تسمية البقرة لشد ما اختلفتما ولتخالفته في الآخرة كما خالفته في الدنيا فيرد الجنة وترد النار»^(١).

وقد سبّ شخص مسيحي النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم بحضور هشام، فلم يبرز منه اي رد فعل، وهذا ما خلق لدى زيد ردة فعل عنيفة فيما بعد، وقد قيل ان هذه التصرفات كانت هي الدوافع الاصلية والمهمة في ثورة زيد ضد الحكومة الاموية، فكانت بذلك بداية لسلسلة من الثورات المتواصلة على امتداد الوطن الاسلامي الكبير وفي المشرق وايران بالخصوص ضد السلطة الاموية.

وجاء كذلك في مصادر الشيعة ان الامام الباقر عليه السلام استدعى الى الشام برفقة ابنه الصادق عليه السلام ليواجهها هناك الاهانة والاستخفاف ويتخليا عن فكرة الحكومة ومعارضة السلطة الاموية.

وقد روى الامام الصادق عليه السلام بدوره هذه الحادثة في رواية مطوّلة، ننقل فيما يلي مقاطع منها عن لسان الراوي قال:

«حج هشام بن عبد الملك بن مروان سنة من السنين وكان قد حج في تلك السنة محمد بن علي الباقر عليه السلام وابنه جعفر بن محمد عليه السلام فقال جعفر عليه السلام:

«الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً واکرمنا به فنحن صفوة الله على

(١) ابن ابي الحديد ج ٧، ص ١٣٢/ ابن عتبة، عمدة الطالب ص ١٩٤.

خلقه وخيرته من عباده وخلفائه فالسعيد من اتبعنا والشقي من عادانا
وخالفنا».

ثم قال عليه السلام: فاخبر مسلمة اخاه بما سمع فلم يعرض لنا حتى انصرف
الى دمشق وانصرفنا الى المدينة. فانفذ بريداً الى عامل المدينة باشخاص ابي
واشخاصي معه، فاشخصنا فلما وردنا مدينة دمشق حجبنا ثلاثاً، ثم اذن لنا
في اليوم الرابع فدخلنا واذا قد قعد على سرير الملك، وجنده وخاصته وقوف
على ارجلهم سباطان متسلحان وقد نصب البرجاس حذاه، واشياخ قومه
يرمون، فلما دخلنا وابي امامي وانا خلفه. فنادى ابي وقال: يا محمد ارم مع
اشياخ قومك الغرض. فقال له: اني قد كبرت عن الرمي فهل رأيت ان تعفيني
فقال: وحق من اعزنا بدينه ونبيّه محمد صلى الله عليه وآله لا اعفيك. ثم اوماً الى شيخ من
بني أمية ان اعطه قوسك.

فتناول ابي عند ذلك قوس الشيخ ثم تناول منه سهماً، فوضعه في كبد
القوس، ثم انتزع ورمى وسط الغرض فنصبه فيه، ثم رمى فيه الثانية فشقَّ
فواق سهمه الى نصله ثم تابع الرمي حتى شقَّ تسعة اسهم بعضها في جوف
بعض. وهشام يضطرب في مجلسه. فلم يتمالك الا أن قال: اجدت يا ابا جعفر
وانت ارمى العرب والعجم، هلاً زعمت انك كبرت عن الرمي، ثم ادركته ندامة
على ما قال.

وكان هشام لم يكن كئى احدأ قبل ابي ولا بعده في خلافته. فهم به
واطرق الى الارض اطراقة يترؤى فيها وانا وابي واقف حذاه مواجهين له. فلما
طال وقوفنا غضب ابي فهم به. وكان ابي عليه السلام اذا غضب نظر الى السماء نظر
غضبان يرى الناظر الغضب في وجهه.

فلما نظر هشام الى ذلك من ابي قال له: اليّ يا محمدا! فصعد ابي الى السرير وانا اتبعه، فلما دنا من هشام قام اليه واعتنقه واقعده عن يمينه، ثم اعتنقني واقعدني عن يمين ابي. ثم اقبل على ابي بوجهه فقال له:

يا محمد لا تزال العرب والعجم تسودها قريش ما دام فيهم مثلك، لله درك، من علّمك هذا الرمي؟ وفي كم تعلّمته؟ فقال ابي: قد علمت ان اهل المدينة يتعاطونه فتعاطيته ايام حداثتي ثم تركته. فلما اراد امير المؤمنين منّي ذلك عدت فيه. فقال له ما رأيت مثل هذا الرمي قط مذ عقلت، وما ظننت ان في الارض احداً يرمي مثل هذا الرمي. ايرمي جعفر مثل رميك؟

فقال: انا نحن نتوارث الكمال والتمام للذين انزلهما الله على نبيّه ﷺ في قوله «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» والارض لا تخلو ممّن يكمل هذه الامور التي يقصر غيرنا عنها.

قال: فلما سمع ذلك من ابي انقلبت عينه اليمنى فاحولّت واحمرّ وجهه وكان ذلك علامة غضبه اذا غضب.

ثم واصل هشام حديثه قائلاً: ان علياً كان يدّعي علم الغيب والله لم يطلع على غيبه احداً فمن اين ادّعى ذلك؟ فقال ابي: ان علياً هو الذي تولّى نشر معارف القرآن وعلوم النبي ﷺ.

ثم امر هشام باطلاقها وارجاعها الى المدينة.

ثم جرت بين الامام والرهبان والقساوسة المسيحيين المقيمين في الشام محاجة ومساءلة، وقد جاء ذكرها مفصلاً في كتب الحديث. ثم امر هشام ان يغادر الامام المدينة باسرع ما يمكن حتى لا يتأثر اهل الشام بعلمه. وقد كان بعث بريداً

الى عامله على المدينة كتب فيه: «ان ابنيّ ابى تراب ساحرين ويدّعيان كذباً ما يظهران من الاسلام لانهما تأثرا برهبان النصارى ومالا اليهم. فكرهت أن انكّل بهما لقربتهما، فاذا وصلا الى المدينة، نادِ في الناس: برئت الذمة ممن يشاريهما او يبايعهما او يضافحهما او يسلمّ عليهما فانهما قد ارتدا عن الاسلام».

وقد صدق الناس ما ورد في هذا الكتاب، واغلظوا للامام في المعاملة والقسوة لكن الامام حذّرهم ونصحهم وخوفهم من عذاب الله، فكفوا عن اهانتهم وايدائهم وهذه الرواية تعكس حيلة هشام من اجل مسح صورة اهل البيت.

الامام الصادق عليه السلام

ابو عمرو الجاحظ: «جعفر بن محمد
الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه»^(١).

الامام السادس للشيعة هو جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ولد عام ٨٠ او
عام ٨٣ للهجرة.

يرجع الاساس الفكري والعقائدي للشيعة الى الامام الصادق عليه السلام، فعلى
يده تم نشر الكثير من علوم واحاديث اهل البيت. وقد كان الامام الصادق الحد
الفاصل بين الفرق، نتيجة ظهوره لدى الشيعة، وقد جعل اهم واجب امام ناظره
هو صيانة الشيعة من الانحراف ووقايتهم من التأثر بالانحرافات التي كانت سائدة
في عصره والتي كانت تهدد على الدوام النقاء الفكري والعقائدي والاستقلال
الثقافي لهم.

(١) رسائل الجاحظ ص ١٠٦.

والروايات الواردة في امامة جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كثيرة تعرضت لها الكثير من جوامع الحديث والكتب التاريخية للشيععة من جملتها (الكافي ، كتاب الحجّة)، و(كشف الغمة في معرفة الائمة)^(١)، و(اثبات الوصية)، و(ارشاد المفيد) و(اثبات الهداة).

كان الامام الباقر عليه السلام يعيش في المدينة، واما الامام الصادق عليه السلام فحيث كان اكثر شيعة في العراق فانه عاش فيه رداً من الزمن لهذا السبب او لأسباب أخرى^(٢).

وفي عهده سقطت الدولة الاموية وانتقل الحكم الى بني العباس، وبعد أن أمضى عليه السلام اطول مدة - قياساً الى سائر الائمة - في ارشاد الناس، رحل اخيراً عن هذه الدنيا في شوال عام ١٤٨ للهجرة، وترك الشيعة في حزن دائم ومأتم لا ينقطع لفقده. ونُقلت بشأن شهادته رواية عن اهل السنة انفسهم^(٣) الا ان ابا زهرة اعتبرها غير صحيحة، مستنداً بذلك الى ثناء المنصور على الصادق عليه السلام واعلانه عن اسفه لرحلته، وهو ما رواه اليعقوبي^(٤).

كما اعتبر ان مثل هذه الاجراء من قبل المنصور يتعارض وسياسته في توطيد دعائم حكمه^(٥).

لكن ينبغي القول بان كلا الردين لا يُعتبران نصاً تاريخياً ولا يشكّلان دليلاً

(١) كشف الغمة، ج ٢ ص ١٦٧-١٧٣.

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧. طبعة القاهرة.

(٣) الاتحاف، للشبراوي، ص ١٤٧.

(٤) اليعقوبي، ج ٣ ص ١١٧/الامام الصادق، ابو زهرة، ص ٦٧.

(٥) الامام الصادق ص ٦٤.

على عدم استشهاده. لأن اعلان المنصور عن اسفه بصفته خليفة - فلا يريد أن يُظهر ان الامام الصادق عليه السلام استشهد بناءً على اوامره - امر طبيعي جداً، وقد حصل نظير هذا الموقف ايضاً للمأمون ازاء الامام الرضا عليه السلام، بل يُعتبر مثل هذا الامر قضية طبيعية جداً فيما يخص السلاطين وحوادث الاغتيال السياسية التي تُنفَّذ بناءً على اوامرهم.

وكذلك قيام المنصور بقتل عدد كبير من العلويين وعدائه الصريح لهم يتنافى مع سلوكية المنصور حسبما يصرّح به ابو زهرة.

بل ان العكس هو الصحيح، فقد كان قتل الامام الصادق عليه السلام متطابقاً واسلوبه في الحكم، كما هو الحال في سلوكه مع اعدائه الآخرين. وكل ذلك كان يجري في الخفاء وبسرية تامة لكي يبقى هو في مأمن من افرازاته واعراضه الجانبية. وعلى هذا فلو وجد شاهد تاريخي ينسب بسمه على يد المنصور فسيكون ذلك اكثر مقبولة من اعلان المنصور عن اسفه.

شخصية الامام الصادق عليه السلام الفقهية والاخلاقية

توجد شواهد جمة على نبوغ شخصية الامام الصادق العلمية. اما من جهة نظر الشيعة فهم يعتقدون بتنصيبه لمقام الامامة من الله تعالى، اذ ستكون النتيجة المباشرة لمثل هذا الاعتقاد ان لديه علم الامامة الخاص. واما عند اهل السنة فقد كان يحظى بمقام شاخ في مجالات الرواية والحديث والفقه والافتاء عندهم، حتى انهم يعدّونه من شيوخ ابي حنيفة ومالك بن انس وعدد كثير من كبار محدّثيهم. فمالك بن انس من جملة من تتلمذوا مدة طويلة على يد الامام الصادق عليه السلام، وقال عنه:

«ولقد كنت آتي جعفر بن محمد وكان كثير المزاح والتبسّم، فاذا ذكر عنده النبي ﷺ اخضر واصفر ولقد اختلفت اليه زماناً وما كنت اراه الا على ثلاث خصال: اما مصلياً واما صائماً واما يقرأ القرآن. وما رأيته قط يحدث عن رسول الله ﷺ الا على الطهارة ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء الزهاد الذين يخشون الله وما رأيته قط الا يخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي»^(١).

ونقل عن عمرو بن المقدم أنّه قال: «كنت اذا نظرت الى جعفر بن محمد علمت أنّه من سلالة النبيين»^(٢).

وقال الجاحظ وهو من مشاهير علماء القرن الثالث: «جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه ويقال ان ابا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري وحسبك بهما في هذا الباب»^(٣).

ويُني ابن حجر الهيتمي ايضاً على مكانة الامام وشخصيته العلمية ويشير الى أن اشخاصاً مثل يحيى بن سعيد وابن جريج ومالك وسفيان الثوري وابي حنيفة وشعبة وايوب السجستاني نقلوا عنه الكثير من الروايات^(٤).

وقد نقلت عبارات كثيرة قالها العلماء والمفكرون عن شخصيته جمع الاستاذ اسد حيدر اغلبها في كتابه القيم (الامام الصادق والمذاهب الاربعة)^(٥) ولا حاجة

(١) المناقب للزواوي، ص ٤١ نقل عن ابي زهرة / الامام مالك ص ٩٤ - ٩٥.

(٢) تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ج ٢ ص ١٠٤ / كشف الغمة ج ٢ ص ١٨.

(٣) وسائل الشيعة الجاحظ، ص ١٠٦.

(٤) الصواعق المحرقة، ص ١٢٠.

(٥) الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ١ ص ٦٢.

الى ذكرها في هذا الكتاب.

ولا شك ان كثرة المتعلمين الذين كانوا يحضرون في حلقة درسه، او الذين نقلوا عنه الاحاديث يظهر مدى عظمة شخصيته العلمية.

كان الحسن بن علي الوشاء يقول: «رأيت في مسجد الكوفة تسعمائة شخص يقول كل منهم حدّثني جعفر بن محمد»^(١).

وتتلمذ على يده ايضاً نصير بن كثير وسفيان الثوري -الذي طارت شهرته في المصادر السنّية بالزهد والعلم- واكتسب منه العلم والاخلاق^(٢) قد جاء اليه عند وقت الحج وقالوا: «إنّا ذاهبان الى الحج، علّمنا شيئاً تكون به نجاتنا. فعلمهما الامام دعاء»^(٣).

وفي مواقف أخرى يُلحّ في سؤال الامام ليروي له حديثاً^(٤).

وقد كان هناك ايضاً من يروي الاحاديث الملقّة عن الامام الصادق عليه السلام بقصد الاساءة اليه. يقول شريك في هذا الصدد: «كان جعفر بن محمد رجلاً صالحاً مسلماً ورعاً. فاكتنفه قومٌ جهّال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون حدّثنا جعفر بن محمد ويحدّثون بأحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستأكلون الناس بذلك ويأخذون منهم الدراهم ومن هؤلاء بيان بن سمعان الذي ادّعى ان معرفة الامام تكفي عن الصوم والصلاة،

(١) الامام الصادق، فضل الله، ص ١٢٩، و.ر.ك، الامام الصادق والمذاهب الاربعة ج ١ ص ٦٧.

(٢) كشف الغمة، ج ٢ ص ١٦٦ ط تبريز.

(٣) السهمي، تاريخ جرجان ص ٥٥٤ / المزني، تهذيب الكمال ج ٥ ص ٩٢ .

(٤) تهذيب الكمال ج ٤ ص ٨٥ / سيرة اعلام النبلاء، ج ٦ ص ٢٦١.

وما قال جعفر شيئاً من هذا قط. كان جعفر اتقى واورع من ذلك»^(١).

ولو تجاوزنا جميع هذه الموارد فقد كانت للامام بين شخصيات عصره وخاصة العلماء منهم عظمة تثير الاعجاب والحيرة. كتب ابو زهرة في هذا الشأن: «ما أجمع علماء الاسلام على اختلاف طوائفهم في امر كما اجمعوا على فضل الامام الصادق وعلمه»^(٢).

وكتب ايضاً الشهرستاني مؤلف كتاب (الملل والنحل) عن شخصيته العلمية والاخلاقية كما يلي: «وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا وورع تام عن الشهوات»^(٣).

وبالاضافة الى ما اكتسبه منه ابو حنيفة^(٤) فقد روى عنه الاحاديث ايضاً، وتلاحظ الكثير من رواياته التي نقلها عن الامام الصادق عليه السلام في كتاب (الآثار)^(٥). وقال عن الامام الصادق عليه السلام: «ما رأيت افقه من جعفر بن محمد وأنه اعلم الامة»^(٦).

ويقول عنه المؤرخ المشهور ابن خلكان: «احد الائمة الاثني عشر على مذهب الامامية وكان من سادات اهل البيت ولُقّب بالصادق لصدق مقالته

(١) اختيار معرفة الرجال، الطوسي، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ طبعة مشهد.

(٢) الامام الصادق، ابو زهرة ص ٦٦.

(٣) الملل والنحل، ج ١ ص ١٤٧ / الامام الصادق، ابو زهرة ص ٣٩.

(٤) جامع المساند ابو المؤيد بن احمد الخوارزمي، ج ٢ ص ٣٤٩، ط بيروت، دار الكتب الاسلامية.

(٥) ابو زهرة، الامام الصادق ص ٣٨.

(٦) جامع المساند ج ١ ص ٢٢٢ / الامام الصادق، ابو زهرة، ص ٢٢٤ / الامام ابو حنيفة، ص ٧٠.

وفضله اشهر من أن يُذكر»^(١).

وقال عنه الشيخ المفيد عليه السلام: «ولم ينقل العلماء عن احد من اهل بيته ما نُقل عنه»^(٢).

كان المنصور العباسي في صراع دائم مع العلويين وقد سعى الى التقليل من شخصية الامام الصادق عليه السلام من خلال تعظيمه لبعض علماء اهل السنة من امثال مالك بن انس. اذ كان يقول له: «أنت والله اعقل الناس واعلم الناس، ولئن بقيتُ لا كُتِبَ قولك كما يكتب المصاحف. ولا بعثن به الى الآفاق فأحملهم عليه»^(٣).

لم تكن حركة المنصور هذه ناتجةً عن حبه لمالك، بل اراد جعله رمزاً وتجسيدا ليطفى بذلك نار حقه وغضبه على الامام الصادق عليه السلام.

فقد كان المنصور يتشبت بكل وسيلة ممكنة للاساءة الى الامام، وخدش شخصيته العلمية والفقهية، مثلما دفع ابا حنيفة للوقوف في مقابل الامام ومناقشته والتباحث معه فان انتصر ابو حنيفة، فسيكون ذلك بمثابة اخراج للامام من ساحة العلوم والمعارف الاسلامية وقد روى ابو حنيفة نفسه هذه الحادثة فقال:

«قال لي المنصور ان الناس ولعوا بمجعفر بن محمد وهم يتوافدون عليه باستمرار ، فاجمع له من المسائل المستعصية واسأله عن جوابها فان هو عجز عن الاجابة عليها سقط في اعين الناس، فجمعت له اربعين مسألة مما تصعب الاجابة عليه». ثم التقى الامام الصادق عليه السلام وابو حنيفة في الحيرة بحضور المنصور، ووصف

(١) وفيات الاعيان - ج ٨ ص ١٠٥.

(٢) كشف الغمة، ج ٢ ص ١٦٦.

(٣) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٢٠٩.

ابو حنيفة لحظة دخوله مجلس المنصور كالآتي:

«لما دخلت المجلس رأيت هيبة جعفر بن محمد غطت حتى على المنصور نفسه، فسلمت وجلست في مكاني، فالتفت المنصور اليّ وقال: اعرض ما لديك من مسائل على ابي عبدالله.

فألقيت عليه المسائل التي اعددتها الواحدة تلو الاخرى وهو يجيب قائلاً: رأيكم في القضية الفلانية كذا واهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا. وكان رأيه في قسم من المسائل يوافق رأينا وفي مسائل أخرى يوافق رأي اهل المدينة وبعضها يختلف عن الجانبين، حتى اجاب عن اربعين سؤالاً.

وعند انتهاء الاسئلة قال ابو حنيفة مشيراً الى الامام الصادق عليه السلام: ان اعلم الناس اعلمهم باختلاف الناس»^(١).

ومن الطبيعي جداً ان ينادي الامام مثلما كان جدّه امير المؤمنين عليه السلام ينادي: «سلوني قبل ان تفقدوني فأنت لا يحدّثكم احد بعدي بمثل حديثي»^(٢).

والاحاديث التي وصلتنا من الامام الصادق عليه السلام لا تختص بالفقه فقط، بل وصلتنا منه احاديث ايضاً في مجال التفسير وعلم الكلام والاخلاق. ولو راجعنا كتاب (اصول الكافي)، لتبيّن لنا عمق وسعة نظر الامام في المسائل العقلية الاسلامية. كما تضمنت تفاسير البرهان والصافي ونور الثقلين عدداً كبيراً من احاديثه.

(١) المزي، تهذيب الكمال، ج ٥ ص ٧٩ - ٨٠ / ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٢ ص ٥٥٦.

(٢) تهذيب الكمال، ج ٥ ص ٧٩، سير اعلام النبلاء، ج ٦ ص ٢٥٧، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٢ ص ٥٥٦.

كتب العالم السُّنِّي أبو زهرة في هذا الصدد يقول: «ولم يكن علمه مقصوراً على الحديث وفقه الاسلام بل كان يدرّس علم الكلام»^(١).

ولا يمكننا هنا تبيان جميع النظريات الكلامية للامام، الا أن عبارته بشأن مسألة الجبر والتفويض وهي عبارة مشهورة قال فيها: «لا جبر ولا تفويض بل امرٌ بين أمرين» تُعدُّ اجمل واشمل وادق تعبير طرح في هذا المجال.

ويقول أبو زهرة في موضع آخر من كتابه عن الامام الصادق عليه السلام: «وفوق هذه العلوم كان الامام الصادق على علمٍ بالاخلاق وما يؤدّي الى فسادها»^(٢).

وكان عدد الرواة الذين رووا عنه الاحاديث كبيراً جداً، يمكن العثور على اسمائهم في (تهذيب الكمال) للامام المزي^(٣) وبقية كتب الرجال مثل (تهذيب التهذيب)، ومن بينهم عدد كبير من الشخصيات البارزة عند اهل السنة، وقد اورد الذهبي في كتاب سير اعلام النبلاء اسماء الرواة الذين نقلوا عن الامام الصادق عليه السلام^(٤).

هذا في وقت كان فيه الكثير من المحدثين لا يجروون على النقل عنه في عهد بني أميّة، فقد ذكر بشأن مالك بن انس بأنه: «لم يرو عن جعفر بن محمد حتى ظهر امر بني العباس»^(٥).

(١) أبو زهرة، الامام الصادق ص ٦٦.

(٢) أبو زهرة - الامام الصادق ص ٦٧.

(٣) تهذيب الكمال، ج ٥ ص ٧٥ و ٧٦.

(٤) الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ٦ ص ٢٥٦.

(٥) ابن عدي الكامل في ضعفاء الرجال ج ٢ ص ٥٥٥ / الذهبي، سير اعلام النبلاء ج ٦ ص ٢٥٦.

شيعة الامام الصادق عليه السلام

كان اتساع نطاق التشيع وكثرة اصحاب الامام الصادق عليه السلام مصحوباً طبعاً بالكثير من الاختلافات والمصاعب. فلم يكن باستطاعة جميع تلاميذه وشيعته في ذلك العصر وضع جميع افكارهم وتصوراتهم في الزاوية الصحيحة، واكتساب معارفهم الدينية من مصدرها الاساس وهو بيت الرسالة، كما كان الحال بالنسبة لمحمد بن مسلم ووزارة.

فقد كان الكثير منهم يحضرون في حلقات درس المحدثين من اهل السنة، وهذا ما كان يؤثر على نمط تفكيرهم وفهمهم، ومن جانب آخر فقد كان لكثرة اصحابه وانتشارهم في الاصقاع القاصية والدانية تأثيره ايضاً اذ كان يتعذر عليهم الاتصال المباشر بالامام لذا فهم كانوا يرجعون في مسائلهم الفقهية والعقائدية الى الشيعة الاكثر شهرة وقد ادى ذلك الى سريان الاختلاف في وجهات نظرهم الى بقية الشيعة. وقد اوجد التناحر السياسي بين عدد من الشيعة ميولاً لدى البعض منهم تجاه الحكومة العباسية الفتية التي كان لها قبل هذا نفوذ واسع في الاوساط الشيعية وهذا ما اضاف عاملاً آخر الى عوامل الاختلاف بين الشيعة.

وعلاوة على كل ذلك اصبحت قضية الزيدية عاملاً آخر يضاف الى عوامل هذه التفرقة اذ ادت حركاتهم الثورية الى استقطاب الشيعة السياسيين والمتطرفين الى الالتفاف حول هذه الفرقة، وكان من الطبيعي أن تترك مثل هذه الاحداث تأثيراتها السلبية والعميقة نسبياً على الشيعة.

وفي نفس الوقت كان بين اصحاب الامام الصادق عليه السلام شيعة حقيقيون بذلوا جهوداً جبّارة ومتواصلة من اجل المحافظة على آثاره العلمية وما ورد عنه من روايات.

يقول الامام الصادق عليه السلام بهذا الشأن: «ما احد احيى ذكرنا وأحاديث ابي الا زرارة وابو بصير ليث المرادي ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية العجلي ولولا هؤلاء ما كان احد يستنبط هذا، هؤلاء حُفاظ الدين وأمناء ابي عليه السلام على حلال الله وحرامه وهؤلاء السابقون الينا في الدنيا والسابقون الينا في الآخرة»^(١).

وقال ايضا: «رحم الله زرارة بن اعين لولا زرارة ونظراؤه لاندurst احاديث ابي»^(٢).

وكان من بين هؤلاء من اعتبره الامام الصادق عليه السلام مرجعاً للشيعة. فعندما سأله احد شيعته: ربما احتجنا ان نسأل الشيء فمن نسأل؟ قال له: «عليك بالاسدي، يعني ابا بصير»^(٣).

وقال في موقف آخر: «ما يمعنك من محمد بن مسلم الثقفي فانه سمع من ابي وكان عنده وجيهاً»^(٤).

وفي مقابل هؤلاء، كان فريق منهم متذبذب بين الزيدية والمذهب الجعفري، فعندما سأل الامام الصادق عليه السلام عبد الملك بن عمر عن سبب عدم مشاركته في الحرب، اشار ضمن جوابه:

«فانَّ الزيدية يقولون ليس بيننا وبين جعفر خلاف الاَّ انه لا يرى الجهاد».

(١) الطوسي - نفس الكتاب ص ١٣٧، و.ر.ك: وسائل الشيعة ج ١٨ ص ١٠٣ - ١٠٤

(٢) الطوسي، نفس الكتاب ص ١٣٦.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٨ ص ١٠٣.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١٨ ص ١٠٥.

فحاول الامام دفع هذه التهمة عن نفسه وقال: «بلى والله إنني لأراه ولكنني اكره ان ادع علمي الى جهلهم»^(١).

وقد تعرّض السيد الحميري وهو من شعراء الشيعة المعروفين الى انحراف من نوع آخر وضعه العباسيون امام اقدام الشيعة، فهو كان يميل الى مذهب الكيسانية الذي اصطنعه العباسيون. الاّ انه جاء فيما بعد الى الامام الصادق عليه السلام وغير معتقده واصبح من شيعته المخلصين^(٢).

وقد نظم قصيدة يحكي فيها كيفية عودته والتحاقه بالامام الصادق عليه السلام يقول فيها:

تجعفرت باسم الله والله اكبر وايقنت ان الله يعفو ويغفر

وقد ترخّم عليه الامام الصادق عليه السلام فيما بعد و اشار الى انه ارتكب ذنباً فقال عنه: «وما حَطَرَ ذنب عند الله ان يغفره لمحِب عليٍّ»^(٣).

والنقطة التي تستثير الاهتمام فيما يخص تشتمل الشيعة او بعبارة أخرى ظهور التفرقة فيما بينهم هو ان بعض علماء البلاط في عهد المهدي العباسي كانوا يؤجّجون هذه الاختلافات ويبدلون جهوداً كبيرة في اظهارها بمظهر يفوق حجمها الحقيقي. وفي هذا الصدد يذكر الكشي شخصاً يدعى بابن المفضل ألف كتاباً في الفرق وذكر فيه كل واحد من اصحاب الامام الصادق عليه السلام باعتباره زعيماً لفرقة من الفرق.

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٣٢.

(٢) الطوسي، اختيار معرفة الرجال ص ٢٢٨. الاغانى ج ٧ ص ٢٣٣.

(٣) الاغانى، ج ٧ ص ٢٤٢ و ٢٧٧.

وفي ختام هذا الفصل لابد من الإشارة الى أنَّ شيعة الامام الصادق عليه السلام كانوا يتواجدون على الاغلب في العراق وفي الكوفة على وجه الخصوص. واما بقية الولايات فكانت اما خالية من الشيعة او تضمّ عدداً قليلاً منهم، رغم ان بعض الناس كان يأتي الى الامام من خراسان ويعرض عليه الاسئلة الفقهية^(١).

فحين ذهب حفص بن غياث الى البصرة لرواية الاحاديث طلبوا اليه أن لا يروي عن بعض الناس وكان من جملتهم جعفر بن محمد، وسبب ذلك هو الروحية العثمانية التي كانت سائدة على اهالي البصرة ومنشؤها حرب الجمل، فقال لهم حفص: «لو أنكم قلتم هذا الكلام في الكوفة لآخذتكم النعال المطرقة»^(٢).

الامام الصادق عليه السلام والغلاة

لقد تعرضنا اثناء حديثنا عن حياة الامام الباقر عليه السلام الى مسألة مواجهته للغلاة، ونرى هنا وجوب التعرض الى هذه المسألة بشكل اوسع حيث نستعرض تصرفات وافعال الغلاة وردّ فعل الامام الصادق عليه السلام تجاههم. حيث يبدو لنا أن اسلوبه في مواجهتهم يُعتبر من اهم الجهود التي بذلها للحفاظ على الشيعة وصيانتهم من الانحراف، فكل مذهب يمر في زمان حياته بمرحلتين وهما مرحلة النشوء والتكوين والثانية هي مرحلة الاتساع والتطور، وفي كل مرحلة يوجد خطر جسيم يترصص به الدوائر.

تشتمل عقائد الغلاة على آراء ينسبون بموجبها بعض صفات الله الى بعض

(١) تاريخ يحيى بن معين، ج ٤ ص ٣٧٢.

(٢) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال ج ٢ ص ٥٥ / تهذيب الكمال، ج ٢ ص ٧٨ / سير اعلام النبلاء ج ٦ ص ٢٥٧.

البشر ويعترفون لهم بنوع من الالوهية، فيجعلون منهم آلهة حيناً أو اصحاب صفات الهية حيناً آخر^(١).

وبما ان الائمة كانوا يطرحون انفسهم بصفتهم منصّبين من قِبَل الله فان ذلك كان يسهّل الارضية للصق مختلف الصفات بهم ويجعلهم غرضاً للحب والولاء المتطرف ويهيئ الظروف لمثل تلك الآراء المغالية.

ان اهمّ جوانب حياة الامام الصادق عليه السلام التي لها دور كبير في حياة الشيعة هي معارضته وتصديّهِ العلني للغلاة ومسألة الغلو، والتي نتج عنها تحجيم الغلاة في شتى المجالات، وجعلهم خارج دائرة الشيعة، والأّ لما بقي للتشيّع الحقيقي من اثر يُذكر ولاصبح هذا المذهب العوبة بيد المخبولين الذين سيشكلون صورة أخرى عن الشيعة متأثرة بالثقافة والآراء المسيحية واليهودية.

وقبل التطرق الى موضوع مواجهة الامام الصادق عليه السلام للغلاة، ينبغي الاشارة الى هذه الحقيقة وهي ان كتب الفرق والمذاهب التي كُتبت فيما بعد على يد علماء اهل السُنّة وبسبب عدم تمييزها بين الشيعة الواقعيين والغلاة، حرّفت افكار قُرأنها عن حقيقة الحال وضللتهم. وبقيت الاوساط السنية الى ما قبل عدّة سنوات بل بقي بعضها الى الآن، غير مدركة لهذه الحقيقة وهي ان الشيعة الامامية يختلفون عن الغلاة، وان الامامين الباقر والصادق عليه السلام قد رفضا وجود هذه الفئة بين اوساط الشيعة. فلو كان مؤلفو تلك الكتب على دراية بمدى تصدّي الشيعة للغلاة وتكفير أئمة الشيعة لهم لما وقعوا في مثل هذا الخطأ الفاحش. بل ان بعض

(١) ابن ابي الدنيا، مقتل امير المؤمنين عليه السلام مجلة تراننا، العدد ١٢ ص ١٢١ حديث ٩٢، وقد سبق للنبي صلى الله عليه وآله ان تحدث بمثل هذا الحديث قائلاً لامير المؤمنين عليه السلام: «سيهلك فيك رجلان». وقال كذلك لابن عباس: «اياك والغلو انما هلك من كان قبلك بالغلو». الطبقات ج ٢ ص ١٨١.

المستشرقين حاول مؤخراً -وبأهمال متعمّد- التجذث عن الشيعة وكأنهم يحملون نفس افكار وآراء الغلاة، بينما تشير الحقائق التاريخية التي سنطرق الى بعضها فيما يأتي الى انفصال هاتين الفرقتين عن بعضها منذ تاريخ نشوءهما، وهو ما يبطل اوهام المستشرقين في هذا المجال.

اما سياسة الائمة تجاه الغلاة فكانت تتمثل بما يلي:

١ - صيانة الشيعة الحقيقيين من الغلاة:

فن جملة الاساليب التي دأب عليها الامام في مواجهته للغلاة هو ايجاد فاصل بينهم وبين الشيعة الاصليين. إذ كان الاتصال بهم والاختلاط معهم يعني ترك بعض الآثار السلبية على الشيعة.

فقد ورد في رواية مسندة عن الامام الصادق عليه السلام انه قال للمفضل بن مزيد مشيراً في كلامه الى اصحاب ابي الخطاب والغلاة: «يا مفضل لا تقاعدوهم ولا تؤاكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ولا تؤاثرؤهم»^(١).

وفي رواية أخرى منقولة عن ابي عبدالله عليه السلام انه قال: «احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم، الغلاة شر خلق الله يصغرون عظمة الله ويدعون الربوبية لعباده»^(٢).

٢ - تكذيب عقائد الغلاة:

دأب الامام على رفض واستنكار عقائد الغلاة مستهدفاً بذلك ابعادهم عن

(١) الطوسي، اختيار معرفة الرجال ج ٢ ص ٥٨٦ حديث ٥٣٥/ مستدرک الوسائل، ج ١٢ ص ٣١٥.

(٢) امالي الشيخ، ج ٢ ص ٢٦٤.

المجتمع الشيعي، فحدد الامام كتاب الله باعتباره الميزان الذي يميز الحق عن الباطل ، وهو في نفس الوقت الذي انبرى فيه لتسفيه معتقدات المغالين، اوجد حركة فكرية مناسبة بين الشيعة في سياق تصحيح احاديث وعقائد الشيعة .

ينقل الشهرستاني بأن سُديراً الصيرفي جاء الى الامام الصادق عليه السلام وقال له: «بنفسي انت، ان شيعتك اختلفوا فيك ويصرون على ذلك، فمنهم من يقول ان كل ما يحتاج اليه الامام لهداية الناس يُلقى اليه، وبعضهم يقول: يوحى اليه، وبعضهم يقول: يُلهم قلبه، ويقول جماعة آخرون: يرى في المنام، ويقول جماعة آخرون: يفتي على كتابات آبائه فاي هذه الآراء صحيح فدتك نفسي؟

فقال له الامام: «يا سدير ليس من هذه الاحاديث حديث صحيح، فنحن حُججُ الله وامناؤه على عباده ونأخذ الحلال والحرام من كتاب الله»^(١).

تظهر الرواية السالفة كيف أثرت العقائد المغالية على الشيعة، واوجدت بينهم الانقسامات حتى احتار طلاب الحقيقة وسط هذا المعترك فوجدوا في الامام الصادق عليه السلام الملاذ الوحيد الذي يمكن الاطمئنان اليه، فيقوم بارشادهم كما ينبغي .

وينقل الشهرستاني رواية أخرى تعكس وجود نفس هذا الاختلاف .
الفكري بين الشيعة فقد جاء الفيض بن المختار الى الامام الصادق عليه السلام وقال له:

«بنفسي أنت، ما هذا الاختلاف الذي وقع بين شيعتك؟ فاني احضر في مجلسهم احياناً فأوشك على الشك فيكم، ثم اذهب الى المفضل فيطرح عليّ بعض النقاط التي تعيد لي الثقة والسكينة .

(١) تفسير الشهرستاني المخطوط، الورقة ٢٥، نقلاً عن آذرشب، مجلة تراثنا، العدد ١٢ ص ١٨.

فقال له ابو عبدالله عليه السلام : نعم ان الناس قد اصبحوا ميالين للكذب وكأن الله قد اوجبه عليهم ولا يريد منهم سواء. فأنا احدثهم بالحديث فما يخرجون من عندي الا ويأولونه على غير معناه الصحيح»^(١).

يعكس القسم الاخير من الرواية مشكلة اختلاف وجهات النظر بين الشيعة والتي اشرنا اليها في البداية باسم الانحراف. فنفوذ بعض الافكار الالحادية للغلاة بين بعض اتباع الامام دفعهم الى تأويل احاديثه تأويلاً غير صحيح خلق مشاكل بين الشيعة، بحيث ان عدداً معدوداً من الاصحاب الحقيقين للامام كان باستطاعتهم أن يكونوا مرجعاً لحل تلك المشاكل مثل المفضل.

وجاء في رواية أخرى ان عيسى الجرجاني قال: قلت للامام جعفر بن محمد عليه السلام هل لي ان اعرض عليك ما سمعته من هذه الجماعة؟ قال: قل. فقلت له: «فان طائفة منهم عبدوك واتخذوك الهاً من دون الله، وطائفة أخرى والوا لك بالنبوة. قال فبكى حتى ابتلت لحيته ثم قال: «ان امكنني الله من هؤلاء فلم اسفك دماءهم سفك الله دم ولدي على يدي»^(٢).

وكانت مهدوية الامام الباقر عليه السلام من جملة ما تحرّصت الغلاة في عهد الصادق عليه السلام به وقد استنكرها الامام بشدة^(٣). وقد طرحت قضية نبوة الائمة المعصومين من قبل الغلاة ايضاً، وردّ عليها الائمة، فقد نُقل عن الامام الصادق عليه السلام انه قال بهذا الشأن «مَنْ قَالَ إِنَّا أَنْبِيَاءُ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَمَنْ شَكَّ فِي ذَلِكَ فَعَلَيْهِ

(١) الشهرستاني نفس المصدر ص ٢٦/ تراثنا، العدد ١٢ ص ١٨.

(٢) السهمي - تاريخ جرجان ص ٣٢٢.

(٣) الطوسي - اختيار معرفة الرجال ص ٣٠٠.

لعنة الله»^(١).

ومن المعتقدات الاخرى المتطرفة للغلاة هي اطلاقهم كلمة (إله) على الامام وقالوا: «هو الذي في السماء إله وفي الارض إله» قال: «هو الامام». وقد اعتبر الصادق عليه السلام القائلين بهذا الرأي شرًّا من المجوس واليهود والنصارى^(٢).

وجاء في رواية اخرى ان فنّد قول الغلاة «علي في السحاب» وقال: «ان النبي قد غطّى علياً بعباءة اسمها السحاب، ولما جاء بها مع آله الى الرسول ﷺ قال: هذا عليّ قد اقبل في السحاب»^(٣).

القضية الاخرى المهمة التي كان يستند اليها الغلاة هي اعطاؤهم صفة الالهية للائمة ورفعهم من مقام العبودية لله، لكن الامام الصادق عليه السلام قال في دحضه لهذه المقولة: «لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في انفسنا، ولعن الله من ازالنا عن العبودية لله الذي خلقنا واليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا»^(٤).

٣- تكفير الغلاة:

لقد كفر الامام عليه السلام قادة الغلاة واتباعهم وفصل بذلك بين خطّهم وخط شيعته، وبهذا الموقف تمكّن الامام من تعيين المسار الذي ينبغي ان يسلكه الشيعة وانقذهم من التلوّث والانحراف الذي كان يُنفث نحوهم من قبل اولئك المغالين.

(١) نفس المصدر ص ٣٠١.

(٢) نفس المصدر ص ٣٠٠.

(٣) الذهبي، ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٩٨.

(٤) نفس المصدر السابق ص ٣٠٢.

كان التجسيد او التجسيم واحداً من ادوات الغلاة في تحليل المفاهيم الدينية، فهم لم يطلقوا المفاهيم الدينية على مصاديقها الحقيقية، بل كانوا يتصورون امثلة تجسد معانيهم المفترضة وقد ادى مثل هذا الاتجاه الفكري -الذي يُعد انحرافاً جلياً في الدين واقصاءً له عن حقيقته- الى ان يستنكره الامام الصادق عليه السلام. إذ جاء في رواية انه كتب كتاباً الى ابي الخطاب وهو من زعماء الغلاة ورد فيه:

«بلغني انك تزعم ان الزنا رجل وان الخمر رجل وان الصلاة رجل وان الصيام رجل وان الفواحش رجل، وليس هو كما تقول انا اصل الحق وفروع الحق طاعة الله، وعدونا اصل الشر وفروعهم الفواحش»^(١).

وجاء في رواية اخرى انه كَلَّم بعض الغلاة فقال لهم: «توبوا الى الله فانتم فساق كفار مشركون»^(٢).

ان تأكيد الامام على استنكار وادانة الغلاة كان بسبب اتساع عملهم الدعائي وتأثيرهم على فئة كبيرة من اهل الكوفة، وقد ادى وجود التقية آنذاك في اغلب تصرّفات الشيعة الى أن يتصور الكثير منهم ان الامام قد ادانهم في الظاهر ولكنه يؤيدهم في الباطن وانه هو الذي رتب لهم الامور واطهرهم الى الوجود. وقد ضاعف هذا التصوّر من معاناة الامام بشأن فرز وابعاد الغلاة من الاوساط الشيعية.

وقد كان الغلاة عادة يروجون لمثل هذه المعتقدات لاسباب ودوافع خاصة نجملها بالنقاط التالية:

(١) نفس المصدر ص ٢٩١.

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٧.

١ - التحرر من قيود العمل وبنفس الشكل الذي قالت به المرجئة في وقت من الاوقات. فهم يروون حديثاً عن الامام الصادق عليه السلام انه قال: «من عرف الامام فليفعل ما شاء»^(١).

الآن ان الامام رد عليهم قائلاً: «انما قلت اذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره فانه يُقبل منك».

فعندما يخرج الخمر والصوم والصلاة عن معانيها الفقهية، لا تعود هناك اية ضرورة للالتزام بالعمل بها، ولذا فانهم كانوا يختبرون الغلاة باداء الصلاة في وقتها^(٢).

ودعوى ان الغلاة جعلوا من هذه المسائل ذريعة للتهرب من العمل غير مجازفة بل قد وردت في رواية مطولة ضمن كتاب بعثه الامام الصادق الى بعض اصحابه، وقد روى هذا الحديث القاضي النعمان^(٣).

وهذا الحديث نقله الشهرستاني بتفصيل اكثر، وجاء في روايته ان الامام ذكر في احدى فقرات كتابه ما يلي:

«واعلم ان هؤلاء القوم سمعوا ما لم يقفوا على حقيقته ولم يعرفوا حدود تلك الاشياء مقايسة برأيهم ومنتهى عقولهم ولم يضعوها على حدود ما أمروا به تكذيباً وافتراءً على رسوله وجرأة على المعاصي».

ومن ثم بين الامام اساس هذا الانحراف وهو ان التاكيد المتواصل من قبل

(١) اصول الكافي ج ٤ ص ٤٦٤ ط. غفاري.

(٢) الطوسي نفس المصدر ص ٥٣٠.

(٣) ابو زهرة الامام الصادق، ص ٥٨-٥٩ نقلاً عن دعائم الاسلام.

الامام الصادق عليه السلام وبقية الائمة المعصومين عليه السلام على موضوع معرفة الامام، ادى بهم الى تصور أن الدين يتلخص في معرفة الامام فتركوا العمل بتعاليمه جانباً. ولهذا فقد اشار الامام في مقاطع أخرى من نفس الكتاب الى هذا الموضوع ثانية وجعل العمل بالاوامر الالهية الى جانب معرفة الله والنبي والامام وقال:

«ان الله تبارك وتعالى اختار الاسلام لنفسه ديناً ورضيه من خلقه فلم يقبل من احد الاّ به، وبه بعث انبياءه ورسله، فمعرفة الرسل وولايتهم وطاعتهم هو الحلال، فالمحلل ما احلوا والمحرّم ما حرموا وهم اصله ومنهم الفروع والحلال وذلك سعيهم، وعدوّهم هو الحرام المحرم، واولياؤهم الداخلون في امرهم الى يوم القيامة، فهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»^(١).

٢- الغباء وحب الدنيا هو ايضاً واحد من اسباب ظهور الغلاة^(٢) حيث سعى الغلاة الى جمع الناس حولهم تحت ستار المذهب الحق ليلغوا بذلك غاياتهم واغراضهم، يقول الامام الصادق عليه السلام في هذا السياق:

«ان الناس اولعوا بالكذب علينا واني لاحدث ادهم بحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير تأويله وذلك لأنهم لا يطلبون بحديثنا وبحبنا ما عند الله وانما يطلبون الدنيا»^(٣).

لقد ترك انتشار افكار الغلاة ضرره على الشيعة، وخلق اجواء من السخط ضدهم ناهيك عن تأليب اهل السُنّة ضد الشيعة والعمل على تحجيمهم - بهدف

(١) تفسير الشهرستاني، راجع مقالة آذرشب في مجلة تراثنا، العدد ١٢ ص ١٨ / بحار الانوار ج ٢٤

ص ٢٨٦ - ٣٨٩ نقلاً عن الشهرستاني.

(٢) الطوسي، نفس المصدر ص ٢٩٥.

(٣) الطوسي، نفس المصدر السابق ص ١٣٦.

تحجيم الغلاة - حتى ان ابا حنيفة كان يوصي اتباعه بعدم رواية حديث الغدير منعاً لانتشار الغلو^(١).

اعتماد الفقه الشيعي على روايات اهل البيت عليهم السلام

كان عصر الامامين الباقر والصادق عليهما السلام هو عصر انتشار علوم اهل البيت في مختلف المجالات. وهذه المسألة تصدق على الامام الصادق عليه السلام اكثر من غيره، وذلك يعود الى تزامن جزء من عهد امامته مع اجواء من الانفتاح السياسي نتيجة للفراغ السياسي الذي نشأ من سقوط الحكم الأموي من جهة، ومجيء الحكم العباسي من جهة أخرى. فقد جعل الامام الشيعة يلتفون بشكل تام حول احاديث اهل البيت ونهاهم عن التمسك بأحاديث غيرهم. وكان هذا من اهم العوامل في تشكل الفقه الشيعي بصورته المستقلة الاصلية. وقد اوضحنا اهمية هذا الامر الى حد ما سابقاً في حياة الامام الباقر عليه السلام. ومع هذا فسوف نلقي فيما يلي نظرة عامة على تأكيدات الامام الصادق عليه السلام في هذا الجانب:

قال الامام في رواية: «اَيَّتْهَا الْعَصَابَةُ، عَلَيْكُمْ بِآثَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّتِهِ وَآثَارِ الْاَئِمَّةِ الْهَدَاةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٢).

وقال ايضاً ليونس بن ضبيان: «يا يونس ان اردت العلم الصحيح فعندنا اهل البيت، فانّا ورثنا وأوتينا شرح الحكمة وفصل الخطاب»^(٣).

(١) امالي الشيخ المفيد ص ٢٧. يحتاج البحث في موضوع الغلاة الى دراسة مستقلة وهذا ما لا يستوعبه مثل هذا المختصر، نأمل القيام بهذه المهمة في الفرصة المناسبة ان شاء الله.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٨ ص ٢٣ و ٦١ نقلاً عن روضة الكافي ص ٥.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٨.

وقد خصص الشيخ الحر العاملي في كتابه (وسائل الشيعة) باباً تحت عنوان (باب وجوب الرجوع في جميع الاحكام الى المعصومين)، جمع فيه احاديث اهل البيت في هذا الجانب^(١).

قال اiban بن تغلب - وكان من الشيعة الصادقين المخلصين للامام الصادق عليه السلام - في وصف المذهب الشيعي ما يلي: «الشيعة الذين اذا اختلف الناس عن رسول الله ﷺ اخذوا بقول علي واذا اختلف الناس عن علي اخذوا بقول جعفر بن محمد»^(٢).

قال يونس بن يعقوب للامام الصادق عليه السلام: «اني سمعتك تنهى عن علم الكلام، فقال له الامام: انما قلت ويل لهم ان تركوا ما اقول وذهبوا الى ما يريدون»^(٣).

ومن هذا المنطلق كان الامام يوصي شيعته بمساعدة بعضهم الآخر، ويقول: «رحم الله من احيا امرنا»^(٤).

كان الامام الصادق عليه السلام ينقل رواياته لتلاميذه وكانوا - بشيعتهم وسنتهم - يكتبونها مع فارق واحد وهو أن اهل السنة كانوا ينقلون الحديث عن جعفر بن محمد عن ابيه عن آباءه عن رسول الله ﷺ وبعبارة أخرى ينقلون الحديث عنه مع ذكر السند، بينما كان تلامذته من الشيعة ينقلونه عن ابي عبدالله دون بقية السند الى رسول الله ﷺ، لأن اعتقاد الشيعة بعصمة وامامة الائمة وحجية قولهم

(١) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤١.

(٢) رجال النجاشي، ص ٩ ط داوري.

(٣) الكافي ج ١ ص ١٧١، وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٥.

(٤) على سبيل المثال راجع كتاب تاريخ جرجان ص ٥٧١، ٤٠٥ و ٢٦٥، ١٧٠.

يغنيهم عن ذكر السند، ومع كل هذا فقد كان الامام يؤكد بأن احاديثه هي نفس احاديث رسول الله ﷺ: «حديثي حديث ابي وحديث ابي حديث جدّي وحديث جدّي حديث علي بن ابي طالب وحديث علي حديث رسول الله ﷺ وحديث رسول الله ﷺ قول الله»^(١).

وجميع احاديث ائمة الشيعة تقريباً لها نفس هذا الحكم الا ما كانت الضرورة تقضي بنقله عن شخص آخر. قيل لأبي بكر بن عيّاش لم تستمع الحديث من جعفر بن محمد مع انك ادركته؟ قال: سألت جعفر بن محمد عن الاحاديث التي كان ينقلها هل سمع شيئاً منها - اي هل لها شيوخ حديث -؟ قال: لا، لكنها رواية روينها عن آبائنا»^(٢).

اهمية هذا النقل ذات قيمة كبيرة جداً وهو في الحقيقة يوضح ماهية عقائد الشيعة من حيث المبدأ. يقول ابن عدي:

«ولجعفر بن محمد حديث كبير عن ابيه عن جابر وعن ابيه عن آبائه ونسخاً لأهل البيت يرويه جعفر بن محمد»^(٣)، ويضيف ان اشخاصاً مثل ابن جريج وشعبة بن الحجاج وآخرين يروون عنه ايضاً.

وقد حاول ابو زهرة جاهداً العثور على شيوخ رواية يربط من خلاهم بين الصادق عليه السلام ورسول الله ﷺ فيجعل منهم قناة في ايصال ونقل الاحاديث من غير قناة اجداده الطاهرين، لكنه لم يذكر كمثال على ذلك سوى اسم قاسم بن

(١) كشف الغمة ج ٢ ص ١٧٠ / الكافي ج ١ ص ٥.

(٢) تهذيب الكمال ج ٥ ص ٧٧ / الكامل في ضعفاء الرجال ج ٢ ص ٥٥٥.

(٣) الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٢ ص ٥٥٨.

محمد بن أبي بكر^(١).

اما اذا افترضنا انّ الامام الصادق عليه السلام - كما في كتاب تذكرة الحفاظ حيث ذكر كل واحد منهم عشرة اشخاص على الاقل كمشايع لروايته - كما يفعل سائر المحدثين الكبار في ذلك العصر، فينقل الاحاديث عن طريق شيوخ الرواية ودون الطريق المتعارف عن اجداده عن رسول الله ﷺ فقد كان ينبغي له ان يذكر مشايخ روايته بينما نرى انه ينقل الاحاديث عن طريق اجداده فقط وهم ممن لا يمكن اعتبارهم شيوخ رواية.

لقد اكد ائمة اهل البيت منذ البداية ان ليس لديهم شيوخ رواية، وانهم يستقون علمهم عن طريق آخر غير طريق مشايخ الرواية المتعارف يقول امير المؤمنين عليه السلام في تبيان هذا الموضوع: «الا أن ابرار عترتي واطائب ارومتي احلم الناس صغاراً واعلمهم كباراً الا وانا اهل البيت من علم الله علمنا وبحكم الله حكمنا ومن قول صادق سمعنا فان تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا، معنا راية الحق من تبعها لحق ومن تأخر عنها غرق»^(٢).

وقال الامام الصادق عليه السلام: «ان عندنا ما لا نحتاج معه الى الناس وان الناس ليجتاجون الينا وان عندنا كتاباً املاه رسول الله ﷺ وخطه علي عليه السلام صحيفة فيها كل حلال وحرام»^(٣).

هذا التناسق والتناغم الموجود في كتب الاحاديث الشيعية لا يوجد له نظير

(١) الامام الصادق، ابو زهرة، ص ٨٨ - ٩٠.

(٢) العقد الفريد، ج ٤ ص ٦٧. نقلاً عن كتاب الامام الصادق لمحمد جواد فضل الله ص ٩٠.

(٣) الكافي ج ١ ص ٢٤١ نقلاً عن كتاب الامام الصادق لفضل الله ص ٩٥.

مطلقاً في كتب حديث السنّة لأن كتبهم مشحونة بالآراء المختلفة والاحاديث المتناقضة التي تعود في الاساس الى الاختلاف والتناقض في آراء الصحابة. وعلى هذا فن غير الانصاف وصف الشيعة عند الحديث عنهم بانهم نحلة مركّبة من آراء وافكار مختلفة تسللت اليه الكثير من الاوهام والباطيل^(١).

ولذلك فعندما اراد الامام الصادق عليه السلام تقييم علوم محدثي العامّة في زمانه قال: «ان الناس بعد نبي الله ركب الله به سنّة من كان قبلكم فغيّروا وبدّلوا وحزّفوا وزادوا في دين الله ونقصوا منه فما من شيء عليه الناس اليوم الا وهو متحرف عما نزل به الوحي من عند الله»^(٢).

وقد نفذت روايات ائمة الشيعة في فقه السنّة ايضاً ونقل الكثير من محدثهم روايات عن الامامين الباقر والصادق عليهما السلام وبعضها مدروج في جوامع احاديثهم وتوجد ايضاً في كتب السنّة الكثير من الروايات التي تشابه روايات اهل البيت من ناحية اللفظ او من ناحية المضمون^(٣).

والحقيقة ان مثل هذا الطريق في الحديث الذي نقل عن الامام الصادق في مثل هذه الموارد التي لم يطرح بشأنها اي حكم لحد الآن، اظهرت حاجة اهل السنّة الى الاجتهاد في العصر الحالي ليبدأ بعملية استنباط من الروايات والحصول على احكام جديدة.

والمشكلة الاساس التي كانت تواجه اهل السنّة تتمثل في قلّة مصادر

(١) ابو زهرة، الامام ابو حنيفة ص ١١١.

(٢) الطوسي نفس المصدر ص ١٤٠.

(٣) راجع كتاب الشيخ محمد قانصوة، الروايات المشتركة، طبعة قسم العلاقات الدولية في منظمة الاعلام الاسلامي.

الحديث عندهم^(١) وبالإضافة الى ذلك فان المقدار الموجود منها كان مخزوناً في ذاكرة بعض الاشخاص من المؤرخين على مُدٍ متعددة ومتباعدة مع ما كان يوجد بين تلك الروايات من اختلاف في المحتوى، وهذه الروايات نفسها كانت سبباً في مضاعفة المشكلة وقد حلّت هذه المشكلة المستعصية فيما بعد - الى حدٍ ما - عندما اعتبر علماء اهل السنّة افعال الخلفاء والصحابة وحتى التابعين شرعية.

أما مدى انسجام هذا العمل مع المباني الدينية والعقلية فهي مسألة أخرى طبعاً، وقد وردت عن الامام الصادق عليه السلام رواية جميلة تشير الى ضعف الاحاديث عند غير الشيعة وهي كما يلي:

«يظنُّ هؤلاء الذين يدَّعون انهم فقهاء علماء انهم قد اثبتوا جميع الفقه والدين مما يحتاج اليه العامة وليس كلّ علم رسول الله ﷺ علموه ولا صار اليهم من رسول الله ﷺ ولا عرفوه ، وذلك ان الشيء من الحلال والحرام والاحكام يرد عليهم فيسألون عنه ولا يكون عندهم فيه اثر عن رسول الله»^(٢).

وهذا الضعف في روايات اهل السنّة واتكاؤهم على عمل الصحابة والتابعين ادى بشكل طبيعي الى ضعف بنائهم الفقهي، لأن اختلاف الآراء والاذواق بين الصحابة والتابعين كان على درجة من الكثرة يصعب معها جداً جمع الآراء والفتاوى، فقد كتب ابو زهرة عن العصر الذي عاش فيه كل من ابي حنيفة والامام الصادق عليه السلام ما يلي:

«لقد كثر المأثور من فتاوى الصحابة في ذلك العصر كثرة عظيمة شغلت

(١) والسبب الاساسي في ذلك يعود الى عدم السماح للناس بتدوين الحديث بعد رسول الله ﷺ.

(٢) تفسير العياشي، ج ٢ ص ٣٣١ ط الاسلامية / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٠.

عقول الفقهاء واتخذوها نبراساً في اجتهادهم فتأثروا بها في اجتهادهم»^(١).

وعلاوة على استناد فقهاء اهل السنة الى سيرة الصحابة والتابعين، نجدهم قدّموا ايضاً مصادر أخرى للحكم والفتوى اهمها طريقة القياس. وقد تذرّع احد علماء السُنّة عن سبب تمسكه بالقياس فقال انه نقص النصوص^(٢). وهذا ما كان يصرّح به الامام الصادق عليه السلام في ذلك الزمان، فقال مشيراً الى الضعف في مجال الروايات عند اهل السنة «ويستحيون ان ينسبهم الناس الى الجهل ويكرهون ان يُسألوا فلا يجيبون فيطلب الناس العلم من معدنه فلذلك استعملوا الرأي والقياس في دين الله وتركوا الآثار ودانوا بالبدع»^(٣).

يشير الامام في الرواية السالفة الى سبب اتجاه السُنّة نحو الرأي والقياس ويحدده بضعفهم في مجال الحديث والرواية، وهذا التوجّه هو سبب اعراضهم عن الروايات.

وفي الحقيقة ان تشبّهم بالرأي والقياس لسد النقص الحاصل لديهم في الحديث ادى الى ان يفقد التعبد بالنص قيمته تقريباً ليحل محله الرأي والقياس كمصدر للحكم والفتوى. وان فقهاً كهذا وبمثل هذه المصادر لا يمكن أن يكون فقهاً اصيلاً متطابقاً مع الآثار والاخبار.

لقد وقف الامام الصادق عليه السلام موقف المعارض لمثل هذا المذهب الفقهي، وخصّص الجزء الاكبر من نشاطه الثقافي لمعارضته اسلوب الرأي والقياس حيث

(١) الامام ابو حنيفة ص ١٠٥.

(٢) مصطفى احمد الزرقاء، المدخل الفقهي العام ج ١ ص ٧٤ نقلاً عن مجلة نور العلم العدد ١٠ ص ٥٥.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٠.

نقلت عنه روايات عديدة في هذا المجال سنشير الى بعضها في الفقرات القادمة .

وكان ابو حنيفة من جملة المتمسكين بالرأي والقياس ويبدو أنه سبق الآخرين في هذا المضمار حتى ان مذهبه الفقهي في العراق كان معروفاً بمذهب الرأي، ومردّد ذلك هو عدم اعترافه بصحّة الروايات المنقولة عن طريق اهل السنّة . يقول ابن خلدون بشأن مجموع الروايات التي يقبلها (ابو حنيفة) هي ١٧ رواية او ما يقارب ذلك .

وكذلك مالك فانه يقبل ٣٠٠ حديث فقط ويعتبرها صحيحة^(١) .

ويقول ابو بكر بن داود: تبلغ الاحاديث التي رواها ابو حنيفة مائة وخمسون حديثاً^(٢) .

وكان توجهه ابي حنيفة نحو الرأي والقياس وترك العمل بالنصوص يُعزى الى سببين:

١ - عدم اعترافه بصحة الروايات الموجودة مما حدا به الى عدم نقلها والتمسك بها .

٢ - منذ أن اتّجه الى الرأي والقياس، بدا له ان مثل هذه المصادر تغنيه حتى عن النصوص، فترك حتى ذلك المقدار الذي كان يؤمن بصحته، وعدل الى الرأي والقياس تماماً .

وكان مركز انتشار مذهب الرأي هو العراق، وهو الاقليم الذي كان يتواجد

(١) مقدّمة ابن خلدون ص ٤٣٤ ط بيروت .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٣، ص ٤١٦ .

فيه الشيعة بكثرة ايضاً ولذلك بدا اصطدام الشيعة واصحاب الرأي امراً لا مفر منه، وفي نفس هذا السياق كان الامام الصادق عليه السلام يبذل كل مساعية لنقض مبدأ الرأي والقياس والاستحسان.

وورد في الرواية المشهورة عن المناقشة التي جرت بين الامام الصادق عليه السلام وابي حنيفة، بان الامام حذّره من القياس في الدين وذكر له عدّة موارد لا يمكن استخدام القياس فيها بأي شكل من الاشكال.

فقد سأله الامام عليه السلام: أيهما اعظم قتل النفس أو الزنا؟ قال: قتل النفس. قال عليه السلام: فان الله عزوجل قد قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة، ثم أيهما أعظم الصلاة أم الصوم؟ قال: الصلاة. قال عليه السلام: فما بال الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة فكيف يقوم لك القياس.

وذكرت امثلة أخرى من هذا القبيل في روايات أخرى^(١). وبهذا اثبت الامام كيف ان القياس يوقع الفقيه في آراءٍ وفتاوى مناقضة لاحكام المسلّمة في الاسلام. وقد نقل هذه الرواية موفق المكي في كتاب مناقب ابي حنيفة وبشكل يظهر وكأنّها جرت بين ابي حنيفة والامام الباقر عليه السلام وليس الامام الصادق عليه السلام ويظهر كذلك كأنّ ابا حنيفة هو الذي يضرب هذه الامثلة للامام الباقر عليه السلام، ويريد ان يثبت من خلال اعتراض الامام انه لا يعتقد بمبدأ القياس^(٢).

لقد كان الامام يمنع اصحابه من مجالسة اهل الرأي اذا كان يؤثر على

(١) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٣٠ / الاحتجاج ص ١٩٦ ط النجف / وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٧١.

(٢) راجع كتاب ابو زهرة، الامام ابو حنيفة ص ٦٩.

افكارهم^(١)، وقد وردت روايات كثيرة تُظهر استنكار الامام للعمل بمبدأ القياس^(٢). وما كان الامام يخفي قلقه الشديد من اولئك الذين كانوا ينقلون عنه الحديث ويعملون بالقياس.

قال داود بن سرحان، سمعت الامام الصادق عليه السلام يقول: «انّي لاحدّث الرجل بالحديث وانهاه عن الجدال والمرء في دين الله وانهاه عن القياس فيخرج من عندي فيتأول حديثي على غير تأويله»^(٣).

ومن المؤكد لو أن الامام الصادق عليه السلام لم يقف بوجه القياس واصحابه ومبتدعيه لتأثر فقه الشيعة -الذين لم تكن تفصلهم عن اصحاب الرأي في العراق سوى فاصلة قصيرة- ولفقد اصله، لكننا نرى العكس من ذلك، حيث بقي فقهاء شيعة العراق يتعبدون بالنص الى حد كبير وجعلوه اسلوبهم الدائم في استنباط الاحكام وظلّوا يبيّنون الاحكام الفرعية على مرّ الزمن وفقاً لتلك النصوص، وقدّموا مذهباً فقهياً غنياً ومثيراً وذا اصول وقواعد متينة وهو عمل ادى الشيخ الطوسي دوراً اساسياً في تكوينه في (المبسوط).

واما ما يخص موضع السند فقد وجد اهل السنة انفسهم امام مصاعب جمّة ولهذا لم يعتمد عليه ابو حنيفة لكون اكثر طرق الحديث ما كانت من النوع الذي يُطمأن اليه والخلاصة هي ان الفقه غير الشيعي يستند الى مجموعة ناقصة من الاحاديث التي لا يعتمد عليها.

(١) المحاسن ص ٢٠٥ الحديث ٣٥٦ / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ١٦.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٢٣-٢٩ / الكادي ج ١ ص ٥٨ / علل الشرائع ج ١ ص ٨٢ / رجال الكشي ص ١٨٩.

(٣) الطوسي، اختيار معرفة الرجال ص ١٧٠.

لكن الشيعة المعتقدين بعصمة الاثمة وعلى رأسهم الامام امير المؤمنين عليه السلام لم تكن لديهم اية مشكلة في هذا الصدد، وحتى الكثير من علماء اهل السنة لم يكن لديهم اي شك في هذا. وابو حنيفة نفسه يؤمن بصحة عدد كبير من الاحاديث التي وردت عن طريق اهل البيت ^(١).

حتى انه سمع في احد الايام حديثاً عن الامام الصادق عليه السلام ولما خرج من عنده سُئل: «لماذا لم تسأل جعفر بن محمد عن السند الذي نقل اليه الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله؟ قال: ماذا اقول لرجل يقول قال رسول الله؟» ^(٢).

والمصدر الذي كان يستند اليه الشيعة كان مقبولاً لدى السنة ايضاً لأن الامام الصادق عليه السلام كان ينقل الاحاديث عن طريق آبائه ومردّها النهائي الى امير المؤمنين عليه السلام ثم الى شخص الرسول صلى الله عليه وآله فقد بقي امير المؤمنين لسنوات متتالية في محضر النبي صلى الله عليه وآله، وكان فقيهاً ومحدثاً معتمداً من جميع الفقهاء والمحدثين.

وفي عهد بني أمية اندرست الآثار المتبقية من امير المؤمنين عند غير الشيعة، ولم يحفظ تراثه وآثاره غير اهل بيته حيث تناقله ابنائه وشيعته يداً عن يد وجيلاً بعد جيل.

يشير ابو زهرة الى زوال الكثير من اقوال امير المؤمنين في عهد بني امية قائلاً: «من غير المعقول ان يسبوا علياً على المنابر ويتركوا احاديثه شائعة ومتداولة بين الناس باعتبارها مصدراً ثراً وغنياً بالعلوم الاسلامية.. ولذلك بقيت

(١) راجع كتاب الآثار لما سئل احمد بن حنبل عن السند عن موسى بن جعفر بن محمد عن محمد بن علي عن علي بن الحسين بن علي عن علي بن ابي طالب عن النبي قال: هذا اسناد لو قرء على المجنون لأفاق، مناقب ابن شهر آشوب ج ٢ ص ٣٧٨.

(٢) امالي المفيد ص ٢١-٢٢.

علومه بين اهل بيته فقط».

وبناءً على ما مرَّ ذكره بقيت روايات امير المؤمنين عليه السلام محفوظة باكملها عند اهل بيته، وابناؤه هم الذين نقلوا احاديثه التي رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك فقهه وفتاواه^(١). والحديث المنقول عن هذا الطريق لا يقاس بأيّ سند آخر، فشخصية الائمة عليه السلام اسمى وارفع علمياً واخلاقياً من اية شخصية أخرى وفقاً لابطس المقاييس الموجودة عند اهل السنة. ولهذا السبب كان العجلي -وهو من قدماء رجال الحديث عند اهل السنة- يكتب في نهاية اسم الامام الصادق عليه السلام: «جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم اجمعين ولهم شيء ليس لغيرهم خمسة ائمة»^(٢).

كتابة الحديث في عصر الامام الصادق عليه السلام

لقد منعت كتابة الحديث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الا ان كراهية كتابة الحديث بقيت سائدة بين الناس الى فترة طويلة، حتى ان بعض محدّثي اهل السنة في القرن الثالث للهجرة كانوا يمتنعون عن تدوين الحديث^(٣).

وفي مقابل هذا النمط، كان اهل بيت العصمة ومنذ البداية يشجعون اصحابهم على تدوين الاحاديث وحفظها من الاندرا^(٤)، وكان الامام الصادق عليه السلام شأنه في ذلك شأن بقية الائمة يؤكد على هذا الامر كثيراً. ورغم ان

(١) ابو زهرة الامام الصادق ص ١٩٥.

(٢) العجلي، تاريخ النقاة ص ٩٨.

(٣) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٤٦١/ جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٨-٧٩/ سنن الدارمي ج ١ ص ١١٩-٢١٠.

(٤) الطبقات الكبرى ٦ ص ١٦٨/ تقييد العلم ص ٩٠، ربيع الابراج ٣ ص ٢٩٤.

بعض الاشخاص في عهده بدأوا بجمع وتدوين الاحاديث لكن الكثير لم يزل في شك وريبة من ذلك، وقد اشار ابو زهرة الى أن الامام الصادق عليه السلام كان من دعاة كتابة الحديث مدّعياً أن هذا الامر كان شائعاً في تلك الايام، كما ان مالك بن انس ألف كتابه (الموطأ) في جمع الاحاديث في ذلك العصر^(١). ولو قبلنا ان مالكا كتب موطأه في ذلك العصر فان ذلك كان خلافاً للمسار العام الذي كان سائداً آنذاك كما هو الحال بالنسبة لأبي حنيفة الذي امتنع عن القيام بأي إجراء في هذا الصدد.

فقد روي انه كان يقول: «رأيت رجال الحديث واخذته عنهم، اما جعفر بن محمد فهو صحّاف». فلما بلغ هذا الكلام الى سماع الامام الصادق عليه السلام ضحك وقال: «حقاً انني صحّاف فقد قرأت صُحف اجدادي وصُحف ابراهيم وموسى»^(٢). والاستناد الى صحف الآباء يدل على أنه ورث عن آبائه صحفاً وهذا تأييد صريح لحقيقة أن فقه الشيعة يعوّل ومنذ عهد الرسول صلى الله عليه وآله على ركيزة مدوّنة في الحديث. وفي هذا المضمار نُقلت عشرات الروايات في كتب الشيعة الروائية تشير الى أن الائمة ينقلون الاحاديث للناس من تلك الصحف وكانوا يؤكدون للناس في بعض الاوقات على ضرورة مشاهدة تلك الصحف^(٣).

وجاءت روايات متعددة عن الامام الصادق عليه السلام يحث فيها اصحابه على كتابة الحديث وهي تُظهر ايضاً ضعف رغبة الناس آنذاك في تدوين الاحاديث. فقد جاء في رواية أنه عليه السلام قال: «أكتب وبثّ علمك في اخوانك فان مُتّ فورث

(١) ابو زهرة الامام الصادق، ص ٩٥.

(٢) روضات الجنّات ج ٨ ص ١٦٩.

(٣) فروع الكافي، ج ٧ ص ٧٧-٩٥-٩٨ / مكاتيب الرسول ص ٧٣-٧٦ / رجال النجاشي ص ٢٥٥.

الامام الصادق والاحتجاجات الفقهية لأهل السنة

يختلف المذهب الفقهي الشيعي مع الرؤيا الفقهية عند اهل السنة في عدة جوانب.

ففي الفترة التي عاش فيها الامامان الباقر والصادق عليهما السلام كان الفقه في حالة نمو واتساع وكانت هناك احتجاجات مختلفة تطرح في مجال تطبيق الاحكام على الموارد الجديدة. وكان الامام الصادق عليه السلام يؤكد ان آثار رسول الله صلى الله عليه وآله موجودة بتمامها عند اهل البيت فقط، ففي الوقت الذي ضيعها الآخرون بقيت باجمعها عندهم من غير أن يمسخها أي سوء، يقول الراوي سألت الامام الصادق عليه السلام:

«اصحك الله اتي رسول الله صلى الله عليه وآله الناس بما يكتفون في عهده؟ قال: نعم وما يحتاجون اليه الى يوم القيامة. فقلت: فضاع من ذلك شيء؟ فقال: لا، هو عند اهله»^(٢).

الضغط السياسي على الشيعة

لم تتوفر الحرية السياسية في عهد الامام الصادق عليه السلام سوى في العقد الثالث من القرن الثاني للهجرة، وكانت حرية نسبية طبعاً بقيت خلالها نشاطات الامام وشيعته تحت المراقبة. اما قبل هذه الفترة وما بعدها فقد كانت اشد الضغوط السياسية تُمارس ضد الشيعة على يد بني امية وبني العباس حيث لم يكن يسمح

(١) كشف الغمة، ابن طاووس، نقلاً عن بحار الانوار ج ٢ ص ١٥٠ كتاب العلم.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٢٣.

لهم بالتعبير عن وجودهم. جاء في الرواية:

قال رجل لأبي جعفر الثاني عليه السلام: «جُعِلَتْ فداك ان مشايخنا رَوَوْا عن ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام وكانت التقية شديدة فكتبوا كتبهم ولم تُرَوَ عنهم، فلَمَّا ماتوا صارت الكتب اليَنا، فقال: حَدِّثُوا بها فَأَنَّهُا حق»^(١).

وهذا التضييق طبعاً اَدَّى الى أن تبقى علوم اهل البيت وفتاواهم متروكة. فعن اَبان بن تغلب، قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام اني اقعد في المسجد فيجيء الناس فيسألونني، فان لم اجبهم لم يقبلوا مِنِّي واكره ان اجيبهم بقولكم وما جاء عنكم! فقال لي: انظر ما علمت انه من قولهم فاخبرهم بذلك»^(٢).

ان تأكيد الامام الصادق عليه السلام على التقية هو دليل واضح على وجود مثل هذه الضغوط السياسية. فقد كان خطر الهجوم على الشيعة متوقِعاً الى درجة ان الامام اعلن ان ترك التقية هو بمثابة ترك الصلاة^(٣).

فمن جملة ما قاله الامام للمعلی بن خنيس الذي قتل بيد حكام ذلك العصر، ما يلي: «يا معلی اکتُم امرنا ولا تُذِعه فَإِنَّ من کتم امرنا ولا یذِعه اعزّه الله في الدنيا»^(٤).

وعلى اَيّة حال توجد روايات تشير الى أنَّ الضغط كان شديداً على الشيعة حتى ان احدهم كان يمر على صاحبه فلا ينظر اليه^(٥). وجاء في رواية أخرى عن

(١) الكافي ج ١ ص ٥٣ / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٥٨.

(٢) الطوسي، اختيار معرفة الرجال ص ٣٣.

(٣) مستدرک الوسائل ج ١٢ ص ٢٥٤ / وسائل الشيعة ج ٩ ص ٤٥٩ وما بعدها.

(٤) مختصر بصائر الدرجات ص ١٠١.

(٥) الطوسي اختيار معرفة الرجال، ص ٣٧٨ / مستدرک الوسائل، ج ١٢ ص ٢٩٧ - ٢٠٠ / وسائل

جواسيس المنصور ما يلي: «كان له بالمدينة جواسيس ينظرون على من اتفق شيعة جعفر فيضربون عنقه»^(١).

وجاء في تاريخ الواقدي ان المنصور قبض على معتب وهو من غلمان الامام الصادق عليه السلام فضربه الف سوط الى أن مات^(٢).

وفي ذلك العهد كان اتهام اي شخص بالرفض كافياً لزوال حرمة نفسه وماله فيؤخذ ويعذب^(٣).

الامام الصادق عليه السلام والمسائل السياسية

١- ثورة زيد :

وقعت في عهد الامام الصادق عليه السلام احداث سياسية مهمة كان من جملتها حركة العلويين (قيام زيد بن علي، وقيام محمد بن عبدالله بن الحسن واخيه ابراهيم في الاعوام ١٤٥ - ١٤٦) وثورة العباسيين التي تبعها سقوط الحكومة الاموية وسيطرة بني العباس على مقاليد الامور وابتعاد العباسيين عن العلويين وهو ما كانت ارضيته قد تهيأت قبل وصول بني العباس الى السلطة، وهذه من جملة الاحداث التي وقعت في عهده.

ولا يسعنا المجال لطرح جميع المسائل السياسية والدينية المهمة التي حصلت

⇒ الشيعة، ج ١٩ ص ٣٢.

(١) الطوسي نفس المصدر ص ٢٨٢.

(٢) المنتخب من ذيل المذيل، ج ٣ ص ٦٥٢.

(٣) المحاسن ص ١١٩ / حياة الامام الباقر عليه السلام، ج ١ ص ١٥٦.

للعلوين والعباسيين (بني هاشم) منذ اوائل القرن الاول للهجرة وبشكل كامل ومفصل، لكننا سنحاول توضيح المسائل المذكورة فيما يتعلق منها بالامام الصادق عليه السلام جهد الامكان.

فالولاء الذين كان يحظى به العلويون -والفاطيون على وجه الخصوص- بين محبي اهل البيت لم يكن يحظى به العباسيون. وكان لهذا الولاء اسبابه المختلفة من اهمها معاملة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم. اضافة الى ان مسألة امامة امير المؤمنين وابنائهم -والتي كانت ذات اهمية قصوى بالنسبة للشيعة على اقل تقدير- كانت ترفع من نسبة هذا الحب و الولاء. وكان الفاطميون هم المتبقي الوحيد من نسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما كان يعطيهم اهمية خاصة ايضاً.

وبعد شهادة الامام الحسين عليه السلام، كان محمد بن الحنفية يتميز بمقام اجتماعي وسياسي مرموق، الا أن الشخصية العلمية والاخلاقية للامام السجاد احتلت مكانتها في المجتمع بالتدريج وازاحت الشخصية الوحيدة من اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي تستقطب الانظار. فهو الولد الوحيد من بين ابناء الامام الحسين من علي عليه السلام الذي نجى من واقعة كربلاء الرهيبة. وحال ببقائه دون انقراض ذرية فاطمة بنت الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق الحسين.

كما ان عبدالله بن عباس كان من الشخصيات العلمية المعروفة في صدر الاسلام، وقد ادرك صحبة الرسول ويعد من اكبر واثق محدثي عصره. والى زمن وفاته (٦٨ هـ) لم يقع اي اختلاف بين العلويين وبني العباس، لكنه ما ان توفي حتى بدأ الاختلاف يدب بين الفريقين بالتدريج. ففي اوائل القرن الثاني بدأ العباسيون يفكرون بالاستقلال عن العلويين وكانوا يدعون الناس سرّاً الى انفسهم، ولكن لم يكن يحدهم كبير امل في النصر، وذلك لان الناس كانوا يعتبرون آل علي هم

المتبقي الوحيد من ذرية النبي ، وكان الظلم الذي تعرّضت له هذه العائلة وخصوصاً بعد مأساة كربلاء قد رفع منزلتهم الاجتماعية بين الناس الى درجة كبيرة.

وكانت الثورة التي قادها زيد بن علي بن الحسين عليه السلام تأكيداً آخر على اهمية العلويين عند اهل العراق. ومع ان زيداً كان أخ الامام الباقر عليه السلام ، إلا أن الاهمية العلمية التي كان يحظى بها الامام الباقر في المجتمع، أدت الى عدم حصول زيد وحركته الثورية على وقع شديد في نفوس الناس، رغم كونه من زمرة المحدثين وموضع اهتمام اهل العراق بسبب كونه علوياً.

وفي العام (١١٤ هـ) ارتحل الامام الباقر عليه السلام فبدأ الامام الصادق عليه السلام يستقطب الانظار بصفته الامام السادس من أئمة الشيعة. وفي اواخر العقد الثاني من القرن الثاني للهجرة قرر زيد - بعد سلسلة من المشاحنات والمشاجرات اللفظية مع هشام بن عبد الملك - رفع لواء المعارضة ضد السلطة الحاكمة. فأعلن ثورته في الكوفة في صفر من العام (١٢٢)، واستشهد بعد يومين من المعارك^(١). والمهم بالنسبة لنا هنا هو موقف الامام الصادق من خروج زيد ومن الفرقة المسماة بالزيدية التي اعلنت عن وجودها في العراق بعد مقتل زيد.

تذكر الروايات الشيعية ان زيداً كان من المعتقدين بامامة أئمة الشيعة ومن جملتهم الامامان الباقر والصادق عليه السلام كما نقل عنه انه كان يقول: «جعفر امامنا في الحلال والحرام»^(٢).

(١) هناك اختلاف حول تاريخ استشهاد زيد.

(٢) الطوسي، نفس المصدر ص ٣٦١، راجع كتاب رجال النجاشي ص ١٣٠ / كفاية الاثر ص ٣٢٧ / كريمان سيرة وقيام زيد ص ٤٩.

وجاء في رواية عن الامام الصادق عليه السلام بحق زيد انه قال فيه : «رحمه الله اما انه كان مؤمناً وكان عالماً وكان صدوقاً اما انه لو ظفر لوفى أما انه لو ملك يعرف كيف يضعها»^(١).

وفي هذا الصدد نُقلت روايات كثيرة، ولذا لا يمكن التحدّث عن زيد بمعزل عن الامام الصادق عليه السلام كما لا يستبعد ان يكون زيد ورغم قبوله بامامة الامام الصادق عليه السلام قد ثار غير ملتفت لاوامره ولا مدّع لخلافة لنفسه، فتزعم بحركته تلك، الثورة ضد بني امية، الذين كان يعتبرهم رمزاً للجاهلية، بعد ان دام الصراع والجدال بينهم وبين عائلته حول موضوع الخلافة الاسلامية الى ما يقارب الثمانين عاماً.

وقد وردت عدّة روايات عن الصادق عليه السلام يخبر فيها مسبقاً بشهادة زيد في محلة الكناسة في الكوفة^(٢).

وجاء في روايات أخرى ان الامام الصادق عليه السلام اعلن عن تأييده لزيد في مقابل بعض الشيعة الذين تبرأوا منه^(٣). وقد وردت روايات كلا القسمين في مصادر اهل السنة. وهي في نفس الوقت الذي تبعث على الثقة والاطمئنان الاّ انها لا تعكس رضى الامام على مبدأ قيام زيد وخاصة بسبب ما ورد في الكافي وبعض جوامع احاديث الشيعة الاخرى من انتقاد لثورة زيد.

ومن بعد ثورة زيد وفي اعقاب استيلاء بني العباس على السلطة انفصل بنو

(١) الطوسي، نفس المصدر ص ٣٨٥.

(٢) عيون اخبار الرضا ج ١ باب ٢٥/ امالي الصدوق مجلس ١٠ ص ٤٠/ تنقيح المقال ج ١ ص ٤٦٨.

(٣) خطط المقرئ ج ٤ ص ٣٠٧/ فوات الوفيات ج ١ ص ٢١٠.

الحسن عن بني الحسين بذريعة زيد وابنه يحيى ، ونصبوا لهم رجلاً من بني الحسن يدعى محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي عليه السلام والتفوا حوله . وقد التف حول هؤلاء ايضاً جماعة من الشيعة اطلق عليهم فيما بعد اسم الزيدية . ثم برزت بين آل جعفر والزيدية خلافات شديدة وصراعات حادة جعل الزيدية فيها الامام الصادق غرضاً للاتهامات المختلفة .

فقد ورد في الحديث ان الزيدية اتهموه بأنه لا يرى الجهاد في سبيل الله فردّهم وقال : «ولكني اكره ان ادع علمي لجهلهم»^(١).

ب - الامام الصادق ودعوة ابي سَلَمَةَ وابي مسلم .

عقد الامام الصادق عليه السلام العزم على تربية شخصيات من اصحابه عدّوا فيما بعد من بُناة التشيع من الناحية الفقهية ومن ناحية الاحاديث والروايات وكانت المساعي السياسية للامام في تلك الظروف محصورة في نطاق عدم الرضا عن الحكم القائم ، والاعلان عن انحصار الامامة وقيادة الاسلام باهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله . وكان الامام الصادق عليه السلام يرى ان المعارضة المسلحة ضد الحكم من غير توفير المستلزمات الضرورية - خاصة في الجانب الثقافي - لن يتمخض عنها سوى الهزيمة والاندثار . وان مثل هذا العمل كان يستلزم تحركاً شيعياً شاملاً يعتقد بالامامة لكي تبدأ الجهود المضادة للحكومة التي يمكن بلوغ النصر من خلالها ، والاّ فان الاجراء الساذج والمستعجل لن يدوم طويلاً بل سيتفقد منه الانتهازيون لا اكثر . كما هو الحال بالنسبة لثورة زيد بن علي ومن بعدها ثورة ابنه يحيى التي قام بها في خراسان ، فقد استغلها العباسيون الى اقصى حدّ وكانوا يشيعون في

(١) فروع الكافي ج ١ ص ٣٣٢ / التهذيب ج ٢ ص ٤٣ / وسائل الشيعة ج ٢ ص ٣٢ .

دعائياتهم بأنهم المقصودون بشعار الرضا من آل محمد، واقرن عملهم هذا بقتل عدد من الطالبين - كما ذكر بعض المؤرخين - الذين كانوا يدعون لنيابة ابي هاشم بن محمد بن الحنفية.

وقد اتضحت نتيجة هذا الموقف فيما بعد حيث اضحى الفقه الجعفري نواة لتشيع قوي. وأخذ يرتفع شامخاً يوماً بعد آخر، واما الزيدية والخوارج الذين انحصر نشاطهم بالجانب السياسي فقط فما لبثوا ان تعرّضت ثقافتهم للاضمحلال وفقدوا شيئاً فشيئاً ما كانوا يتمتعون به من مكانة قوية نسبياً وانحدروا نحو الافول فكانت النتيجة هي انتصار العباسيين في تلك المعركة السياسية العسكرية واستيلائهم على مقاليد الامور. في حين ان الشخص المرشح عن بني هاشم كان رجلاً من بني الحسن اسمه محمد بن عبدالله والذي سنتحدث عن ثورته لاحقاً. واما هنا فسنناول ذلك الجانب الذي يرتبط بالامام الصادق عليه السلام وبني العباس فقط.

لقد كان الدور الأساس لدعوة بني العباس منحصراً في شخصين وهما ابو سلمة الخلال الذي اشتهر بوزير آل محمد^(١) وابو مسلم الخراساني، كما سنوضح ذلك في حينه. وكان شعار الحركة في بداية الامر هو الرضا من آل محمد، حيث لم تكن اذهان الناس عند سماعهم لهذا الشعار لتتصرف إلا الى احد العلويين. لكن الضعف السياسي الذي كان يسود العلويين والمجهود المتواصلة لبني العباس قد غير مسار الاحداث الجارية وراء الستار لصالح الفريق الثاني. كما أن مجريات الامور كانت بيد ابي سلمة الخلال الذي هياً للسفاح والمنصور في الكوفة، واخذ البيعة للسفاح من الناس بمجرد سقوط بني امية، الا انه لم يلبث ان اتهم بالدعوة للعلويين

(١) الوزراء والكتاب ص ٨٤ كان هو وابو مسلم من الموالي.

وانه يعمل للمجيء بهم بدل العباسيين، فقتل في تلك الظروف. ولم تكن الارضية مهیئة امام الصادق عليه السلام بل ان ذا النفس الزكية (محمد بن عبدالله) الذي كان يتمتع بظروف ايجابية من الناحية السياسية لم يستطع الصمود امام العباسيين ومواصلة وجوده. وانطلاقاً من هذه الحسابات، لم تكن امام العلويين آية فرصة لأي نوع من الجهود السياسية التي تُبنى عليها الآمال.

كان الامام الصادق يرى ان دعوة ابي سلمة لا تستند الى ركائز متينة، ولذا ردّ على الكتاب الذي بعثه له ابو سلمة وقال لرسوله: «ابو سلمة شيعة لغيرنا»^(١).

وذكر بعض الرواة ايضاً ان ابا مسلم ارسل كتاباً ايضاً الى الامام الصادق عليه السلام فكتب له الامام في الجواب: «ما انت من رجالي ولا الزمان زمانني»^(٢).

وعلى كل حال فقد كان موقف الامام حذراً ولم يوافق على ما ورد في الكتاب واوصى ايضاً عبدالله بن الحسن باتخاذ نفس هذا الموقف فيما يخص ابنه محمداً (ذا النفس الزكية).

ان وفاء ابي سلمة للعباسيين، وعدم تركه القطعي لهذا الأمر دليل على عدم جدية دعوته. وحتى اذا فرضنا اصراره على تلك الدعوة الا أن القيام بمثل هذا الامر مع وجود اشخاص مثل ابي مسلم والعباسيين كان يبدو امراً غير عملي وكان القبول به يعني الوقوع في الهلكة.

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٦٩ / الوزراء والكتاب ص ٨٦.

(٢) راجع كتاب - حياة الامام الرضا، ص ٤٩.

ج - الموقف تجاه المنصور .

لقد تزامن الردح الاخير من حياة الامام الصادق عليه السلام مع عهد حكومة المنصور. وكان الامام هو الشخصية المعنوية الوحيدة البارزة بين بني هاشم^(١). وكان يتمتع في زمن المنصور بشهرة علمية عظيمة واهتمام وتبجيل الكثير من علماء السنة. ونظراً لما يكنّه المنصور من حقد على العلويين كان من الطبيعي أن يضيق عليه الخناق ولا يتيح له فرصة العيش بحرية. وكان الامام يعتقد - شأنه شأن آبائه - ان الامامة حق خاص به وان الآخرين قد غصبوها منه، ولم يكن ليخفي مثل هذا الاعتقاد، وكان سلوك بعض اصحابه مثل ابن ابي يعفور فيما يخص كونه واجب الطاعة، يعكس مدى اعتقاد الشيعة الراسخ بهذا المبدأ، يقول الامام الصادق عليه السلام في حديث له: «بُني الاسلام على خمسة اشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية .

قال زرارة: فقلت واي شيء من ذلك افضل؟

فقال: الولاية افضل لأنها مفتاحهن والوالي هو الدليل عليهن»^(٢).

لقد طُرحت الولاية هنا بصفتها ركناً يتوقف عليه تطبيق بقية الاركان. ومثل هذا الطرح كان بمثابة ناقوس خطر يهدد المنصور، ولهذا فقد بدأ يتحين الفرص حتى يغتال الامام بذريعة ما .

كتب ابن عنبه يقول: «قرر المنصور عدّة مرات قتل الامام، لكن الله

(١) ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠ / جهاد الشيعة ص ١٠٤ .

(٢) وسائل الشيعة ج ١ ص ٧-٨ .

حفظه»^(١).

وكانت نشاطات الامام في اغلب الاحيان تجري في الخفاء وكثيراً ما كان يؤكد على اصحابه بضرورة كتمان اسرار اهل البيت وقد نقلت عنه في هذا المضمار روايات كثيرة^(٢). ولهذا لم يذكر التاريخ بدقّة كيفية عمل الامام، غير ان قيادة الشيعة -وكما ذكرنا سابقاً- كان لها برنامج ونشاط في الخفاء بحيث ظلّت محافظة على انسجام الامامية.

وكان الامام يرفض -إلاً بالاكره- التردد على بلاط المنصور، فكان المنصور يلومه على ذلك^(٣)، حيث قال له في احدى المرات: «لماذا لا تغشانا كما يغشنا سائر الناس؟ فقال له: ليس لنا ما نخافك من اجله وليس عندك من امر الآخرة ما نرجوك له. ولا انت في نعمة فنهنك، ولا تراها نقمة فنعزيك بها، فما نصنع عندك؟»^(٤).

وبهذا الاسلوب كان الامام يعبر عن سخطه على حكومة المنصور، وكذلك كان يحذر اصحابه واتباعه من مجالسة الملوك بهذه المقولة الخالدة: «إِيَّاكَ وَمَجَالِسَةَ الْمُلُوكِ»^(٥).

بل انه حذر العلماء الذين يترددون على بلاط الملوك من عملهم هذا فقال:

(١) عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب ص ١٩٥ ط النجف.

(٢) مستدرک الوسائل ج ١٢ ص ٢٩١-٣٠٤.

(٣) مستدرک الوسائل ج ١٢ ص ٣٠٧.

(٤) كشف الغمة، ج ٢ ص ٢٠٨-٢٠٩ / ابو زهرة الامام الصادق ص ١٤١.

(٥) مستدرک الوسائل ج ١٢ ص ٣١٠.

«الفقهاء امناء الرسل، فاذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا الى السلاطين فاتّهموهم»^(١).

وفي احد الايام سأله المنصور: يا ابا عبدالله لم خلق الله الذباب؟

فقال: «ليذل به الجبابرة»^(٢).

ونقلت روايات اخرى ايضاً عن الامام الصادق عليه السلام كقوله: «لا تحاكموا الى الطاغوت».

وهي تعكس نمط سلوكه مع السلطة الحاكمة. واجاب على سؤال عرض عليه بهذا الصدد فقال:

«من تحاكم اليهم (السلطان او القضاة) في حقّ او باطل فانّما تحاكم الى الطاغوت»^(٣).

وقد تصوّر بعض المؤلفين بان سياسة الامام ينبغي ان تكون اما قائمة على الثورة او ان يكون على رأس السلطة. ومثل هذا التصور صحيح من وجهة نظر الزيدية، اما من وجهة النظر الشيعة، فان سياسة الامام كانت تقوم على قيادة اكثر الثورات شدة وتطوّراً ضد الحكومات الفاسدة لبني امية وبني العباس وتكون مثل هذه الثورات مع ذلك مدعومة بأسس ثقافية وفقهية متينة وذات جذور عميقة. وقد اتضح مثل هذا بصورة جلية في تاريخ الشيعة وبدأ اطلاق اسم المذهب الجعفري على مذهب الامام الصادق عليه السلام في عهده^(٤).

(١) كشف الغمة ج ٢ ص ١٨٤ / تهذيب الكمال ج ٥ ص ٨٨ / الذهبي سير اعلام النبلاء، ج ٦ ص ٢٦٢.

(٢) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٨ / تهذيب الكمال ج ٥ ص ٩٢ - ٩٢.

(٣) فروع الكافي ٧ ص ٤١ / التهذيب ج ٦ ص ٢١٨ / وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤.

(٤) رجال الكشي ص ٢٥٥.

ومن هنا يمكن اكتشاف الخطأ الفادح الذي وقع فيه الشهرستاني، فقد كتب هذا الرجل عن السلوك الاجتماعي للامام قائلاً: «ما تعرّض للامامة قط ولا نازع احداً الخلافة قط»^(١).

ومثل هذا الكلام لا ينسجم مطلقاً مع الواقع العيني لوضع الشيعة لا في عصر الامام ولا بعده.

د - موقف الامام من محمد بن عبدالله بن الحسن (النفس الزكية) .

نشأ الاختلاف بين بني الحسن وبني الحسين عندما اعتبر عبدالله بن الحسن بن الحسن ابنه محمداً هو قائم آل محمد^(٢)، ويبدو ان العباسيين وخاصة المنصور قد وسعوا من نطاق هذا الاختلاف لغرض استغلاله سياسياً، فبعد قيام واستشهاد زيد، اجمع بنو هاشم من علويهم وعباسيهم على بيعه محمد بن عبدالله (باستثناء الامام الصادق وعدة اشخاص آخرين).

ولو امعنا النظر فيما نمتلكه من معلومات عن الحركة العباسية التي كانت تجري في الخفاء لأدركنا ان ذلك الفعل كان موقفاً سياسياً صرفاً او انه حصل اضطراراً. وقد نقل ابو الفرج الاصفهاني وقائع تلك البيعة بالتفصيل. فقد ذكر ان من حضر من العباسيين داود بن علي وابراهيم الامام وصالح بن علي والمنصور والسفاح. ولما جاؤوا على ذكر الامام الصادق عليه السلام قال عبدالله بن الحسن والد ذي النفس الزكية: «لا نريد جعفرأ ثلثاً يُفسد عليكم امركم».

وبعد أن حضر الامام في ذلك المجلس واعلن معارضته لثورتهم فسر

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧.

(٢) مقاتل الطالبين ص ١٤١.

عبدالله بن الحسن عمله هذا بالحسد^(١).

ولم يمضِ طويل من الوقت حتى ثار كلا الأخوين محمد بن عبدالله بن الحسن في المدينة وإبراهيم في البصرة، وقتلا بعد معركة قصيرة مع الجيش العباسي. وكانت تلك الهزيمة بداية لسلسلة من الهزائم التي لحقت بالزيديين الذين ثاروا في العراق وإيران، ولم تفلح سوى واحدة منها وهي ثورة الحسن بن زيد في طبرستان التي نالت انتصاراً نسبياً واستمرت مدّة زهاء النصف قرن (النصف الثاني من القرن الثالث)^(٢).

(١) مقاتل الطالبين ص ٤٠ - ٤١ / كريمان، سيرة وحياة زيد ص ٧٥ قلاً عن الارشاد ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٢) كشف الغمة ج ٢ ص ١٧٢ - ١٧٣ / راجع كتاب الطبري ج ٧ ص ٣٠٢ ط عز الدين.

الفهرست

٧	مقدمة السيد جعفر مرتضى العاملي
٧	دراسة حياة الائمة <small>عليه السلام</small> شمولاً وعمقاً
٩	آفاق البحث
١٠	سؤال .. وسؤال آخر
١١	تأريخان .. غير متجانسين
١٢	التزوير .. والاصالة
١٤	بين الافراط والتفريط
١٧	مدخل دراسة ، تعوزه الفهرسة
١٨	نقاط مهمة
٣٣	مقدمة المؤلف: اهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٤٥	الامام علي <small>عليه السلام</small>
٤٨	معرفة مختصرة
٤٨	إيمان علي <small>عليه السلام</small>
٥١	صحابه علي <small>عليه السلام</small> لرسول الله <small>ﷺ</small>
٥٦	سياسة الامام <small>عليه السلام</small>

٥٧ خلافته عليه السلام
٥٨ المبادئ والاصول السياسية للامام طيلة حكمه
٦٣ مصير السياسة في حكومة امير المؤمنين عليه السلام
٦٨ تحرك الامام عليه السلام لاحياء الدين
٧٤ البعد العلمي للامام علي عليه السلام
٧٧ نط حياة الامام عليه السلام
٨١ الامام الحسن عليه السلام
٨٧ المشاركة في حروب الجمل وصفين والنهروان
٨٩ مسؤولية الامام عليه السلام
٩٣ رغبة الامام عليه السلام القاطعة في محاربة معاوية
٩٥ حركة اهل العراق البطيئة لمحاربة القاسطين
٩٨ الصلح المفروض من قبل معاوية وتحليل أسبابه
١٠٤ الصلح المفروض وبنوده
١١٠ خطبة الامام عليه السلام بعد دخول معاوية الى الكوفة
١١١ الامام عليه السلام ومعاوية ومحاربة الخوارج
١١٣ خصائص الامام الحسن عليه السلام
١١٥ استشهاد الامام عليه السلام
١١٩ الامام الحسين عليه السلام
١٢٣ الامام الحسين عليه السلام ومبايعة يزيد

١٣٥	دور الانحراف الديني في واقعة كربلاء
١٣٦	طاعة الائمة <small>عليهم السلام</small> ووجوب حفظ الجماعة ، وحرمة نقض البيعة
١٣٩	الاعتقاد بالجبّر
١٤١	موقف أهل الكوفة من واقعة كربلاء
١٤٤	ضغط ابن زياد على أهل الكوفة
١٤٦	فرار الناس وانحيازهم الى معسكر الحسين <small>عليه السلام</small>
١٥٠	تعلّق الناس بالعطاء
١٥١	تقويم سفر الامام الحسين <small>عليه السلام</small> الى العراق
١٦١	عنصر الغيب في حادثة كربلاء
١٦٣	دور واقعة كربلاء في تكوين الشيعة
١٦٥	الامام السجاد <small>عليه السلام</small>
١٧١	أمّ الامام السجاد <small>عليه السلام</small>
١٧٢	امامة السجاد <small>عليه السلام</small>
١٧٣	الشخصية العلمية والاخلاقية للامام السجاد <small>عليه السلام</small>
١٧٩	الامام السجاد <small>عليه السلام</small> والشيعة
١٨١	العلاقة بين الامام <small>عليه السلام</small> والتوابين
١٨٥	علاقة الامام <small>عليه السلام</small> بالمختار
١٨٩	الامام السجاد <small>عليه السلام</small> واصحابه
١٩١	موقف الامام <small>عليه السلام</small> من الامويين
١٩٦	استفادته <small>عليه السلام</small> من سلاح الدعاء

الامام السجاد عليه السلام واستقطاب الموالي ٢٠٢

الامام الباقر عليه السلام ٢٠٧

المكانة العلمية للامام الباقر عليه السلام ٢١١

الامام عليه السلام والاختلافات الفقهية بين الفرق الاسلامية ٢١٦

تصديده عليه السلام للافكار اليهودية ٢٢٢

التراث الثقافي للامام الباقر عليه السلام ٢٢٥

اوضاع ومكانة الشيعة وفقاً لرأي الامام عليه السلام ٢٣١

الامام عليه السلام والقضايا السياسية ٢٣٨

الامام الصادق عليه السلام ٢٤٩

شخصية الامام الصادق عليه السلام الفقهية والاخلاقية ٢٥٣

شيعة الامام الصادق عليه السلام ٢٦٠

الامام الصادق عليه السلام والغلاة ٢٦٣

اعتماد الفقه الشيعي على روايات اهل البيت عليهم السلام ٢٧٢

كتابة الحديث في عصر الامام الصادق عليه السلام ٢٨٣

الامام الصادق عليه السلام والاحتجاجات الفقهية لاهل السنة ٢٨٥

الضغط السياسي على الشيعة ٢٨٥

الامام الصادق عليه السلام والمسائل السياسية ٢٨٧

الفهرست ٢٩٩

